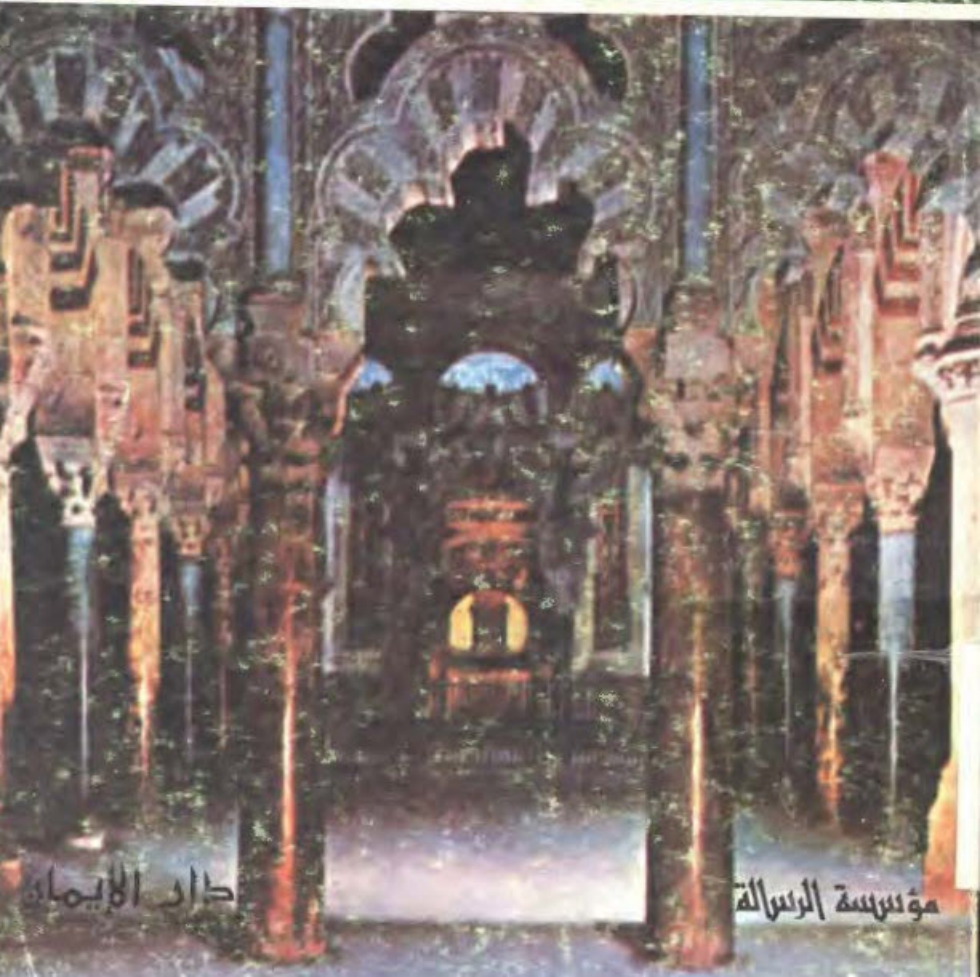


الدكتور أحمد سليم العيسى

ابن زُمرَك الغرناطي

٧٣٣-٧٤٦ هـ / ١٣٣٢-١٣٩٢ م

سيرة وأدبه



دار الأيمان

مؤسسة الرسالة

ابن زُمرَك الغرناطيّ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

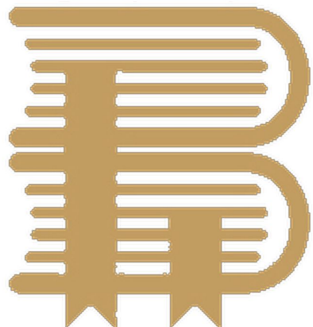
مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحه

هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ بريقياً : بيوشمران



دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع - طرابلس - لبنان

هاتف: ٦٢٨٥٨٢ - ٦٢٩٢٨٨ - ص.ب ٥٧٨ - بريقياً : رضاكو



ابن زمرک الغزنایيؒ

٧٢٣-٧٩٦ هـ / ١٣٢٣-١٣٩٣ م

سیرتہ وأدبہ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ابن زمرَك

المقدمة

إذا كان يحسن بي أن أحدد أهم مصادر هذه الدراسة، وجب أن أذكر، قبل كل شيء، كتاب «أزهار الرياض في أخبار عياض»^(١) للمقري^(٢) ذلك المؤرخ الذي لا يكل ولا يمل وهو صاحب الفضل الذي لا يجحد^(٣).

وقد انشأ المقري كتابه هذا، في أثناء إقامته بفاس بين سنة ١٠١٣هـ - ١٦٠٤ - ١٦٠٥م وسنة ١٠٢٧هـ / ١٦١٨م^(٤) وذكر فيه ترجمة القاضي أبي الفضل عياض بن موسى، القاضي الإمام المالكي، وخصص منه قسماً غير صغير لذكر قصائد ابن زمرَك وموشحاته^(٥)، وأطال الحديث عنه بشكل

(١) المقري: «أزهار الرياض في أخبار عياض» حققه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، الجزء الأول، ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م، والجزء الثاني، ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م.

(٢) هو أحمد بن محمد بن أحمد المقري القرشي، يكنى أبا العباس ويلقب بشهاب الدين. ولد بتلمسان سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨ - ١٥٧٩م. وتوفي بمصر أواسط سنة ١٠٤١هـ / أوائل سنة ١٦٣٢م. وهو مؤرخ أديب مشارك في علوم الكلام والحديث والتفسير. وله مؤلفات كثيرة أهمها: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» و«أزهار الرياض...» (راجع «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، دار صادر، تحقيق الدكتور إحسان عباس المجلد الأول، مقدمة المحقق، ص ٥ - ١٤).

(٣) غرسيا - غومس: «مع شعراء الأندلس والمتنبي»، تعريب الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م، ص ١٨٨.

(٤) المقري: «نفح الطيب...»، الجزء الأول، مقدمة المحقق، ص ١١.

(٥) المقري: «أزهار الرياض...»، الجزء الثاني، ص ٧ - ٢٠٦.

لافت، وأحس هو بهذه الإطالة، فقال يبررها:

«ولما أطلت في كلام الرئيس ابن زمرك، رحمه الله تعالى، لوجوه أولها أن الذي ألف الكتاب من أجله راغب في ذلك»^(١).

ثم سرد بعد هذا وجوهاً أربعة أخرى ذكر فيها أن خوفه من ضياع ما كان مقيداً عنده من كلام ابن زمرك، واشتمال هذا الكلام على أمداح المصطفى، وعلى أوصاف الجهاد والخيال وغير ذلك من الغرائب، وولوع كثير من الناس بكلامه، كل هذا اضطره إلى جمع بعض أشعاره في هذا الكتاب.

فإذا عرفنا أن «أزهار الرياض...» يتضمن ألفين وأربعمائة وواحداً وثمانين بيتاً من شعر ابن زمرك، وخمسة عشر موشحاً أدركنا بالتالي، أهميته القصوى بالنسبة إلى هذه الدراسة التي سوف تهتم، أكثر ما تهتم، لتحليل أدب الشاعر وتقويمه.

على أنه تجدر الإشارة إلى أن ما جمعه المقرئ في كتابه كان قد نقل أكثره من سفر ضخّم رآه في المغرب، وقد جمع فيه صاحبه السلطان ابن الأحمر^(٢) شعر ابن زمرك وموشحاته^(٣)، وسماه: «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك»^(٤)، «أما البقية فلما بقي بعد هلاكه، وتخطته الحوادث وشحّ الدهر بإمسাকে، والمدرك: لأجل ما ترك في مبيضاته، ولم يخرجه في حياته»^(٤).

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...» الجزء الثاني، ص (٧-٢٠٦).

(٢) هو السلطان يوسف الثالث ابن أبي الحجاج يوسف الثاني ابن الغني بالله محمد الخامس وهو السلطان الثالث عشر لمملكة غرناطة، كان شاعراً أديباً، وله ديوان مطبوع. وهو غير الأديب إسماعيل بن يوسف بن محمد... ابن الأحمر صاحب كتاب «نثر فرائد الجمال...» (ديوان ملك غرناطة، تحقيق عبد الله كنون، مكتبة الأنجلو، مقدمة المحقق، ص ٤).

(٣) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ١٦٢.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢١. وقد ورد عنوانه أيضاً كالاتي: «البقية والمدرك من كلام ابن زمرك». (يراجع «أزهار الرياض...» ١١: ٢).

ولو أن هذا الكتاب قد وصل إلينا ولم يفقد لكان، في الواقع، المصدر الأول والأهم لهذه الدراسة.

ثم إن المقرّي قد نقل قسماً يسيراً من أشعار ابن زمرك، من كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة»^(١) لصاحبه لسان الدين بن الخطيب^(٢). وهو (أي المقرّي) حين انشأ كتابه «نفح الطيب...»^(٣)، عاد إلى تضمينه شيئاً كثيراً من كلام ابن زمرك فنقل إليه من كتاب «أزهار الرياض...» ألفاً وتسعمائة وستة أبيات فضلاً عن الموشحات التي أعاد تدوينها بكاملها^(٤). بالإضافة إلى ما تخلل هذه الأشعار من كلام تناول فيه المقرّي شيئاً من سيرة الشاعر.

بهذا يتضح لنا أن كتاب «نفح الطيب...» يحمل الرتبة الثانية في الأهمية بعد «أزهار الرياض...».

ثم يأتي، بعد ذلك، كتاب «الإحاطة...»^(٥)، ويتضمن مائتين وسبعة وسبعين بيتاً، أورد منها المقرّي في «أزهاره» و«نفحه» مائتين وثمانية وخمسين بيتاً.

(١) المجلد الأول حققه محمد عبد الله عنان - دار المعارف - سلسلة ذخائر العرب رقم ١٧. الجزء الثاني، الطبعة الأولى - مطبعة الموسوعات، ١٣١٩هـ.

(٢) هو ذو الزاريتين أبو عبد الله محمد بن عبد الله... السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب والملقب بلسان الدين (٧١٣-٧٧٦هـ / ١٣١٣-١٣٧٤م)، تولى الكتابة عن السلطان أبي الحجاج يوسف الأول ثم تولى وزارة ابنه الغني بالله من بعده. ثم أحسّ بتحول ملكه عنه فلجأ إلى المغرب. وفي عهد السلطان أبي العباس أحمد حوكم وقتل. كان شاعراً وكاتباً وفقياً وطبيباً نسيج وحده في الشعر والنثر. وله مصنفات كثيرة في مواضيع شتى لعل أهمها كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة». وقد ترجمه كثير من المؤلفين أهمهم المقرّي في «نفح الطيب...» (وبخاصة في جزئيه السادس والسابع) وابن الأحمر في «نثر فرائد الجمان...» ص (٢٤٢-٢٩٢).

(٣) الذي فرغ منه آخر ذي الحجة من سنة ١٠٣٩هـ / أوائل آب ١٦٣٠م. (يراجع المقرّي: «نفح الطيب...» الجزء الأول، مقدمة المحقق ص ١٥).

(٤) المقرّي: «نفح الطيب...» الجزء السابع، ص ١٤٨ - ١٦٠ و ١٦٦ و ١٦٧ و ١٧١ و ٢٦٥ و ٢٨٠ و ٢٨١.

(٥) يراجع الجزء الثاني منه، ص ٢٢١-٢٣٧.

ولئن عجب المرء من ضالة ما تضمنه كتاب «الإحاطة..» من شعر ابن زمرك، رغم تقدمه في الزمن بالنسبة إلى «أزهار الرياض..» و«نفع الطيب..»، فسرعان ما يزول عجبه حين يعلم أن ابن الخطيب قد انتهى من تأليف «الإحاطة..» في شعبان عام ٧٧٠هـ^(١) (آذار ١٣٦٩م)، وأن ابن زمرك كان في السابعة والثلاثين من عمره، وأنه قد نظم معظم أمداحه بعد هذا التاريخ، وبخاصة بعد تسلمه منصب الوزارة، إثر فرار أستاذه ابن الخطيب إلى المغرب.

هذه هي أهم المصادر، في ما يتعلق بآثار ابن زمرك. أما في ما يتعلق بسيرته، فلا نجد، مع الأسف، مصدراً جامعاً كل عناصرها. وقد ورد شيء من سيرته في «الإحاطة..»^(٢) و«الكتيبة الكامنة..»^(٣) لابن الخطيب. ثم أخذ المؤلفون بعد ذلك، ينقلون ما ورد في الكتابين. على أن ما ورد فيهما لا ينقع غلة ولا يروي ظمأ. وسوف نرى في الفصل الذي أتحدث فيه عن ابن زمرك، أن ما وجدته من هذه السيرة لا يكفي لنستطلع أحواله كلها جميعاً.

أما المراجع التي تحدثت في موضوع ابن زمرك، سيرة وآثاراً، فأهمها ثلاثة: الأول بحث موجز لريجيس بلاشير بعنوان «الوزير الشاعر ابن زمرك وآثاره»^(٤). وقد استغرق البحث اثنتين وعشرين صفحة، ربعها على الأقل حواش وتعليقات. تحدث في نهايته^(٥) عن أغراض ابن زمرك في آثاره فآلم بالغزل والتهنئة والاعذاريات والخمریات والملاح والوصف إلماًماً سريعاً.

(١) غرسيا - غومس: «مع شعراء الأندلس والنتي»، ص ١٨٨.

(٢) الجزء الثاني، ص ٢٢١ - ٢٣٧.

(٣) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» تحقيق د.

إحسان عباس، دار الثقافة، ١٩٦٣م، ص ٢٨٢ - ٢٨٨.

Blachère, Régis: «Le Vizir - poète Ibn Zumruk et son œuvre», Annales de l'Institut (٤) d'études orientales» (A.I.E.O.), Faculté des lettres de l'Université d'Alger, tome II, année 1936, pp. (291 - 312).

(٥) بدءاً بالصفحة ٣٠٤ بالتحديد.

أما الثاني فهو دراسة قصيرة بعنوان «ابن زمرك شاعر الحمراء»، لغرسيا غومس، نشرت مع عدة دراسات آخر في كتاب بعنوان «خمس شعراء مسلمين»: سير ودراسات^(١) وقد تناول في هذه الدراسة الحديث عن عصر ابن زمرك وسيرته وفنه ثم ختمها بالحديث عن نقوشه الشعرية في قصر الحمراء.

ثم نصل أخيراً إلى المرجع الثالث: «... ثم غربت الشمس»^(٢) لمؤلفته الأدبية المصرية المعروفة سهير القلماوي التي تحدثت فيه عن غرناطة وملكها الغني بالله محمد ووزيره الشاعر ابن زمرك، حديثاً ملؤه التقدير والاعجاب بالملك ووزيره. ولا يمكن أن يطلق على هذا الحديث لقب بحث أو دراسة، فهو لا يتصف برصانة الباحثين الأولين وليست له، بالتالي، أهميتها نفسها.

وإذا كان لكل من هؤلاء المؤلفين رأيه في تقويم الشاعر وتقويم أدبه فقد حاولت أن أدلي برأيي بين هذه الآراء، لا حباً بالتفرد في الرأي، ولا رغبة في المخالفة بل إنطلاقاً من اقتناع تكوّن لدي بعد قراءة معمقة لأثار ابن زمرك. وبهذا يخرج هذا العمل مطبوعاً بطابع شخصي غير مقيد بآراء الغير. ولئن كان بين رأيي وآرائهم شيء من صلة أو اشتراك أو تقارب فإنما هذا عامل تأكيد للجهد الشخصي لا عامل نفي له.

على أن ما دفعني إلى اختيار ابن زمرك موضوعاً لهذا الكتاب، أسباب متقاربة متشابهة تنحصر، حقاً، في سبب واحد. وهو أنني قرأت كتباً تتحدث

(١) وهو بالاسبانية:

«Cinco poetas musulmanes: biografías y estudios».

عزبه الدكتور الطاهر أحمد مكي ونشره تحت عنوان «مع شعراء الأندلس والمنتني».

(٢) هو كتيب صغير من سلسلة «أقرأ» (رقم ٧٦)، صدر عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩م. وهو يتألف من مائة وإحدى وعشرين صفحة.

عن أدب الأندلس، لمؤلفين عرب^(١)، فلاحظت أن أكثرهم قد بالغ في التدليل على تبعية الأدب الأندلسي وذيلته للأدب الشرقي فقلل من قيمته ولم يعطه أية أهمية. ثم قرأت كتباً في الموضوع نفسه، لمؤلفين أوروبيين، فوجدت أن أكثرهم قد بالغ في الانسياق وراء فكرة تؤكد على استقلال الأدب الأندلسي وانطباعه بالطابع الأيبيري. فقد زعم بعضهم أن المزاج الأندلسي استطاع أن ينفخ في قوالب الشعر العتيقة روحاً جديداً كتلك التي نفخها الفرس في هذه القوالب عينها في المشرق، وأكد أن ما نقع عليه في شعر الأندلسيين من رقة خاصة في الأحاسيس وعمق في العواطف، وما نلمسه لديهم من استجابة لمفاتيح الطبيعة والفن وتصويرها بكثير من التلطف، كل ذلك لم يتأت لهم إلا بتأثير مباشر من البيئة الأندلسية الأيبيرية^(٢). بل إن بعضهم رأى أن الحضارة التي امتدت حتى القرن الخامس عشر الميلادي في ظل الحكم العربي بالأندلس، يجب عدم التردد في تسميتها بـ«الحضارة العربية الاسبانية»، لأنها نشأت نتيجة مؤثرات مختلفة في شبه جزيرة ايبيريا نفسها^(٣).

ولئن كان هناك من يعترض على هذه التسمية تعصباً للعرب فإنه لن يكتفي، حتماً، بالاعتراض بل سيثور غضباً عندما يسمع بالثبوت يقول عن ابن حزم أنه كان «اسبانياً خالصاً»^(٤).

(١) أبي الخشب، إبراهيم علي: «تاريخ الأدب العربي في الأندلس»، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م، ص ١٧٦، وخالص، د. صلاح: «اشبيلية في القرن الخامس الهجري»، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥، ص ٨٥ وأمين، أحمد: «ظهر الإسلام»، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٢م، الجزء الثالث، ص ١٠٤ و ١٠٥.

(٢) بروكلمان، كارل: «تاريخ الشعوب الإسلامية»، تعريب: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ص ٤ و ١٥٩ و ١٦٠.

(٣) ليفي - بروفنسال: «حضارة العرب في الأندلس»، تعريب: ذوقان قرقوط دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٩.

(٤) بالثبوت: «تاريخ الفكر الأندلسي»، تعريب: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ص ٧٦.

وهكذا وقعت على رأيين مختلفين حول موضوع الأدب الأندلسي، بل يكادان يكونان متناقضين. فأحببت أن أدرس هذا الأدب، من خلال دراستي لأصحابه، وأن أتعلم فيه لأرضي فضولي من جهة، وأطلع، من جهة أخرى، وعن كتب، على جزء من أدبنا العربي، لم يخصص له في الدراسة الثانوية حيز ذو بال.

ولهذا قمت بدراسة شعر الخمر في الأندلس في رسالة دبلوم الدراسات العليا، وأدركت بعدها، أن الرأيين السابقين، وإن كان كل منهما يحمل جزءاً من الحقيقة، يتضمنان شيئاً من المبالغة. فمما لا يمكن إنكاره أن الأندلسيين قد قلدوا المشاركة في أشعارهم، وبخاصة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، ذلك بأن الثقافة الأندلسية، لم تكن، في البدء، إلا امتداداً للثقافة العربية في المشرق. وهذا التقليد كان واضحاً وواسعاً بحيث أغاظ ابن بسام^(١) ودفعه إلى أن يقول في مقدمة كتابه «الذخيرة...»:

«إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعت بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، جثثوا على هذا صنماً، وتلّوا ذلك كتاباً محكماً، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد، فغاظني منهم ذلك وأنفت مما هنالك...»^(٢).

غير أن الأدباء الأندلسيين سرعان ما أحسّوا بأندلسيتهم وأدركوا

(١) هو أبو الحسن علي بن بسام الششتري الأندلسي (؟-٥٤٢هـ / ؟-١١٤٧م)، مؤرخ وأديب أندلسي معروف. له كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة». (يراجع ياقوت الحموي: «معجم الأدباء»، مطبوعات دار المأمون، الجزء الثاني عشر الطبعة الأخيرة، ص ٢٧٥. و«المنجد في الاعلام»، ص ٨).

(٢) ابن بسام: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، القسم الأول، المجلد الأول، ص ١٢.

واقعهم، فراحوا يسIRON، مع تقدم الزمن، في طريق التطور الصحيح. وحاولوا، بنجاح ظاهر، أن ينتقلوا من التقليد إلى المنافسة. فزادوا في شعرهم الوجداني مما استدعته الحضارة من التوسع في الخمریات وإتقان الوصف بعامة. فنبغ منهم شعراء كثيرون واضطروا، تحت ضغط المنافسة، إلى أن يطلقوا على نوابغهم ألقاب شعراء المشرق وكناهم: فكان غالب الأندلسي يكنى أبا تمام، وابن زيدون يلقب بالبحثري، وابن هانيء الأندلسي بالمتنبي وحمدونة بنت زياد المؤدب بخنساء المغرب، وابن خفاجة بصنوبري الأندلس، وأبو بكر المخزومي بالمعري الثاني.. ولكن ألا يشكل هذا بحد ذاته، منتهى التقليد؟ نعم، ولكنه تقليد رائع، أوصلهم في النهاية إلى اصطناع الجديد في الوصف والعزل والخمر والمجون. فتفننوا في أوصاف شتى حتى فاقوا المشاركة في بعضها كوصف الطبيعة الناعمة والمدن العامرة، وبرعوا في وصف مجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآله، بحيث استطاعوا أن يخرجوا من دائرة تقليدهم أبا نواس ويأتوا بمعان جديدة لا نجدها عند أمير الشعر الخمري نفسه^(١).

من هنا، كان الكلام على الأدب الأندلسي بوصفه أدباً منمازاً عن أدب المشاركة، والكلام عليه بوصفه صورة ممسوخة عن أدب المشرق، سواءً في مجانبة الصواب.

وحين قررت متابعة التحصيل العالي لنيل شهادة الدكتوراة، خطر لي أن أقوم بدراسة تحليلية يكون موضوعها: «التقليد والتجديد في الأدب الأندلسي»، إلّا أنني أدركت فوراً أن القيام بهذا الدراسة فوق طاقتي، لأنها تتطلب خبرة طويلة وتخصصاً واسعاً في الأدب الأندلسي. فعزمت على هذا التخصص ونويت أن يكون موضوع أطروحتي دراسة شخصية أدبية غير

(١) الحمصي، أحمد: «شعر الخمر في الأندلس»، رسالة دبلوم الدراسات العليا، ص ١٤٥ - ١٦١.

مشهورة. وكنت قد سمعت بابن زمرك آخر الشعراء الأندلسيين وعرفت قصة غدره بأستاذه لسان الدين، فأثار هذا الشاعر فضولي وأحببت أن يكون موضوع هذا الكتاب.

ولقد كنت أعرف، مسبقاً، أن هذه الدراسة سوف تتطلب مني عناء كبيراً لأنني أريد أن أركز فيها على جديد ابن زمرك في ميدان الشعر. ولذلك حاولت جاهداً، أن أجمع كل ما وقعت عليه من شعره. وقد أنبأتني القراءة الأولى لما جمعته، أن شعره في أكثره تقليدي، فأردت أن تكون دراستي لهذا الشعر قريبة من الدراسات التقليدية البحتة التي تنظر في الأغراض ومضامينها وتبين ما تتصف بها من خصائص فنية، وأن تكون بعيدة، قدر الإمكان، من الدراسات الحديثة التي تُعنى بالبنوية القائمة على التحليل الأسلوبي، أو بالتحليلية المعوّلة على التحليل النفسي العاكس عُقد المؤلف ونزعاته الحياتية، أو بالنقد الاجتماعي الرامي إلى تحليل الأعمال الأدبية تحليلاً اجتماعياً. على أي لا أحب أن أطلق على الدراسة الأدبية، أيّاً كان نوعها، صفة القدم أو الحداثة، طالما أنها تقوم، أولاً وأخيراً، على التحليل. ولئن صرف رواد علم اللغة الحديث قدراً كبيراً من جهودهم للمشاركة في إقامة علم الأسلوب، فوجهوا البحث اللغوي من المناحي التاريخية والمقارنة إلى منحى درس الخصائص التركيبية وخصائص الكلمات، ولئن قامت هناك مدارس للدرس الصوتي وبحث الطوائع الاجتماعية للأسلوب ودراسة مستويات السياق وخصائص التعبير اللغوي... فكل هذا لا يجعل من الدراسة الحديثة شيئاً مغايراً للدراسة القديمة أو مختلفاً عنها اختلافاً كبيراً وبخاصة إذا عرفنا أن علم الأسلوب الأدبي يقوم على مزيج من نتائج علم اللغة الجديد ومقررات علم البلاغة القديم.

ولسوف أعرض لأغراض ابن زمرك جميعها بالتحليل والنقد والدراسة المسهبة بهدف استخلاص مميزات النتاج الأدبي لشاعر وصف بالتقليد كما

وصف بالإجادة، علّ هذا العمل يعدّ تكاملاً لدراسة الأعمال الأدبية لسائر الشعراء العرب.

وغنيّ عن البيان أن ألفين من الأبيات وبضعة عشر موشحاً وعدة رسائل تكفي بلا ريب، لتحقيق هدف هذه الدراسة. وإلاّ فإني أعرف أن لابن زمرك آثاراً أدبية أخرى لم أقع عليها في المصادر الباقية إلى اليوم، إذ امتدت إليها يد الدهر - وربما يد الإنسان أيضاً - بالإتلاف أو الاختفاء أو التضييع، كما حصل لكتاب «البقية والمدرّك من شعر ابن زمرك» الذي جمع فيه صاحبه ديوان ابن زمرك، ونقل منه المقرّي، كما ذكرت سابقاً، فقرات طويلة في «أزهاره» و«نفحه». ومن هذه الفقرات ما ذكره السلطان ابن الأحمر^(١) من أنه وقف «على رقعة من رقاعه (أي من رقاع ابن زمرك) وهو يبدىء فيها ويعيد ويقول:

«خدمته (أي خدمت الغني بالله) سبعاً وثلاثين سنة، ثلاثاً بالمغرب، وباقيها بالأندلس، أنشدته فيها ستاً وستين قصيدة في ستة وستين عيداً، وكل ما في منازل...»^(٢).

فإذا صح هذا القول، تبين لنا بعملية بسيطة أن ابن زمرك نظم بضعة آلاف من الأبيات، ذلك بأن قصائده المدحية طويلة عادة، وهي تتجاوز، أحياناً كثيرة المائة بيت.

وهنا، لا بدّ من أن أذكر بعض الإيضاحات حول هذه الدراسة فأقول: إنني جمعت ألفاً وأربعمائة وثمانية وسبعين بطاقة تضمنت من النثر شيئاً غير يسير ومن شعر ابن زمرك ستين مقطعاً شعرياً^(٣) واثنين وخمسين قصيدة^(٤)

(١) سبق التعريف به في صفحة ٦ من هذه الدراسة.

(٢) المقرّي «نفح الطيب...»، ٧: ١٦٧.

(٣) تراوح عدد أبياتها بين بيت واحد وستة أبيات بحيث كان مجموعها مائتين واثنين.

(٤) تراوح عدد أبياتها بين سبعة أبيات ومائة واثنين وسبعين بيتاً بحيث كان مجموعها ألفين وأربعمائة واثنين عشر بيتاً.

مع الإشارة إلى أن بعض المقطعات أو القصائد القصيرة كانت في الأصل قصائد طويلة، ولكن المقرئ اجتزأ منها ما أراه وأعجبه.

وقد استطعت أن أجمع لابن زمرك ألفين وأربعة عشر بيتاً وخمسة عشر موشحاً وثلاث رسائل ومقطوعتين نثريتين. فأما القصائد فمنها ثلاث وعشرون قصيدة على بحر الطويل^(١) وثلاث وعشرون قصيدة على بحر الكامل^(٢) وخمس قصائد على بحر البسيط^(٣) ومنها مسمّطة من أربعة عشر سمطاً. وأما المقطعات فقد نظمت على الكامل والطويل والبسيط والرمل والخفيف والمجث والوافر والسريع والمتقارب.

ولقد قمت، بعد إجراء إحصاء دقيق لما جمعته، بوضع سبعة جداول مفصلة^(٤) تهدف إلى زيادة الإيضاح وتسهيل الكشف عن جميع نواحي هذه الدراسة.

ولا بدّ من التأكيد على أن الجدول الخامس المتضمن أهم الأحداث والماجريات الواقعة في العصر النصري الثاني، قد استغرق عمله وقتاً طويلاً إذ حرصت على أن يأتي دقيقاً وشاملاً، قدر استطاعتي، لأنه يلخص أحداث مائة عام من عمر الأندلس، وهو، في الواقع، جزء متمم للحالة السياسية في مملكة غرناطة.

يتألف هذا الكتاب من قسمين وخاتمة بالإضافة إلى هذه المقدمة التي تحدثت فيها عن أهم المصادر والمراجع التي تناولت ابن زمرك وشعره بالترجمة والدراسة.

فأما القسم الأول فمن بابين، أتحدث في الباب الأول منها عن أحوال

(١) مجموعها ألف وسبعة وثمانون بيتاً.

(٢) مجموعها ألف وثلاثة وأربعون بيتاً.

(٣) مجموعها مائتان وثمانية وستون بيتاً.

(٤) راجع الصفحات ٢٤٧ - ٢٦٩ من هذه الدراسة.

البيثة في مملكة غرناطة، مبتدئاً بالحالة العمرانية ومهداً لها بالحديث عن الوضع الجغرافي للمملكة، ثم أتبع الحديث عن المباني التي شيدها بنو نصر، وأتوسع في الكلام على قصر الحمراء الذي كان مقراً للغني بالله ولوزيريه ابن زمرك، وكانت جدرانه بيوتاً مخصصة لأبيات أبي عبد الله الشعرية.

ثم أتبع هذا الحديث، بحديث عن الحالة السياسية في عصر الازدهار (القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي) فأعدد الملوك المتعاقبين على عرش غرناطة في تلك الحقبة من الزمن وأشار إلى ماهية السياسة المتبعة في الداخل والخارج وإلى فترات الحرب والاستقرار وإلى معاهدات الصلح والصدقة بين المملكة وجيرانها وإلى الصراع والمنافسة بين أبناء الأسرة الحاكمة.

ثم أختتم الباب الأول بالحديث عن الحالة الفكرية السائدة في غرناطة فأنطلق في الكلام على النهضة الأدبية في ذلك القرن وعلى تشجيع بني نصر للأدباء، معدداً أسماء نخبة من شعراء العصر وكتّابه ولغوييه وعلمائه وأطبائه وأسماء بعض مؤلفاتهم، من غير أن أنسى الحدث الكبير الذي تمّ على يد يوسف الأول وأعني به إنشاء المدرسة اليوسفية وتأمين أفضل الأساتذة الأكفاء لها.

أما الباب الثاني فأخصصه لبيان سيرة ابن زمرك فأصحح لفظ لقبه (ابن زمرك) وأتكلم على نسبه ومولده ودراسته وشيوخه ومناصبه التي تدرج فيها من الكتابة في الديوان إلى الوزارة. ثم أتطرق إلى تاريخ وفاته - وحوله خلاف كبير وأقوال متضاربة - فأحاول أن أحده إنطلاقاً من بعض الوقائع الثابتة التي أكدها السلطان يوسف الثالث والمقري، ثم ألح إلى تلاميذه وأتحدث عن صفاته وأخلاقه وأسرد لمعاً من أخباره وأنهى هذا الباب بالكلام على آثاره.

وأما القسم الثاني - وهو لب الكتاب - فمؤلف من فصول خمسة،

أتناول في الفصل الأول منها الحديث عن نثره وأخصص الفصل الثاني بالكلام على شعره فأقسمه إلى مباحث خمسة: الأول في موشحاته والثاني في شعره المدحي من «مولديات» و«غنيات» ورثاء وفخر، والثالث في وصفه والرابع في غزله والخامس في المسحة الصوفية في شعره.

في الفصل الثالث أتناول فنية ابن زمرك بالدراسة فأحدث عن تأثيره بفنية من سبقوه، وعن أسلوبه في النظم وعن البحور التي نظم عليها قصائده وقوافيها، وعن الجوازات الشعرية الواردة فيها، وعن الألفاظ والتراكيب والوجوه البلاغية بشكل مفصل.

في الفصل الرابع أعرض سقطاته العروضية واللغوية والنحوية.

في الفصل الخامس - وهو أهم ما في الدراسة كلها - أتحدث عن التقليد عند الشاعر وأعطي أمثلة كافية عليه. ثم أقسم التجديد عنده إلى تجديد جزئي وابتكار، محاولاً أن أذكر، حصراً، الأبيات المتضمنة معانيه المبتكرة.

ثم أخلص من هذا كله، إلى خاتمة أبين فيها منزلة الشاعر وأعطي رأبي فيه وأسرد آراء النقاد القدامى والجدد في شعره وأؤكد على تمثيله عصره وعلى أهمية شعره الذي يتضمن أبياته المبتكرة الرائعة التي تكفي، وحدها، لوضعه في مصاف كبار الشعراء الأندلسيين.

القِسمُ الأول

البابُ الأول

مَمْلَكَة غرِنَاطَة

الفصل الأول : الحالة العمرانية

الفصل الثاني : الحالة السياسية.

الفصل الثالث : الحالة الفكرية.

البابُ الثاني

سيرة ابن زُمْرَك

الباب الأول مملكة غرناطة

الفصل الأول الحالة العمرانية

لا أود الدخول في مَهَمِّهِ الحديث عن الأندلس الكبرى ولا عن أصل اسم غرناطة، ولا عن حروب الاسترداد «La Reconquista»^(١) التي سبقت قيام مملكة غرناطة والتي تم بموجبها الاستيلاء على معظم مدن الأندلس، إنما أود أن أتعرف على أهم أحوال هذه المملكة، وبخاصة أحوالها العمرانية والسياسية والفكرية التي سادت فيها إبان القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي). لأن هذا التعرف سيساعدنا على فهم أوضح لتتاج ابن زمرك الأدبي، وبالتالي على تقويم أصح لهذا التتاج.

ولا بأس، قبل ذلك، في أن أذكر لمحة جغرافية عن هذه المملكة فأقول: عندما افتتحت الأندلس لم تكن غرناطة إلا مدينة صغيرة من أعمال ولاية البيرة. إلا أنه، بعد انهيار الخلافة الأموية، عاث البربر في نواحي

(١) بدأت هذه الحروب من جانب اسبانيا عقب الفتح الإسلامي بقليل في حمى الجبال الشمالية واستطاعت منذ منتصف القرن الثامن الميلادي (القرن الثاني الهجري) أن تدفع حدودها تباعاً نحو الجنوب. وحينما انهارت الدولة الإسلامية القوية ونشأت دول الطوائف، كانت طليطلة أول قاعدة إسلامية عظيمة تسقط في يد اسبانيا وذلك في صفر ٤٧٨هـ/أيار - حزيران سنة ١٠٨٥م. ولقد اشتدت حروب الاسترداد وقويت بشكل ملحوظ في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي (أواسط القرن السابع الهجري) عقب سقوط القواعد الأندلسية الكبيرة.

(عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين»، مطبعة لجنة التأليف والنشر بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص ٦٩ و٧٤).

ألبيرة، فتهدمت وخربت فحل محلها مدينة غرناطة، وأصبحت قاعدة الولاية، فغلب على هذه الأخيرة اسم ولاية غرناطة. وهذه الولاية لم تصبح مملكة إلا منذ أوائل القرن السابع الهجري (أوائل القرن الثالث عشر الميلادي)، حين سقط أكثر مدن الأندلس^(١).

وكانت هذه المملكة تضم مدناً وقرى كثيرة لعل أهمها: ألمرية ومالقة ووادي آش وبسطة والمنكب وشلوبانية ولوشة وبرشانة وبرجة وأندرش وبلش ورنده، بالإضافة إلى منطقة جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف^(٢).

وكانت غرناطة المدينة معتدلة في أكثر أحوالها، وهي تبعد عن قرطبة مسافة خمسة أيام^(٣)، ولشبهها بدمشق الشام لقبت بدمشق الأندلس^(٤). ذلك بأنها كانت مليئة بالخضر والفواكه الطيبة والثمر المدخر. وقد كثرت فيها البساتين والكروم والجنان حتى بلغ عدد هذه الأخيرة المائة في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) وفقاً لما ذكره ابن الخطيب^(٥). ولعل أشهر هذه الجنان: جنة العريف وجنة ابن عمران ومدرج نجد ومدرج السبيكة.

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٩٩ وما بعدها. وعنان، محمد عبدالله: «نهاية الأندلس...» ص ٢١ وما بعدها.

(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٩٩ وما بعدها. وعنان، محمد عبدالله: «نهاية الأندلس...» ص ٢١ وما بعدها.

(٣) القلقشندي: «صبح الأعشى في صناعة الانشاء»، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية، مطابع كوستا توماس وشركاه بالقاهرة، وزارة الإرشاد والثقافة، المؤسسة المصرية العامة، ٥: ٢١٤.

(٤) ذكر القلقشندي في «صبح الأعشى...»، ٥: ٢١٤ أن غرناطة «تشبه دمشق الشام، وتفضل عليها بأن مدينتها مشرفة على غوطتها وهي مكشوفة من الشمال» وذكر المقرئ في «نفع الطيب...» أن غرناطة نزل بها أهل دمشق، وسَمَّوها باسمها لشبهها بها في القصر والنهر والدوح والزهرة، والغوطة الفيحاء، وهذه مناسبة قوية العرى شديدة». (١: ١١٧ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٧٦ و ٣: ٢١٧ و ٢١٨). وقد ذكر ابن سعيد في كتابه «المغرب في حل المغرب» ج ٢ ص ١٠٢ عن «مسيب» الحجاري «أنها وإن سميت دمشق الأندلس، أحسن من دمشق...».

(٥) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ١٢٢.

ولم يكن لجنانها مثيل في الحسن وطيب التربة، والتفاف الأشجار وكثرة المياه: فقد كان جبل شُلَيْر «Sierra Nevada»^(١) قريباً منها، تنبجس من سفوحه العيون الكثيرة وينساب منه ثلاثون نهراً أهمها نهر شنيل أو سنجيل «Genil»^(٢) الذي يخترق فرعه المسمّى حدره أو هدره «Darro» غرناطة^(٣). وكانت ضفتاه محفوفتين بالنبات والظلال وهو مسجور بالماء الرقاق المتأتي من ذوب الثلج الذي كان يتراكم على جبل شلير دائماً، ويغطي ساحات غرناطة في فصل الشتاء. من هنا صح هواء غرناطة فصَحَّتْ جسوم أهلها وخشنت بشراتهم^(٤).

وغرناطة المدينة كانت تضم في قسمها الشرقي متنزه السيكة، وقصر الحمراء، وعدة أرباض يسكنها وجهاء القوم. وكانت تضم في قسمها الغربي حي القصبه وربض البيازين^(٥)، وهو أكبر أحياء غرناطة وأوفرها عمراناً. كان يشتمل على أكثر الأسواق التجارية، وفيه يقوم الجامع الأعظم^(٦)، وهو من أبدع الجوامع. وأحسنها منظراً، أحكم بناؤه، وقام سقفه على أعمدة حسان، وجرى داخله الماء^(٧).

(١) «جبل شلير المذكور طود شامخ، لا ينفك عنه الثلج شتاء ولا صيفاً، فهو لذلك شديد البرد، ويؤثر برده بغرناطة في الشتاء لقربه منها إذ ليس بينه وبينها سوى عشرة أميال». «أما شنيل فينحدر من جبل شلير بجنوبيها ويمر على غربي غرناطة إلى فحصها، يشق فيها أربعين ميلاً بين بساتين وقرى وضياح كثيرة البيوت...». «وأما حدره فينحدر من جبل بناحية وإدياش شرقي شلير... يقدّ المدينة نصفين وعليه خمس قناطر... وعلى القناطر أسواق ومبان محكمة» (القلقشندي: «صبح الأعشى...»، ٥: ٢١٥).

(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ١٠٣ وما بعدها.

(٣) هو الحي الذي كان يسكنه اليباسيون الذين أراحهم المسيحيون عن وطنهم بياسة واستقروا هناك (فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، تعريب د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ١٩٨٠م). «وهو ربض كثير العمارة، مستقل بحكامه وقضاته ويخرج منه خمسة عشر ألف مقاتل» (القلقشندي: «صبح الأعشى...»، ٥: ٢١٤).

(٤) المقرئ: «نفح الطيب...»، ١: ١٥٠.

(٥) القلقشندي: «صبح الأعشى...»، ٥: ٢١٤.

وكان لغرناطة ثلاثة عشر باباً منها باب البيرة، وهو أضخمها، وباب الرملة وباب الفخارين... وكانت مساجدها لا تحصى^(١). على أن خطط غرناطة، أيام بني نصر، لم تُدرس بعد دراسة تخطيطية تاريخية وافية. فقد عالج سيكودي لوسينا، بغير كثير من الدقة، دراستها، كما ذكر ليفي - بروفنسال في محاضراته^(٢).

ولئن كان حيّوس بن ماكسن الصنهاجي هو الذي بنى قصبة غرناطة وأسوارها، ثم زاد في عمارتها ابنه باديس من بعده^(٣)، فلقد أصبحت في عهد بني نصر مدينة مليئة بالأبنية الفخمة، عامرة بالقصور البديعة، كقصر جنة العريف الذي كان محطة صيفية للملك غرناطة، وقصر شنيل القائم على مقربة من نهر شنيل. إلّا أن أبدع هذه القصور جميعاً، هو قصر الحمراء الذي ما زال، حتى اليوم، يمثل أروع الآثار العربية في إسبانيا. ولقد كان يؤلف في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) مدينة حقيقية مستقلة، تشرف على أحياء غرناطة المنخفضة^(٤).

ولا بدّ، هنا، من وقفة قصيرة، أتحدث فيها عن هذا القصر. وذلك لسببين هامين، كل منهما كاف ليكون دافعاً إلى الحديث عنه بشيء من التفصيل. أولهما أن هذا القصر قد نال شهرة ضخمة غير عادية لفرداته وروعته^(٥) ولكونه رمزاً لجانب واسع من الحضارة الإسلامية، حتى أصبح قبلة الرواد من سكان المعمورة، وغدا مادة دسمة وغرضاً مقصوداً لكثير من الكتاب والشعراء والفنانين والمفكرين^(٥). وثانيهما أن هذا القصر ضمّ بين

(١) القلقشندي: «صبح الأعشى»، ٥: ٢١٤.

(٢) ليفي - بروفنسال: «محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها»، ص ٦٦ و ٦٧.

(٣) المقرئ: «نفح الطيب»، ١: ١٥٠.

(٤) ذكر بالنشأ في محاضراته المنشورة في كتاب «دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة» للدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص ٢٢٣ أنه «ليس للحمراء مثيل في كل المعمار المدني القائم في العالم الإسلامي».

(٥) من وحي هذا القصر ألف الكاتب الفرنسي المعروف شاتوبريان (١٧٦٨ - ١٨٤٨) كتابه «آخر =

جدرانه ملوك غرناطة ورجالها العظام، ومنهم ابن زُمَرْك، موضوع هذا الكتاب. فضلاً عن أن هذه الجدران حملت، وما تزال تحمل حتى اليوم، نقوشاً لأبيات شعرية كان ابن زُمَرْك، ذاته، أبرز أصحابها.

أما سبب تسميتها بالحمراء فقد وقع حوله اختلاف. فمن الكتاب من زعم أنها سميت كذلك «لأن اللون الأحمر كان يكسو جدرانها»^(١). ومنهم من قال إن السبب هو لون تربة أرضها التي أنشئت عليها^(٢). وهناك رأي يقول إن هذا الاسم يرجع إلى لون الأجر الأحمر الذي بنيت به الأسوار الخارجية. وأنكر رابع هذا الرأي، لأنه «ثبت أن هذا اللون الأحمر الذي تبدو به الأسوار، يرجع إلى العصر الحديث، وأنه من صنع الاسبان»^(٣). كما أنكر خامس أن يكون لهذه التسمية علاقة باسم بني الأحمر وذلك لأن قيام الحمراء يعود إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)^(٤). فقد أشارت الرواية الأندلسية إلى قلعة تسمى قلعة الحمراء بنيت فوق الهضبة الواقعة على ضفة

= بني سراج، «Les aventures du dernier Abencérage» ووضع الكاتب الأمريكي واشنطن إيرفنج (١٧٨٣ - ١٨٥٩) كتابه «الحمراء» The Alhambra: Irving ولحن الموسيقي الاسباني الكبير مانويل دي فاللا De Falla (١٨٧٦ - ١٩٤٦) «ليال في حدائق الأندلس». وأبدع الشاعر والكاتب الاسباني فرديريك غرسيا لوركا «Garcia - Lorca» (١٨٩٨ - ١٩٣٦) مؤلفه «رومانسيرو جيتانو» «Romancero Gitano» ونظم الشاعر الفرنسي تيوفيل غوتييه «Gautier» (١٨١١ - ١٨٧٢) بعض أجمل قصائده. (ليفي - برونسال: «محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها»، ص ٥٧ و ٥٨. والقلماي، سهير: «... ثم غربت الشمس»، ص ٢٧).

(١) فون شك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، ص ١٥٦.

(٢) بول، ستانلي: «قصة العرب في اسبانيا»، تعريب: علي الجارم بك، مطبعة المعارف، ١٩٤٤م، ص ١٨٦.

Lane - Poole, Stanley: «The Moors in Spain» (M.S.), London, 1920. Page 221.

(٣) عنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال»، مؤسسة الخانجي بالقاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص ١٩٠.

(٤) يذكر محقق كتاب «كناسة الدكان» لابن الخطيب، أن المسلمين الأولين هم الذين انشأوا القلعة الحمراء على تل السبيكة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وذلك في الصفحة ٥٩ منه.

نهر حدرة اليسرى. ثم لما تولى باديس بن حيوس حكم غرناطة انشأ سوراً حول هذه الهضبة، وانشأ داخل السور قصراً سَمِيَ بالقصبة الحمراء^(١).

وحين أحكم محمد بن الأحمر، مؤسس المملكة، سيطرته على غرناطة انشأ حصناً جديداً داخل السور كما أنشأ قصراً ملكياً. ثم توالى الإنشاءات على يد أولاده وأحفاده من بعده. ولم يكتمل الإنشاء الحقيقي لمباني الحمراء إلا في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) على يد أبي الحجاج يوسف الأول، سابع ملوك بني نصر، وعلى يد ابنه محمد الخامس الذي أتم ما بناه أبوه وأضاف إنشاءات جديدة أخرى.

ويتألف قصر الحمراء من أجنحة كثيرة أولها فناء الريحان «Patio de los Arrayanes»، وهو فناء كبير واسع تتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان، وفي زوايا هذا الفناء، وعلى أفريزه الرخامي الأوسط، نُقِشت آيات من القرآن الكريم، وعباراتٌ تتضمن أدعية وتوسلاتٍ، وأبياتٌ شعرية تمدح من استرد الجزيرة الخضراء. ومطلع هذه الأبيات: (٢).

١- تَبَارَكَ مَنْ وَلَّاكَ أَمْرَ عِبَادِهِ فَأَوْلَى بِكَ الْإِسْلَامُ فَضْلاً وَأَنْعَمَا
٢- فَكَمْ بَلَدَةٍ لِلْكَفْرِ صَبَّحَتْ أَهْلُهَا وَأُمْسِيَتْ فِي أَعْمَارِهِمْ مُتَحَكِّمًا^(٣)

(١) عنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية...»، ص ١٨٩ و ١٩٠.

(٢) عدد كبير من أبيات هذه القصيدة جار عليه الزمن، اليوم، فلا يمكن قراءتها بسهولة (فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، ص ١٦٦ و ١٦٧. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية...»، ص ١٩٣ و ١٩٤).

(٣) بعد هذا البيت، توجد أبيات ثلاثة غير مقروءة. وقد ذكرها لافواني القنطرة D. Emilio Lafuente y Alcantara في كتابه: «النقوش العربية في غرناطة»:

«Inscripciones arabes de Granada» (I.A.G.), Madrid, 1859.

ص ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ وهي التالية:

«وَطَوَّقَتْهُمْ طَوَقَ الْإِسَارِ فَأَصْبَحُوا
وَقَتَحَتْ بِالسَّيْفِ الْجَزِيرَةَ عَنْوَةً
وَمِنْ قَبْلِهَا اسْتَفْتَحَتْ عَشْرِينَ مَعْقِلًا
بِأَيْدِيكَ يَتَنَوَّنُ الْقُصُورَ تَحْدُمَا
فَقَتَحَتْ بَابًا كَانَ لِلنَّصْرِ مَبْهَمًا
وَصَيَّرَتْ مَا فِيهَا لِجَيْشِكَ مَغْنَمًا»

ومنها عن يمين الباب الشمالي المؤدي إلى البهو المجاور:

- ٣- وَلَوْ خَيْرَ الْإِسْلَامِ فِي مَا يُرِيدُهُ لَمَّا اخْتَارَ إِلَّا أَنْ تَعِيشَ وَتَسْلَمَا
- ٤- لَقَدْ لَاحَ أَنْوَارُ الْجَلَالِ بِبَابِكَ يَفْتَرُ مِنْهَا النَّدى بِشْراً وَأَنْسَمَا
- ٥- وَتِلْكَ آثَارُهَا فِي كُلِّ مَكْرَمَةٍ أَبْدَى وَأَوْضَحَ بَدْرٍ إِذَا انْتَبَهَمَا^(١)

ومنها عن يسار الباب:

- ٦- فَيَا ابْنَ الْعُلَى وَالْحِلْمِ وَالْبَاسِ وَالنَّدَى وَمَنْ فَاقَ آفَاقَ النُّجُومِ إِذَا انْتَمَى
- ٧- طَلَعَنَ بِأَفَقِ الْمَلِكِ نُوراً وَرَحْمَةً لِيَجْلُوَ مَا قَدْ كَانَ بِالظُّلَمِ أَظْلَمَا
- ٨- فَأَمْنَتْ حَتَّى الْغُصْنِ مِنْ نَفْحَةِ الصَّبَا وَأَرْهَبَتْ حَتَّى النُّجْمِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ
- ٩- فَإِنْ رَعَشَتْ زُهْرُ النُّجُومِ فَخِيفَةً وَإِنْ سَالَ غُصْنُ الْبَابِ شُكْرَكَ يَمَّمَا^(٢)

وقبل أن أحاول تحديد صاحب هذه القطعة، تجب الملاحظة هنا، أن هذه الأبيات مليئة بالأخطاء اللغوية والعروضية (الأبيات الرابع والخامس والسابع). ويرجع هذا، كما يؤكد محمد عنان إلى «أن كثيراً من نقوش الحمراء الحالية هي من صنع محدث، نقلت بالرسم عن النقوش القديمة تحت إشراف الأثريين الإسبان، وتسربت إليها عند النقل أغلاط كثيرة»^(٣).

أما صاحب هذه الأبيات، فهو أحد اثنين لا ثالث لهما، وهما ابن الخطيب وابن زمرك. ذلك أننا نعرف أن هذه الأبيات قيلت في مدح من استرد الجزيرة الخضراء. ولقد كانت هذه الجزيرة قد سقطت بأيدي الإسبان في ذي القعدة سنة ٧٤٤هـ/آذار سنة ١٣٤٤م^(٤). ثم حاصر محمد الخامس

(١) لافواني القنطرة: «I.A.G.»، ص ٩٥.

(٢) نفسه، ص ٩٦.

(٣) عنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية...»، ص ١٩٣.

(٤) الناصر السلاوي: «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ٦٧. وابن الخطيب: «كناسة الدكان...»، ص ١٦٤. والقلقشندي: «صبح الأعشى...»، ٥: ٢٦٢. ومجلة تطوان، مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية، العدد الثامن، السنة ١٩٦٣، ص ١٩٤.

هذه الجزيرة حتى الاستسلام، وذلك عام ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م^(١). في ذلك الوقت كان ابن الخطيب وزير محمد الخامس وكان ابن زمرك أمين سره وكتابه، وهما أكبر شاعرين في عصرهما. نستنتج من هذا كله، أن الأبيات من نظم أحدهما، لأنه من غير المعقول أن يأتي شاعر أقل منهما مرتبة ليمدح السلطان بقصيدة تنقش على جدران الحمراء!.

أيهما، إذًا، صاحب هذه الأبيات المنقوشة؟.

قد يخطر بالبال، أول الأمر. أن ابن الخطيب المستبد بأمر الدولة عهد ذاك، هو صاحبها، إلا أنني أرجح أن تكون لابن زمرك. وذلك لأني عشت ردحاً بين قصائده، وأصبحت أعرف أسلوبه، وأدرك روح نظمه. والأبيات المنقوشة أتت تحمل طابعه وأسلوبه، ويكفي، للتأكيد على هذا، أن أستشهد ببعض أبياته الشبيهة بالأبيات المذكورة معنىً وأسلوباً. قال:

«تَبَارَكَ مَنْ أَبْدَاكَ فِي كُلِّ مَظْهَرٍ...»^(٢)

«وَأَعَزَّ مَنْ وَلَّاهُ أَمْرَ عِبَادِهِ...»^(٣)

«كَمْ بَلَدَةٌ لِلْكَفْرِ قَدْ عَوَّضَتْ مِنْ...»^(٤)

«فَكَمْ مَعْقِلٍ لِلْكَفْرِ صَبَّحَتْ أَهْلُهُ...»^(٥)

وقد أكد الدكتور الطاهر أحمد مكي أن ابن زمرك هو صاحب الأبيات، ولكنه اعتمد في تأكيده هذا، على تعليل خاطيء إذ قال:

(١) الناصر السلاوي: «الاستقصا...»، ص ١٣١. و:

Derek, W. Lomax: «The Reconquest of Spain» (R.S.), New York, 1978, p. 168.

«Journal Asiatique» (J.A.), série 9, tome 12, p. 443.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٣٢ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٢٥.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٠.

(٤) نفسه، ٢: ١٠١.

(٥) نفسه، ٢: ٦٧ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٩١.

«الواقع أن هذه الأبيات جزء من قصيدة تبلغ ٩٠ بيتاً، لابن زمرك، أنشدها السلطان في ليلة ميلاد رسول الله، ﷺ، عقب ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه، ويذكر المقرئ أن لسان الدين سرد هذه القصيدة بطولها، ولكن المقرئ لم يورد منها غير بيتين هما مطلعها، وكذلك فعل لسان الدين ابن الخطيب في كتابه «الإحاطة...» ولعل إشارة المقرئ كانت وهماً منه، أو لعله رآها كاملة فيما لم يصلنا من مخطوطات ابن الخطيب، أو فيما لا يزال مخطوطاً، والبيتان هما:

«تَأْمَلْ أَطْلَالَ الْهَوَى فَتَأَلَّمَا وَسِيمَا الْجَوَى وَالسُّقْمِ مِنْهَا تَعَلَّمَا
أَخُو زَفْرَةٍ هَاجَتْ لَهُ نَارُ ذِكْرَةٍ فَأَنْجَذَ فِي شِعْبِ الْغَرَامِ وَأَتَهَمَا»^(١)

فإذا كان يعترف، هو نفسه، أن المقرئ وابن الخطيب لم يدونا في كتابيهما، من ميمية ابن زمرك، إلاّ البيتين اللذين ذكرهما^(٢)، فكيف بالله عرف أن الأبيات المنقوشة جزء من الميمية؟؟ أغلب الظن أنه اعتمد في تعليقه على أن هذه الأبيات منظومة على بحر الميمية (وهو الطويل) وعلى رويها (وهو الميم المفتوحة).

فإذا كان هذا دليله الوحيد، ولا يندو في قوله دليل آخر، فأعجب به من دليل!! ذلك بأننا نستطيع، تأسيساً على هذه الحجة الواهية، أن ننسب كل بيت نظمه ابن زمرك على بحر الطويل وروى الميم المفتوحة، إلى تلك الميمية التي لم يذكر منها المقرئ ولا ابن الخطيب إلاّ بيتين اثنين على وجه التأكيد^(٣).

أضف إلى هذا، أن الميمية ثنائية المناسبة، إذ نظمها ابن زمرك «عقب ما فرغ (أي الغني بالله) من البنية الشهيرة ببابه»^(٤)، لا عقب استرداده

(١) فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية...»، حاشية الصفحة ١٦٧.

(٢) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ١٥٤. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٠.

الجزيرة الخضراء، وأنشده إياها في ليلة ميلاد رسول الله، ﷺ^(١)، لا في ليلة عادية. ولقد كان من عادة ابن زمرك أن يشغل في أكثر أبيات مولدياته بمدح الرسول، عليه الصلاة والسلام. وأضرب مثلاً على هذا، مولديته الهمزية الثنائية المناسبة، والبالغة ستة وسبعين بيتاً، فليس فيها سوى ستة وعشرين بيتاً في وصف «المشور الأسنى» وفي مدح الغني بالله^(٢). على أن له مولديتين لم يذكر الغني بالله إلا في ثلاثة أبيات منها^(٣).

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يتسنى لابن زمرك أن ينظم قصيدة ثلاثية المناسبة، من تسعين بيتاً، يمدح فيها الرسول، عليه الصلاة والسلام، ويصف البنية الشهيرة بباب السلطان، ويمدح هذا الأخير، ثم يفرغ بعد ذلك كله لوصف معركة الجزيرة وحصارها، وانتصار الغني بالله فيها واستردادها، مع ما يشكله هذا الاسترداد من حدث هام، يفوق بأهميته سائر الأحداث السياسية في ذلك العهد، لأنه يدغدغ أمل الغرناطين في استرجاع ما استرده الاسبان من مدن أندلسية^(٤).

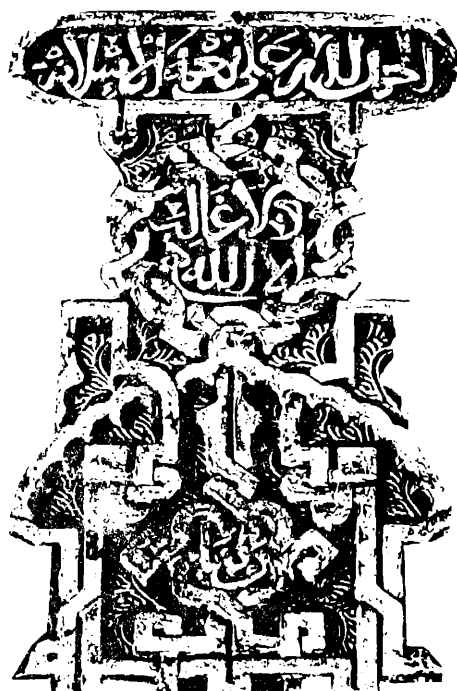
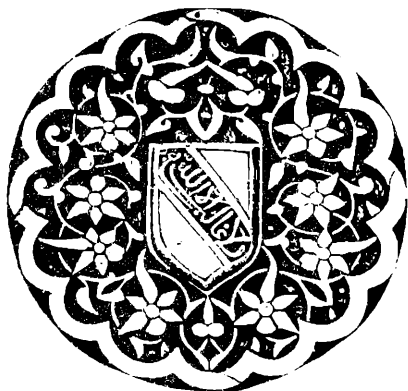
إنه حدث يستحق قصائد طويلة أو على الأقل قصيدة واحدة كاملة. وأغلب الظن أن هذا ما فعله ابن زمرك. إذ لعله نظم قصيدة غير الميمية، يصف فيها انتصار الغني بالله، ثم اختير بعض أبياتها لتنفش على جدران الحمراء، فكانت هذه الأبيات التي نحن بصدد الكلام عليها.

(١) المقرئ: «نفع الطيب...»، ١٥٤: ٧. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٠.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٤٧-٥١. و«نفع الطيب...»، ٧: ١٧٩-١٨٣.

(٣) أولاهما حاثية من سبعة وسبعين بيتاً على بحر البسيط. (المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥١-٥٥). وثانيتها موشحة بائية المطلع على بحر السريع. (المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢٥٥ و٢٥٦. و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٨٠ و٢٨١).

(٤) لم يفارق الغرناطين الأمل في استرجاع الأندلس. فقد كان يسود تفكيرهم المنطق التالي: انهم فتحوا اسبانيا وهم لا يملكون فيها شبراً من الأرض. فكيف لا يسترجعون ما فقدوه وهم يملكون غرناطة. (المرابط، جواد: «عبر وعبرات من دمشق الأندلس»، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ٧ و٨).



«Alhambra et le Généralife»

Ricardo Villa - Real y

Miguel Sanchez.

Traduction : Fernande et Marie Laffranque - Granada, p. 5.

«Tout Granada», p. 25.

«الحمد لله على نعمة الإسلام»

«ولا غالب إلا الله» «ربنا الله»

ونعود بعد هذا، إلى متابعة وصف قصر الحمراء، فنأتي إلى قاعة السفراء أو قاعة قمارش «Sala de los Embajadores» وهي أعظم قاعات الحمراء وأفخمها، لسعتها وارتفاع سقفها الذي حفرت زخارفه على شكل نجوم. وقد نقش في عقد باب هذه القاعة، وفي بعض جوانبه، عبارات الحمد وأبيات شعرية مختلفة، بالإضافة إلى شعار بني نصر: «ولا غالب إلا الله»، هذا الشعار الذي تكرر نفسه بشكل شامل ومنتظم في أعمال التزيين المخصص لجميع مباني الحمراء^(١).

وفي الممر الذي يوصل إلى هذه القاعة توجد مشكاتان، نقش حول المشكاة الأولى الواقعة على اليمين، الأبيات الآتية:

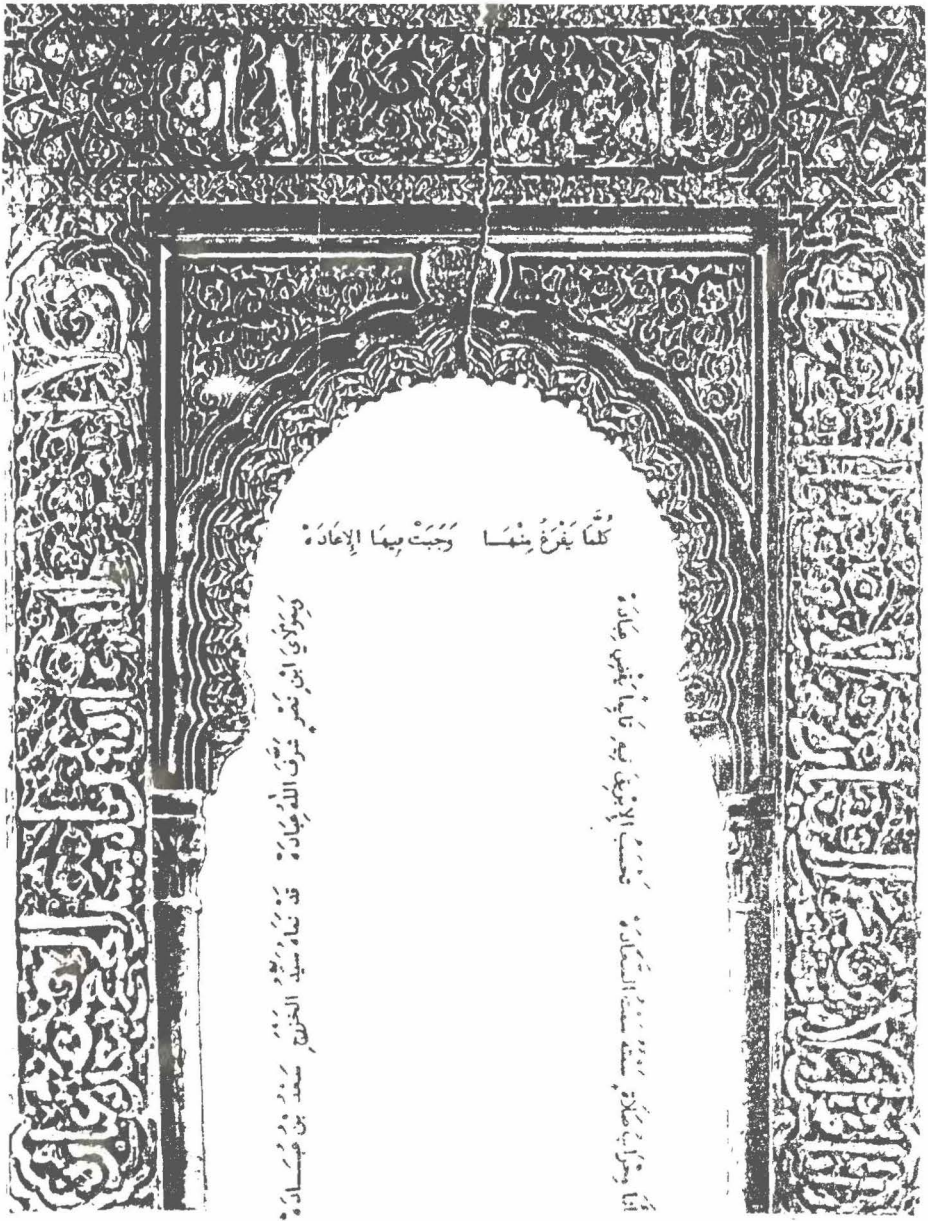
أَنَا مَحَلَّةٌ عَرُوسٍ ذَاتُ حُسْنٍ وَكَمَالٍ
فَانْظُرِ الْإِبْرِيْقَ تَعْرِفْ فَضْلَ صِدْقِي فِي مَقَالٍ
وَأَعْتَبِرْ تَاجِي تَجِدْهُ مُشَبَّهًا تَاجَ الْهَلَالِ
وَابْنُ نَضْرٍ شَمْسُ فَلْكَ فِي ضِيَاءٍ وَجَمَالٍ
دَامَ فِي رِفْعَةٍ شَانٍ آمِنًا وَقْتَ الزَّوَالِ
ونقش حول المشكاة الثانية الواقعة على اليسار:

أَنَا مِخْرَابُ صَلَاةٍ سَمْتُهُ سَمْتُ السَّعَادَةِ
تَحْسَبُ الْإِبْرِيْقَ فِيهِ قَائِمًا يَقْضِي عِبَادَةَ
كُلَّمَا يَفْرُغُ مِنْهَا وَجَبَتْ فِيهَا الْإِعَادَةُ
وَبِمَوْلَايَ ابْنِ نَضْرٍ شَرَّفَ اللَّهُ عِبَادَةَ
قَدْ نَمَاهُ سَيِّدُ الْخَزْ (م) رَجِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ^(٢)

(١) فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، ص ١٦٨ - ١٧١. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية...»، ص ١٩٦ - ١٩٨.

Piquet, Victor: «L'Espagne des Maures» (E.M.), Paris, 1945. Page 217.

(٢) لافوناني القنطرة: «I.A.G.»، ص ٩٨ و ٩٩. ويكيه، فيكتور: «E.M.»، ص ٢١٧.



(خمسة أبيات منقوشة حول المشكاة الواقعة على يسار قاعة السفراء، تراجع في أسفل الصفحة السابقة).

ومع أن أحداً لم يذكر اسم صاحب هذه الأبيات إلا أنني أرجح كونها لابن زمرك. فقد ذكر المقرئ في «أزهاره» و«نفحه» مقطوعتين تشبهان إلى حد كبير، هاتين القطعتين المنقوشتين من حيث المعنى والألفاظ والوزن^(١). ثم نأتي بعد ذلك، إلى قاعة الأختين «Sala de las dos Hermanas» وربما سميت كذلك لوجود حنيتين فيها أو لأن أرضها مرصوفة بقطعتين من المرمر فريدتين في ضخامة الحجم. وقد نقشت حول جدرانها أبيات مقتبسة من قصيدة لابن زمرك، يصف فيها الحمراء^(٢). وسأذكرها كلها، مضطراً، لأقارن بينها وبين يائثته في وصف دار الملك:

- ١ - أَنَا الرَوْضُ قَدْ أَصْبَحْتُ بِالْحُسْنِ حَالِيَا تَأْمَلْ جَمَالِي تَسْتَفِدْ شَرْحَ حَالِيَا
- ٢ - أَبَاهِي مِنَ الْمَوْلَى الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بِأَكْرَمِ مَنْ يَأْتِي وَمَنْ كَانَ مَاضِيَا
- ٣ - وَلِلَّهِ مَبْنَاهُ الْجَمِيلُ فَإِنَّهُ يَفُوقُ عَلَى حَكْمِ السُّعُودِ الْمَبَانِيَا
- ٤ - فَكَمْ فِيهِ لِلْأَبْصَارِ مِنْ مُتَنَزِّهِ تَجِدُ بِهِ نَفْسَ الْحَلِيمِ الْأَمَانِيَا
- ٥ - تَبَيَّنَ لَهُ خُمْسُ الثَّرِيَّا مُعِيذَةً وَيُضْبِحُ مُعْتَلِّ النَّوَاسِمِ رَاقِيَا
- ٦ - بِهِ الْقُبَّةُ الْغَرَاءُ قُلْ نَظِيرُهَا تَرَى الْحُسْنَ فِيهَا مُسْتَكِنًا وَبَادِيَا

(١) ... وقال مما رسم في طيقان الأبواب الملباني السعيدة التي ابتناها الغني بالله، رحمه الله تعالى:

أَنَا تَاجُ كَهْلَالٍ أَنَا كُرْسِيُّ جَمَالٍ
يَنْجَلِي الْإِبْرِيْقُ فِيهِ كَمُرُوسُ ذِي اخْتِيَالٍ
جُودُ مَوْلَانَا ابْنِ نَضْرٍ قَدْ حَبَانِي بِالْكَمَالِ

(المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٣٩. و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٢٩). وفي قصر الغني بالله قال:

أَيُّ قَوْسٍ ذِي جَمَالٍ سَهْمُهُ سَهْمُ السَّعَادَةِ
مِلْكُ الْإِبْرِيْقِ فِيهِ عَوْدُ الْإِحْسَانِ عَادَةٍ
دُوْ صَلَاةٍ مِنْ صَلَاتٍ كُلُّهَا ذَابًا مُعَادَةٍ

(المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٠. و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٢٩ و ٢٣٠).

(٢) فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، ص ١٧٣ و ١٧٤. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية...»، ص ١٩٨ و ١٩٩.



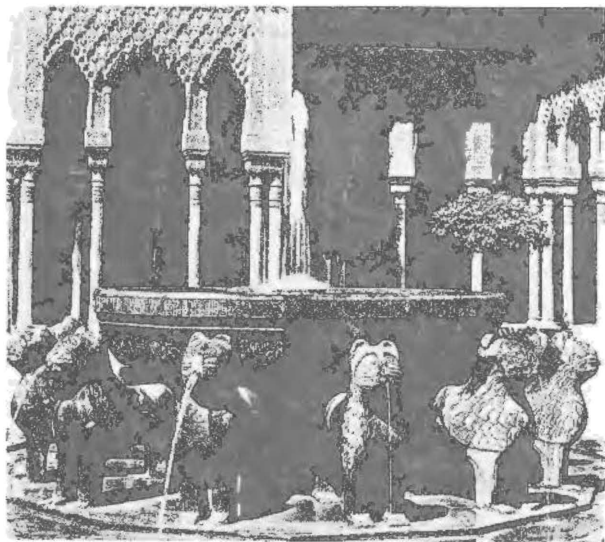
تَمُدُّ لَهَا الْجُوزَاءُ كَفَّ مُصَافِحٍ وَيَذْنُوْنَ لَهَا بِذُرِّ السَّمَاءِ مُنَاجِيَا
(المقري: «أزهار الرياض...»، ٢ : ٧٢).

- 41 - Poème en Thuluth andalou, sculpté sur un médaillon en stuc de la Salle des Deux - Sœurs du palais royal de l'Alhambra, à Grenade. L'inscription, dont l'auteur est l'illustre poète et homme d'État arabe Ibn Zamrak (mort en 1393), célèbre la beauté de la résidence de l'Alhambra: *Les Gémeaux lui tendent une main amicale pour la saluer, la lune céleste attire auprès d'elle une affection murmurée.*

- ٧- تَمُدُّ لَهَا الْجَوَازَاءُ كَفَّ مُصَافِحِ . وَيَذْنُو لَهَا بَذْرُ السَّمَاءِ مُنَاجِيَا^(١)
 ٨- وَتَهْوَى النُّجُومُ الزُّهْرُ لَوْ ثُبَّتْ بِهِ . وَلَمْ تَكْ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ جَوَارِيَا
 ٩- وَلَوْ مَثَلَتْ فِي سَاحَتِهَا وَسَابَقَتْ . إِلَى خِدْمَةِ تُرْضِيهِ مِنْهَا الْجَوَارِيَا
 ١٠- وَلَا عَجَبٌ أَنْ فَاتَتْ الشُّهْبَ فِي الْعُلَى . وَأَنْ جَاوَزَتْ فِيهَا الْمَدَى الْمُتَنَاهِيَا
 ١١- فَبَيْنَ يَدَيَّ مَوْلَايَ قَامَتْ لِخِدْمَةِ . وَمَنْ خَدَمَ الْأَعْلَى اسْتَفَادَ الْمَعَالِيَا
 ١٢- بِهَا الْبَهْوُ قَدْ حَارَ الْبَهَاءُ وَقَدْ غَدَا . بِهِ الْقَصْرُ آفَاقَ السَّمَاءِ مُبَاهِيَا
 ١٣- وَكَمْ حُلَّةٍ جَلَّلَتْهُ بِحُلِيِّهَا . مِنَ الْوَشْيِ تُنْسِي السَّابِرِيَّ الْيَمَانِيَا
 ١٤- وَكَمْ مِنْ قِسِيٍّ فِي ذِرَاةٍ تَرْفَعَتْ . عَلَى عُمْدٍ بِالنُّورِ بَاتَتْ حَوَالِيَا
 ١٥- فَتَحَسَّبُهَا الْأَفْلَاكُ دَارَتْ قِسِيَّهَا . تُظِلُّ عَمُودَ الصُّبْحِ إِذْ لَاحَ بَادِيَا
 ١٦- سَوَارِي قَدْ جَاءَتْ بِكُلِّ غَرِيْبَةٍ . فَطَارَتْ بِهَا الْأَمْثَالُ تَجْرِي سَوَارِيَا
 ١٧- بِهِ الْمَرْمَرُ الْمَجْلُو قَدْ شَفَّ نُورُهُ . فَيَجْلُو مِنَ الظُّلُمَاءِ مَا كَانَ دَاجِيَا
 ١٨- إِذَا مَا أَضَاءَتْ بِالشُّعَاعِ تَخَالُهَا . عَلَى عِظَمِ الْأَجْرَامِ مِنْهَا لَآلِيَا
 ١٩- فَلَمْ نَرِ قَصْرًا مِنْهُ أَعْلَى مَظَاهِرًا . وَأَوْضَحَ آفَاقًا وَأَفْسَحَ نَادِيَا
 ٢٠- وَلَمْ نَرِ رَوْضًا مِنْهُ أَنْعَمَ نَضْرَةً . وَأَعْطَرَ أَرْجَاءَ وَأَحْلَى مَجَانِيَا
 ٢١- مُصَارَفَةُ النَّقْدَيْنِ فِيهَا بِمِثْلِهَا . أَجَازَ بِهَا قَاضِي الْجَمَالِ التَّقَاضِيَا
 ٢٢- فَإِنْ مَلَأَتْ كَفَّ النِّسِيمِ مَعَ الضُّحَى . دَرَاهِمَ نَوْرِ ظَلٍّ عَنْهَا مُكَافِيَا
 ٢٣- فَيَمْلَأُ حُجْرَ الرُّوضِ حَوْلَ غُصُونِهَا . دَنَائِرَ شَمْسٍ تَتْرُكُ الرُّوضَ حَالِيَا
 ٢٤- وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْفَتْحِ أَشْرَفُ نِسْبَةٍ . فَأَحْسَنُ مِنْهَا نِسْبَةٌ هُوَ مَا هِيََا^(٢)

(١) يراجع هذا البيت منقوشاً في الصفحة الآتية .

(٢) لافواتني القنطرة: «I.A.G.», ص ١٢٨ و ١٣١. هذه الأبيات المنقوشة هي، في معظمها، جزء من يائية لابن زمرك أنشدها «في الصنيع المخصوص بعنا الأمير أبي عبد الله -رحمة الله تعالى عليه- وأطب في وصف دار الملك وغير ذلك من ضخامة آثار مولانا رضي الله تعالى عنه» (المقري: «أزهار الرياض...», ٢: ٦٩-٧٣. و«نفع الطيب...», ٧: ١٩١-١٩٤). إلا أن الشاعر غير تركيبها الأصلي وبَدَّلَ بعض كلماتها وأضاف إليها أربعة أبيات جديدة =



«وَمِنْ حُوتِهِ مِنْ لَوْلُو شَفْتُ نُورُهَا تُحَلِّي بِمَرْفُضِ الْجَمَانِ الشَّوَابِجَا
يَذُوبُ لُجَيْنٌ سَالٌ بَيْنَ جَوَاهِرِ غَذَا مِثْلَهَا فِي الْحُسْنِ أُنْيَضُ صَافِجَا
تَسَابَةِ جَارٍ لِلْيُونِ بِجَامِدٍ قَلَمٌ نَذِرٌ آيَا مِنْهُمَا كَانَ جَارِجَا»

(من قصيدة لابن زمرك نُقشَ منها اثنا عشر بيتاً حول استدارة البركة الرخامية فوق رؤوس اثني عشر أسداً. وفي الصورة نلاحظ الآيات منقوشة ولكنها غير مقروءة. وقد نُقش البيتان الثاني والثالث فوق الأسدين الظاهرين في الوسط. لافواتي القطر: «I.A.G.», ص ١٢١ و ١٢٢).

«نافورة هيو الأسود»

Premier plan où apparaissent six des douze splendides lions qui entourent la jolie fontaine de marbre blanc.

«Tout Granada», p. 23.

وتُفضي قاعة الأختين من بابها الجنوبي، إلى فناء الأسود أو بهو الأسود «Patio de los leones»، وهو أشهر أجنحة الحمراء وأجملها. وقد قام بإنشائه الغني بالله، وهو كناية عن ساحة مستطيلة مكشوفة، في وسطها نافورة ماء، يستدير بحوضها المرمرى اثنا عشر أسداً^(١). وتوجد في هذا الفناء طائفة متنوعة من النقوش المكتوبة بالخط الكوفي الجميل، وأبرزها اثنا عشر بيتاً من قصيدة لابن زمرك نقشَت فوق دائرة صحن النافورة التي تحملها الأسود وهي:

- ١- تَبَارَكَ مَنْ أَعْطَى الْإِمَامَ مُحَمَّدًا مَعَانِي زَانَتْ بِالْجَمَالِ الْمَعَانِيَا
- ٢- وَلَا فَهَذَا الرُّوضُ فِيهِ بَدَائِعُ أَبِي اللَّهِ أَنْ يُلْفِي لَهَا الْحُسْنَ ثَانِيَا
- ٣- وَمَنْحُوتَةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ شَفَّ نُورُهَا تَحْلِي بِمَرْفُضِ الْجُمَانِ النُّوَاجِيَا
- ٤- يَذُوبُ لُبَيْنٌ سَالَ بَيْنَ جَوَاهِرٍ غَدَا مِثْلَهَا فِي الْحُسْنِ أُبَيْضُ صَافِيَا
- ٥- تَشَابَهَ جَارٍ لِلْعُيُونِ بِجَامِدٍ فَلَمْ نَذِرْ أَيًّا مِنْهُمَا كَانَ جَارِيَا
- ٦- أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَجْرِي بِصَفْحِهَا وَلَكِنَّهَا مَدَّتْ عَلَيْهِ الْمَجَارِيَا
- ٧- كَمِثْلٍ مُحَبٍّ فَاضَ بِالذَّمْعِ جَفْنُهُ وَغَيْضَ ذَاكَ الدَّمْعِ إِذْ خَافَ وَاشِيَا
- ٨- وَهَلْ هِيَ فِي التَّحْقِيقِ غَيْرُ غَمَامَةٍ تُفِيضُ إِلَى الْأَسَادِ مِنْهَا السَّوَابِيَا
- ٩- وَقَدْ أَشْبَهَتْ كَفَّ الْخَلِيفَةِ إِذْ غَدَّتْ تُفِيضُ إِلَى أَسَدِ الْجِهَادِ الْيَادِيَا

= بحيث ظهرت وكأنها قصيدة مستقلة. وأعيد هنا ترقيم الأبيات وفقاً لورودها في القصيدة:

جديد- جديد- ٦٠- ٦١- ١٢٣ جديد- ١٠٣- ٦٢- ٦٣- ١٠٤- ١٠٥- ٦٤- ٦٥- ٦٦

٦٧- ٦٨- ٦٩- ٧٠- ٩٣- ٩٢- ٨٧- ٨٨- ٨٩- جديد. وتجدر الإشارة إلى أنه فعل

هكذا في كثير من الأبيات المنقوشة. ويمكن مراجعة هذه الأبيات بغير تبديل كلماتها وباستثناء

الأبيات الجديدة لدى غرسيا- غومس: «مع شعراء الأندلس والتنبي»، ص ٢٥٢ و ٢٥٣

ولدى فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا...»، ص ١٨٦- ١٨٨.

(١) لافوانتي القنطرة: «I.A.G.», ص ١٢١ و ١٢٢. وعنان، محمد عبد الله: «الأثار الأندلسية

الباقية...»، ص ١٩٩- ٢٠٢. وفون شاك: «الفن العربي في اسبانيا...»، ص ١٨٥ و ١٨٦.

يظهر هذا الحوض مع قسم من أسوده في صورة ألصقتها على الصفحة الآتية وهي مأخوذة من المجلة السياحية:

- ١٠- فَيَا مَنْ رَأَى الْأَسَادَ وَهِيَ رَوَابِضُ عَدَاهَا الْحَيَا عَنْ أَنْ تَكُونَ عَوَادِيَا
 ١١- وَيَا وَارِثَ الْأَنْصَارِ لَا عَنْ كَلَالَةٍ تُرَاثُ جَلَالٍ يَسْتَخِفُّ الرُّوَاسِيَا
 ١٢- عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ فَاسْلَمْ مُخْلَدًا مُجَدِّدُ أَعْيَادًا وَتُبْلَى أَعَادِيَا^(١)

وشمالي فناء الأسود وقاعة الاختين يقع البهو المعروف باسم غرفة الأمراء أو منظر لندراخا «Mirador de Lindaraja» (وقد اختلف حول تفسير هذا الاسم)، وهي عبارة عن قاعة تطل على الحديقة المعروفة بالاسم نفسه والمشهورة بنافورتها التي تطوقها أشجار الليمون، والتي نقش على صحنها قصيدة من تسعة عشر بيتاً سطت عليها يد الزمن، كما يوجد في هذه المنظره نقوش لأبيات شعرية وأدعية مختلفة تتوجها عبارة «ولا غالب إلا الله»^(٢).

وفي مواجهة قاعة الأختين توجد قاعة أخرى تسمى قاعة بني سراج «Sala de los Abencerrajes»، وهي بهو في وسطه حوض نافورة مرمرى مستدير، في أعلاه قبة عالية مضلعة الدائرة، أبرز نقوشها عبارة «ولا غالب إلا الله»^(٣).

وفي الناحية الشرقية لفناء الأسود تقع قاعة الملوك أو قاعة العدل أو الشريعة «Sala de los Reyes»، وفيها ثلاث حنايا، رسم في سقف الحنية الوسطى منها صورة عشرة أشخاص متعممين ملتحين. ويرى بعض الباحثين

(١) لافوانتي القنطرة: «I.A.G.»، ص ١٢١ و ١٢٢. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية...»، ص ١٩٩ - ٢٠٢. وفون شك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية» ص ١٨٥ و ١٨٦.

تجدد الإشارة إلى أن البيتين الرابع والخامس والحادي عشر والثاني عشر هي الأبيات ٧٥ و ٧٦ و ١٤٣ و ١٤٦ نفسها من يائية ابن زمرك التي نظمها في وصف دار الملك وضخامة الآثار (المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ٧٠ - ٧٤. و«نفع الطيب...»، ٧: ١٩٢ - ١٩٥).

(٢) فون شك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، ص ١٧٤. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية...»، ص ٢٠٤ و ٢٠٥.

(٣) فون شك: «الفن العربي...»، ص ١٧٣. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية...»، ص ٢٠٣.

أن هذه الرسوم لعشرة ملوك غرناطين أولهم الغني بالله، وآخرهم السلطان أبو الحسن والد أبي عبد الله آخر ملوك بني نصر^(١).

أما مسجد الحمراء (لم يعد موجوداً) فيقع في وسط الهضبة، وقد أمر ببنائه السلطان محمد الثالث. وينوه بذلك ابن الخطيب في كتابيه «الإحاطة...» و«اللمحة البدرية...»، فيقول:

«وأعظم مناقبه (أي محمد الثالث) ابتناء المسجد الأعظم بالحمراء من غرناطة على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش من فخامة العمدة وأحكام أتوار الفضة وابداع ثرياتها...»^(٢).

وعلى الرغم من هذا، تطالعنا في فناء المسجد، وعلى أفريز خشبي قريب من السقف، أبيات منقوشة ومزخرفة بشكل معقد، تصعب معه قراءتها، ويتحدث فيها صاحبها عن الغني بالله ويذكره باسمه^(٣).

وأكتفي بهذا لأدلل على روعة الحمراء بنقوشها وزخارفها. والواقع أن وصفها لا يغني عن مشاهدتها. ذلك أن المرء يعجز لا محالة عن إعطاء وصف دقيق وصحيح وكامل لما بلغته الحمراء من الجمال والسحر، ولا بدّ من معاينة «هذا المسكن الذي بنته الجن» على حد قول فون شاك^(٤)، معاينة تحمل صاحبها على الاستسلام لتأثير سحره المتنوع الدائم، وعلى التغني بجماله تماماً

(١) فون شاك: «الفن العربي...»، ص ١٧٥ و ١٧٦. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية...»، ص ٢٠٣ و ٢٠٤.

(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٥٥٤-٥٥٥. و«اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، صححه ووضع فهارسه محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ، ص ٦٢ و ٦٣.

(٣) لافواني القنطرة: «I.A.G.»، ص ١٥٤.

(٤) فون شاك: «الفن العربي...»، ص ١٨٥.

كما فعل فيكتور هوغو^(١) الذي أنشد قائلاً:

«أيتها الحمراء! أيتها الحمراء! أيها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء
الخيال، وجعلتك آية الانسجام! أيتها القطعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش
كالزهور والأغصان، والمائلة إلى الانهدام، حينما تنعكس أشعة القمر الفضية
على جدرك من خلال قناطرك العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر
الألباب»^(٢).

على أي لم أقصد من إيراد هذا التفصيل إلا شيئاً واحداً: هو إبراز تلك
الآيات الشعرية التي نقشت على جدران الحمراء لتكون شاهداً خالداً على
إبداع آخر كبار شعراء الأندلس وأعني به ابن زمرك.

ولا شك في أن الآيات الشعرية المنقوشة على الأفاريز المحيطة بالأبواب
والنوافذ، ليست جميعها، من نظم ابن زمرك ولكن أكثرها، في الغالب، من
نظمه، كما يؤكد ليفي - بروفنسال «Lévi - Provençal» في «محاضراته»^(٣)،
وكما يؤكد ابن زمرك نفسه، حين يقول في رقعة من رقاعه:

«... وكل ما في منازل السعيدة من القصر والرياض والدار والشار
والسبيكة، من نظم رائق، ومدح فائق، في القباب والطاقت والطرز وغير
ذلك فهو لي...»^(٤).

أخيراً، أدعو من يريد المزيد من هذا الوصف، إن لم يكن يرغب في
المعاينة أو لا يستطيعها، أن يلجأ إلى قراءة ما كتب عن الحمراء وهو كثير

(١) Victor Hugo (١٨٠٢ - ١٨٨٥)م هو شاعر وكاتب فرنسي مشهور، وهو من أعلام الحركة الرومنطيقية. «Petit Larousse, 1979, p. 1422».

(٢) لوبون، غوستاف: «حضارة العرب»، نقله إلى العربية: عادل زعير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م، ص ٣٦٢ و ٣٦٣.

(٣) ليفي - بروفنسال: «محاضرات عامة في أدب الأندلس...»، ص ٧٠.

(٤) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ١٦٧.

كثير...! (١). ولأبدأ بعد هذا كله، بالكلام على الحالة السياسية في مملكة غرناطة.

(١) يمكن الاطلاع على الكتب التالية :

أ - عنان، محمد عبد الله: «الأثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال».

ب - فون شالك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، تعريب د. الطاهر مكي.

ج - مجلة الأندلس العدد ٢٤، ص ٤٠٠ - ٤٠٨.

والعدد ٣٥، ص ٤٥٣ - ٤٧٣.

والعدد ٤١، ص ٢٠٧ - ٢١١.

والعدد ٤٢، ص ٤٤٧ - ٤٥١.

د - Lafuente y Alcantara, Emilio: «Inscripciones arabes de Granada».

هـ - Lambert, Elie: «Art musulman et art chrétien dans la péninsule ibérique».

و - Lévi - Provençal: «Inscriptions arabes d'Espagne».

ز - Irving, Washington: «The Alhambra».

الفصل الثاني

الحالة السياسيّة

تولّى حكم مملكة غرناطة بنو نصر أو بنو الأحمر. فأما اللقب الأخير فلا يعرف بالتأكيد ما أصله وما سببه^(١). وأما اللقب الأول فيعود إلى أن مؤسس الدولة النصرية هو أبو عبد الله محمد بن يوسف، الغالب بأمر الله، وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأمر المسلمين - وهو اللقب الذي غلب على سلاطين غرناطة في ما بعد -^(٢) وهو من أحفاد نصر بن قيس الخزرجي الذي يرجع نسبه إلى سعد بن عباد سيد الخزرج وأحد كبار الصحابة^(٣).

ويطلق العهد النصري أو العصر النصري على هذه الحقبة من الزمن الممتدة منذ مطلع الثلث الثاني من القرن الهجري السابع، وبالتحديد منذ سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م - تاريخ استيلاء الغالب بالله محمد الأول ابن نصر على غرناطة - حتى سقوط هذه المملكة بكاملها في يد الاسبان عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م، اثر معارك دامية حامية، تمكن في نهايتها فرناندو وإيزابيلا

(١) اختلفت الآراء حول هذه التسمية. فبعضهم يرى أنها أسبغت عليهم لإنشاء مؤسسهم حصن الحمراء - وهو رأى يبين الخطأ - ويرجع بعضهم هذا اللقب إلى نصارة وجه المؤسس واحمرار شعره أو شقرته. (عنان، محمد عبدالله: «نهاية الأندلس..»، ص ٢٥ وبول، ستانلي: «قصة العرب في إسبانيا»، ص ١٨٥).

(٢) المقرئ: «نفع الطيب..»، ٤٤٦:١. وعنان، محمد عبدالله: «نهاية الأندلس..»، ص ٥٢.

(٣) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢١.

ملكا قشتالة وأراغون الموحدين من إسقاط الدولة النصرية وإزالة الحكم الإسلامي من الأندلس^(١).

ولئن جاز لنا أن نقسم هذا العهد النصري إلى عصور متميزة كان هناك عصور ثلاثة:

- ١- عصر التأسيس والبناء، ويمتد من سنة ٦٣٥هـ إلى سنة ٧١٣هـ (١٢٣٨ - ١٣١٤)م.
- ٢- عصر الزهو والازدهار، ويمتد من سنة ٧١٣هـ حتى سنة ٧٩٤هـ (١٣١٤ - ١٣٩٢)م.
- ٣- عصر الانحيار والسقوط، ويمتد من سنة ٧٩٤هـ حتى سنة ٨٩٧هـ (١٣٩٢ - ١٤٩٢)م.

وهذه القسمة الزمنية، مع انطباقها بشكل غير تام على الأحداث السياسية، تكاد تنطبق تماماً على الأحداث الأدبية، إذ أن الأدب كان أكثر ازدهاراً في العصر النصري الثاني أي في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) منه في العصرين الأول والثالث. ولا أدل على ذلك من أنه وجد في هذا القرن أكبر شاعرين موشحين كاتبين في العصور النصرية كلها وهما ابن الخطيب^(٢) وتلميذه ابن زمرك. بالإضافة إلى طائفة من أكابر المفكرين والكتاب والشعراء.

على أن الصراع السياسي كان على أشده في القرن الهجري الثامن (القرن الرابع عشر الميلادي). فقد توالى على عرش غرناطة، منذ مطلع هذا القرن حتى نهايته، أحد عشر سلطاناً من بني الأحمر، كان أولهم محمد الثاني

(١) عنان، محمد عبدالله: «نهاية الأندلس...»، ص ٣٩ و ٤٠ و ٢٥٧. والمقرى: «نفع الطيب...»، ٤: ٥١٠ - ٥٢٩.

(٢) سبق التعريف به في الصفحة ٦ من هذا الكتاب.

الملقب بالفقيه والذي خلف والده محمداً الأول مؤسس الدولة النصرية. فلما توفي سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٢م، تولى الحكم ابنه أبو عبد الله محمد الثالث الملقب بالملخوع. و«أعظم مناقبه ابتناء المسجد الجامع بالحمراء»^(١). وأبرز حدث في أيامه تخليه عن طلب مساعدة بني مرين، وخضوعه لفرديناند ملك قشتالة إلى حد استيلائه على سبته العائدة لملك المغرب^(٢).

في سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٩م اعتقل محمد الثالث وأرغم على التنازل لمصلحة أخيه نصر أبي الجيوش الذي لم يطل به المقام في الحمراء إذ أساء البسيرة في الرعية والجند، وفر سنة ٧١٣هـ / ١٣١٤م بعد هزيمته^(٣)، وجلس مكانه على عرش غرناطة أبو الوليد إسماعيل الأول ابن فرج. وكان هذا صارماً جسوراً متعلقاً بأهداب الدين، حازماً في تطبيق حدوده، بحيث منع تعاطي المسكرات، وأوقف المناقشات في الأمور الدينية. وقد استطاع أن يهزم القشتاليين الزاحفين على غرناطة بقيادة دون بطره ودون خوان الوصيين على الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة، واللذين قتلا في المعركة الحاسمة الجارية على هضبة ألبيرة، وذلك سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م^(٤).

إلا أن السلطان إسماعيل الأول قتل على يد أحد أقربائه سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م^(٥)، فتولى مكانه ابنه أبو عبد الله محمد الرابع، وهو لا يزال

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٥٥٤ - ٥٥٥.

(٢) كان ذلك سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٦م (ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٥٣ و«الإحاطة...»، ١: ٥٦٠).

(٣) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٢٢. وعنان، محمد عبدالله: «نهاية الأندلس...»، ص ١١٧. والقلقشندي: «مآثر الأناقة في معالم الخلافة»، تحقيق عبد الستار فراج، سلسلة التراث العربي رقم ١٢، الكويت، ١٩٦٤م، الجزء الثاني، ص ١٤٥.

(٤) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٣٩٧ و«أعمال الاعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام»، تحقيق ليفي - بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م.

(٥) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٤٠٢ و«اللمحة البدرية...»، ص ٢٢ و«أعمال الاعلام...»، ص ٢٩٥.

فتى. وكان حسن الصفات، ظاهر الفضائل، محباً للعظمة. وكان مولعاً بالمبارزات والمباريات الفروسية التي كان يظهر فيها رشاقته وبراعته في ركوب الأحصنة^(١). ولقد جدد معاهدة الصلح بينه وبين خايمي الثاني ملك أراغون، ثم غزا أراضي قشتالة واستولى على عدة حصون واستعاد جبل طارق بعد مرور أربع وعشرين سنة على سقوطه في أيدي القشتاليين^(٢).

ولكنه لم يهنأ طويلاً بانتصاراته، إذ سرعان ما اغتيل بتحريض من بني أبي العلاء، شيوخ الغزاة وقادة الجيش الغرناطي، وكان هذا سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م^(٣). فتولى أخوه أبو الحجاج يوسف الأول الحكم. وقد «اتفق الناس على بيعته وكانت سنه يومئذ قد توسطت من المراهقة... إلى أن استقل... وعظمت حنكته وتوفرت تجربته»^(٤). فكان من أعظم ملوك بني نصر.

وفي عهده نشبت معركة ريو سالادو «Rio Salado» أو معركة طريف الشهيرة بين إسبانيا الموحدة من جهة، وجيوش المغرب وغرناطة من جهة أخرى، ودارت فيها الدائرة على المسلمين، فهزم أبو الحسن سلطان المغرب، وعاد مع فلوله إلى بلده، وارتد يوسف الأول إلى غرناطة^(٥).

وفي صبيحة عيد الفطر، سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، اغتيل يوسف الأول أثناء صلاته^(٦). وتولى الحكم ابنه محمد الخامس الغني بالله، ولم يكن يتجاوز

(١) De marlès, M.: «Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal», (H.D.A.M.E.P.), Paris, 1825, p. 180.

(٢) كان هذا الجبل قد سقط بيد قشتالة بعد محاصرته سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م (الناصر السلاوي: «الاستقصا...»، ص ٥٩ وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١١٦ و١٢٤).

(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٥٤٩ و«اللمحة البدرية...»، ص ٢٢. والقلقشندي: «مآثر الانافة...»، ص ١٤٥.

(٤) ابن الخطيب: «أعمال الاعلام...»، ص ٣٠٥.

(٥) كان ذلك أواسط سنة ٧٤١هـ/أواخر ١٣٤٠م. (عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٢٧).

(٦) القلقشندي: «مآثر الانافة...»، ص ١٦٦. وابن الخطيب: «أعمال الاعلام...»، ص ٣٠٦ =

العشرين من عمره. ولقد كان يملك كل الصفات النبيلة التي اتصف بها أغلب أسلافه: من دماثة وأنس وحسن معاشرة وكرم وشجاعة وعناية مفردة بسعادة الاتباع، ورعاية للآداب وتشجيع للعلم. وكان يشبه أباه في ميوله فكان إنساناً رحوماً، لا يستطيع أن يملك دموعه أمام منظر الشقاء، ولا أن يقبض يده أمام مشهد العوز والفقر. ولهذا حاز احترام الشعب وحبه^(١).

وقد تمتشت أيامه على أتم ما يكون من الأمان وخصب الزمان وقلة الحوادث وانسدال الأمن، إلّا ما كان من لحاق عيسى بن الحسن ابن أبي منديل العسكري المريني بجبل الفتح وامتناعه فيه. ولكن سرعان ما سحق تمرده^(٢). وما أن حل الثامن والعشرون من رمضان سنة ٧٦٠هـ/آب ١٣٥٩م حتى استولى على الأمر أخوه إسماعيل، فقتل حاجبه رضوان واعتقل كاتبه لسان الدين بن الخطيب، وفر الغني بالله إلى وادي آش^(٣).

واتصل الخبر بالسلطان المولى أبي سالم ابن أبي الحسن ملك المغرب، «فامتعض لمهلك رضوان وخلع السلطان رعيّاً لما سلف له في جوارهم. وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه، فوصل إلى الأندلس، وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب، وأطلق من اعتقاله الوزير الكاتب أبا عبد الله بن الخطيب...»^(٤).

وفي سنة ٧٦١هـ/١٣٦٠م قتل إسماعيل، وقتل معه أخ. له صغير اسمه قيس، وذلك على يد محمد السادس المعروف بالبرميخو الذي حل محله. إلّا

= وابن خلدون: «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، مصور عن طبعة بولاق، طبعة ١٢٨٤هـ، ٧: ٣٣٢.

(١) Scott, S.P.: «History of the Moorish empire in Europe», (H.M.E.E.), 1904, p. 487 - 488.
Imamuddin, S.M.: «A Political history of Muslim Spain», (P.H.M.S) pakistan, 1961, p. 180.
De marliès: «H.D.A.M.E.P.», p. 230.

(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٢٢ و ١٠٧ و «الإحاطة...»، ١: ٣٨ وابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٣٠٦.

(٣) ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٣٠٦ و ٣٠٧.

أن ثورة نشبت في غرناطة، قتل فيها محمد السادس واستطاع محمد الخامس أن يسترد ملكه سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م، كما استطاع أن يقضي على مؤامرة لخلعه سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٦م^(١).

وكانت مرحلة حكمه الثانية يسودها الازدهار والهدوء النسبي. وقد سلك فيها الغني بالله مسلك القوة والحزم، واشتهر بصرامته وعدله. ثم إنه أكثر من العمران والانشاءات فاكمل في عهده قصر الحمراء. وقد أمر ببناء المارستان الأعظم في غرناطة^(٢). وقد جرّد عدة حملات منصورة ما بين ٧٦٧-٧٧١هـ / ١٣٦٦-١٣٧٠م، فاستعاد الجزيرة الخضراء وبطرنة وبرغة وجيرة وحصن أشر وحصن السهلة وأطرية وأبدّة وجيان، ووصل إلى أبواب أشبيلية^(٣).

واطمأن الغني بالله إلى ما حققه من نصر، وأوقف حملاته هذه، والتفت إلى دولة المغرب، وعمل على أن تكون له يد في سياستها. فبدأ بنزع جبل طارق من سلطة بني مرين، وكان آخر معقل لهم في أرض الأندلس، واحتل

(١) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام...»، ص ٣٠٧ و«اللمحة البدرية...»، ص ١١٧ و ١١٨ و«الإحاطة...»، ١: ٤٣ و ٢: ١٥. وابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٣٣٤.

(٢) كان هذا المارستان قائماً على الضفة اليمنى من نهر حدرّة. وقد هدم في القرن الماضي، ولم يبق منه إلا لوحة رخامية كبيرة موجودة في متحف الحمراء، وقد نقش عليها تاريخ إنشاء المارستان على يد السلطان الغني بالله. ومما جاء في هذا النص: «الحمد لله، أمر ببناء هذا المارستان، رحمة واسعة لضعفاء مرضى المسلمين، وقرية نافعة، إن شاء الله، لرب العالمين، وخلد حسنته ناطقة باللسان المبين... المولى الإمام السلطان الهمام... أمير المسلمين الغني بالله أبو عبد الله محمد... فكان ابتداء بنائه في العشر الوسط من شهر المحرم من عام سبعة وستين وسبعماية (أيلول ١٣٦٥م)، وتم ما قصد إليه ووقف الأوقاف عليه في العشر الوسط من شوال من عام ثمانية وستين وسبعماية (أيار ١٣٦٧م)». «(لافواني القنطرة: «I.A.G.»، ص ١٧٢ و ١٧٣. وعنان، محمد عبد الله: «الأثار الأندلسية...»، ص ١٧٨ و ١٧٩. وليفي - برونسفال: «I.A.E.» لوحة رقم ٤١).

(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٤٨. وابن الأحرر، أبو الوليد إسماعيل: «نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان»، تحقيق د. محمد رضوان الدايب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م، حاشية الصفحة ٢٧١.

الجهة الأخرى من مضيق سبته، ففسد ما بينه وبين سلطان فاس. ثم لم يكتف بهذا حتى أوجد له منافساً في شخص أبي العباس أحمد ابن السلطان أبي الحسن، واستطاع أن يصل بهذا المنافس إلى عرش المغرب، ثم أزاحه وعمل على تولية سلطان آخر غيره، ثم أعاده، ثم... (١).

وهكذا أمضى الغني بالله حكماً طويلاً بفضل مهارته وبراعته في الحكم من جهة وبفضل الاضطرابات التي كانت تمزق يومئذ قشتاله، واختلاف المسيحيين ونزاعاتهم الداخلية التي تحولت إلى حرب أهلية، من جهة أخرى. ولقد كان في قدرة الغني بالله، لو أنه لم يوجه اهتمامه للتدخل في عرش المغرب، أن يفيد كثيراً من خلافات الأسبان ومنازعاتهم، ومن ضعف الملوك الأوائل من أسرة ترانستمارا بالذات، ولعل مصير إسبانيا كان قد تغير! (٢).

ولقد دامت سلطة الغني بالله حتى وفاته ٧٩٣هـ/١٣٩١م، حيث تولى السلطة بعده، ولده أبو الحجاج يوسف الثاني (٣) الذي توفي سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م، وحل مكانه ولده محمد السابع (٤٧٩٤هـ-٨١١هـ / ١٣٩٢-١٤٠٨م) (٤).

وبهذا الأخير يكون قد مر على عرش غرناطة، منذ مطلع القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى نهايته، أحد عشر سلطاناً. فإذا استثنينا أبا الحجاج وولده الغني بالله اللذين حكما مدة ستين عاماً، وجدنا أنه، في خلال أربعين عاماً وحسب قد تعاقب تسعة سلاطين على حكم غرناطة (٥).

(١) بيكيه، فيكتور: «E.M.»، ص ٢٢١ و ٢٢٢. وبشأن تولي أبي العباس مرتين بمساعدة الغني بالله، يراجع المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٥.

(٢) بيكيه، فيكتور: «E.M.»، ص ٢٢١ و ٢٢٢.

(٣) القلقشندي: «مآثر الأنافة...»، ص ٢٠٢. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ٤٨ و ٤٩.

(٤) القلقشندي: «صبح الأعشى...»، ٥: ٢٦٣. ومجلة «الأندلس»، مجلد ٢٤، ص ٤٠٨ ومجلد ٤٢ ص ٤٤٧.

(٥) يراجع الجدول رقم ٦ بأسمائهم في الصفحة ٢٤٨ من هذا الكتاب.

مما مرّ ندرك كم كانت المنافسة على تولي العرش كبيرة! ومع ذلك كان أمراء الأسرة الحاكمة ينعمون، بصورة عامة، بقسط وافر من الاستقلال، والحرية، وهذا ما أدى في أواخر العهد الغرناطي إلى تسهيل انتصار الاسبان^(١).

على أن هذا الصراع السياسي لم يكن محصوراً بالأندلس الصغرى، وحدها، وإنما كان ظاهراً في المغرب وفي بلاد قشتالة وأراغون. ولئن كان الاستئثار بالسلطة هو الدافع الأبرز إلى اختلاف الأشقاء والأبناء والآباء في الدولة الواحدة، فلقد كان حب التوسع واحداً من أهم دوافع الحروب التي قامت بين كل من هذه الدول وسائرهما.

وكثيراً ما اتحدت قوات الغرناطيين والمغاربة لمحاربة الاسبان. إلا أن العصر شهد أيضاً اتفاق الغرناطيين والأراغونيين ضد قشتالة وضد المغاربة!^(٢).

ولقد كانت السلطة السياسية في مملكة غرناطة بيد السلطان، فهو الرئيس الوحيد للمجتمع الغرناطي، ويأتي بعده الوزير الذي كان، أحياناً، حاجباً وربما تجاوز، أحياناً أخرى، صلاحياته فكان الحاكم الفعلي للمملكة^(٣).

أما السياسة الخارجية فقد كان يفرضها موقف المملكة إزاء قشتالة، وكانت تتراوح بين الخضوع والتبعية وبين الحرب. وقد أدى هذا إلى فترات غير متساوية من السلام - الذي كان يجذبه بعض الساسة والتجار والفلاحين بهدف الحفاظ على استقرار السلطة والتبادل التجاري والمواسم الزراعية - والقتال - الذي كان يحث عليه العلماء والفقهاء عامة الشعب، وكان تأثيرهم

Terrasse, Henri: «Islam d'Espagne» France, 1958, p. 206.

«Journal Asiatique», série 9, Tome 12, p. 440.

Terrasse, Henri: «Islam d'Espagne», (I.E.), pp. 206 et 207.

(١)

(٢)

(٣)

عليهم يتعاضم ويقوى كلما مر الزمن ولاحت مهاوي السقوط والزلل -^(١).

ولقد كانت معاهدات الصلح تعقد في أحيان كثيرة بين المتحاربين، إلا أن كثيراً منها كان يخرق ولا يعمل به، لتعود الحرب سجالاً بين الفرقاء: كل من القشتاليين والأراغوانيين يسعى إلى استرداد أكبر قدر ممكن من المدن والحصون الأندلسية، وما منع هذا أن تقوم بينهم خلافات كثيرة. أما بنو نصر، في غرناطة، فكانوا يحاولون أن يوقفوا زحف الأسبان. وكان لديهم نواة دائمة من الفرسان والمشاة، معززة، بفرق المجندين بحيث كانوا يملكون جيشاً قادراً على أن يرد حملات الأسبان واعتداءاتهم، وعلى أن يقوم بدوره بغزوات ناجحة على حدود الممالك الأسبانية. ولقد كان الفرسان المغاربة يشكلون قسماً لا يستهان به من جيش غرناطة. ولقد كانوا مشهورين بمهارتهم في القتال وسرعة حركتهم فيه. وعلى الرغم من هذا، فقد كان النصريون يطلبون المدد العسكري من بني مرين^(٢) تلو المدد. وكان المرينيون لا يتهربون أبداً من واجب الجهاد المقدس ضد أسبانيا المسيحية، فقد كانوا يريدون، بهذا الجهاد، أن يسبغوا على دولتهم معنى شرعياً إسلامياً. ولذلك قاموا، بين سنتي ٦٧٢هـ و٧٤٤هـ (١٢٧٣ - ١٣٤٤م) بعبور مضيق جبل طارق مراراً كثيرة بهدف الدفاع والهجوم، واستطاعوا أن ينزلوا الخسائر الفادحة بالأسبان، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبدلوا حدود مملكة غرناطة^(٣).

Terrasse, Henri: Islam d'Espagne», (I.E.), pp. 206 et 207.

(١)

(٢) «تأسست مملكة بني مرين المغربية بصفة نهائية في عهد أبي يوسف يعقوب (١٢٥٨ - ١٢٨٦م) / ٦٥٦ - ٦٨٥هـ). وقد اضطرت مملكة غرناطة، من جهةها إلى البحث، بقصد ضمان وجودها، عن التحالف مع المرينيين ضد الممالك النصرانية بإسبانيا حتى توقف، بقدر الإمكان، زحف حملة الاسترداد، كما بحثت أيضاً عن التحالف مع الممالك النصرانية الأسبانية ضد المرينيين، محاولة منها لمقاومة النفوذ المغربي المتزايد في الأندلس». «ولقد بدأ التدخل المريني في إسبانيا بيعت إرسالية في سنة ١٢٧٥ م / ٦٧٤هـ بعد طلب محمد الثاني ملك غرناط مساعدة أبي يوسف يعقوب، مقابل تسليمه إياه مدينتي الجزيرة الخضراء وطريف». (مجلة تطوان، العدد ٨، سنة ١٩٦٣، ص ١٩١).

Terrasse, Henri: «I.E.», pp. 207 et 208.

(٣)

على أن النصريين لم يكونوا يرتاحون دائماً لمساعدة بني مرين لهم، فقد كانوا يشعرون أن مساعدتهم لم تكن بريئة، أحياناً، من شعور الطمع^(١).

الصراع، إذًا، مستمر يكاد لا يهدأ. ولئن هدا عاد أشد مما كان عليه. ومن سمات هذا الصراع، في هذا العصر، قيام بعض الثورات الأهلية داخل هذه الدول. وقد كان منها ما ينجح ولو لفترة، ومنها ما كان يسحق فينهار^(٢).

على أنه لا شيء أكد على اشتداد الصراع، ولا أوضح بياناً لحدته، ولا أدل على وفرة الأحداث السياسية من إلقاء نظرة متأنية على الجدول الخامس^(٣) الذي تحددت فيه، بالتأريخين الهجري والميلادي، أهم الأحداث والمجريات الواقعة في العصر النصري الثاني، موثقة ومدعمة بأشهر المصادر والمراجع.

(١) ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٨٩ و ١٩٩.

(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٥٣. والقلقشندي: «صبح الأعشى...»، ٥: ٢٦٣.

(٣) تراجع الصفحة ٢٤٧ من هذه الدراسة.

الفصل الثالث

الحالة الفكرية

استمر قيام مملكة غرناطة، أو الأندلس الصغرى، ما يجاوز، بقليل، قرنين ونصف قرن من الزمن. واستمرت في حمل لواء الحضارة الأندلسية. فتناولت فيها الحركة الفكرية بحيث بلغت ذروة التقدم والازدهار في العصر النصري الثاني، وبخاصة في عهدي السلطانين يوسف الأول (٧٣٣-٧٥٥هـ / ١٣٣٣-١٣٥٤م) وابنه الغني بالله محمد الخامس (٧٥٥-٧٩٣هـ / ١٣٥٤-١٣٩١م).

وكان لتشجيع ملوك بني نصر أثر واضح في هذه النهضة الفكرية، إذ كانوا، بصورة عامة حماة للفكر والأدب، بل إن كثيراً منهم كانوا يعدّون من جملة الأدباء والعلماء.

فهذا هو محمد الثاني (ت ٧٠١هـ / ١٣٠٢م) الذي أربى على والده بـ «إيثار العلماء والأطباء والحكماء والكتاب والشعراء وقرض الأبيات الحسنة»^(١). وقد وقف ابن الخطيب على كثير من شعره ووصفه بأنه غط «مستظرف من الملوك والأمراء»^(٢).

وهذا هو محمد الثالث^(٣) «يقرض الشعر ويصغي إليه، ويشيب عليه فيجيز الشعراء... ويعرف مقادر العلماء... وكان له شعر مستظرف من

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٥٦٥.

(٢) نفسه، ١: ٥٦٦. و«اللمحة البدرية...»، ص ٣٨.

(٣) حكم من ٧٠١هـ حتى ٧٠٨هـ (١٣٠٢-١٣٠٩م).

مثله لا بل يفضل به الكثير ممن ينتحل الشعر من الملوك»^(١).

وكذلك كان محمد الرابع^(٢) «يحب الأدب ويرتاح إلى الشعر وبنه على العيون ويلم بالنادرة الحارة»^(٣).

وعرف عن يوسف الأول أنه كان عالماً شاعراً، يحمي الآداب والفنون. وهو «عذب الكلام... وافر العقل... إلى ثقب الذهن وبعد الغور والتفطن للمعارض...»^(٤). وهو الذي أمر بإنشاء المدرسة الجامعة في غرناطة على يد حاجبه أبي النعيم رضوان^(٥)، وسميت بالمدرسة النصرية أو المدرسة اليوسفية تيمناً باسم منشئها. وقد أوقف عليها الحاجب رضوان، بأمر السلطان، الأوقاف الجليلة حتى «جاءت نسيجة وحدها بهجة ورصداً وظرفاً وفخامة»^(٦).

ولقد تم بناء هذه المدرسة «العجيبة بكر المدارس»^(٧) في مطلع سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م، وظلت منهلاً للعلم والأدب مدة طويلة، حتى هدمها الاسبان في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري) ووزعوا بعض آثارها على مختلف متاحفهم^(٨).

ولئن كان يجدر بي أن أتوسع قليلاً في الكلام على هذه المدرسة - بسبب علاقة شاعرنا ابن زمرك بها، إذ أقام فيها فترة يتلقى العلم ثم يدرّس

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٥٥٣. و«اللمحة البدرية...»، ص ٤٨.

(٢) حكم من ٧٢٥هـ حتى ٧٣٣هـ (١٣٢٥ - ١٣٣٣)م.

(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٥٤٠.

(٤) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٨٩.

(٥) هو أبو النعيم رضوان النصرى الحاجب المعظم، حسنة الدولة النصرية وفخر مواليها... أحدث المدرسة بغرناطة... وبنى من الأبراج المنيعة... ما ينيف على ٤٠ برجاً. غزواته كثيرة. قتل في رمضان ٧٦٠هـ/آب ١٣٥٩م. (ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٥١٤ - ٥٢١).

(٦) ابن الخطيب: «كناسة الدكان بعد انتقال السكان»، تحقيق د. محمد كمال شبانه، مراجعة د. حسن محمود، دار الكاتب العربي بالقاهرة، ص ١٥٦.

(٧) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٩٦.

(٨) ابن الخطيب: «كناسة الدكان...»، ص ١٥٥.

الأدب - فإنه يخلق بي أن أشير إلى أن متحف غرناطة الأثري يحتوي لوحات رخامية عائدة لهذه المدرسة^(١). ومن هذه اللوحات واحدة سجل عليها اسم منشئها وتاريخ الانتهاء من إنشائها، جاء فيها:

«أمر ببناء هذه الدار للعلم، جعلها الله استقامة ونوراً وأدامها في علوم الدين على الأيام، أمير المسلمين - أظله الله بعونه -... أبو الحجاج يوسف... كافي الله في الإسلام صنائعه الزاكية، وتقبل أعماله الجهادية، وتم ذلك في شهر محرم عام خمسين وسبعمائة»^(٢).

وإذا كانت المصادر لا تذكر شيئاً عن تاريخ البدء ببناء المدرسة، فإني أستطيع أن أحده على وجه التقريب، فأزعم أنه مطلع الثلث الأخير من العام الهجري ١٣٤٨/٧٤٩ - ١٣٤٩ م. والذي يرجح هذا الزعم، هو أن باب المدرسة قد نقش عليه أبيات أربعة حاثية الروى وعلى بحر البسيط، من نظم الوزير ابن الجياب^(٣). فإذا عرفنا أن هذا الوزير الشاعر قد توفي في الثالث والعشرين من شوال سنة ٧٤٩ هـ/ ١٤/١/١٣٤٩ م، أدركنا، بالتالي، أن بناء المدرسة قد بدأ قبل هذا التاريخ بفترة قصيرة، لعلها لا تتجاوز مطلع

(١) ليفي - برونسفال: «I.A.E.»، لوحة رقم ٣٨، فيها مقاطع نقشية للمدرسة.

(٢) ابن الخطيب: «كناسة الدكان...»، ص ١٥٥.

(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان الجياب الأنصاري الوزير والشاعر الكبير. ولد في غرناطة في جمادى الأولى عام ٦٧٣ هـ/ تشرين الثاني ١٢٧٤ م، وتوفي ليلة الأربعاء ٢٣ شوال عام ٧٤٩ هـ/ ١٤ كانون الثاني عام ١٣٤٩ م وذلك بسبب وباء الطاعون الذي انتشر في أواخر صفر من عام ٧٤٩ هـ/ أواخر أيار ١٣٤٨ م. (المقري: «نفع الطيب...»، ٥: ٤٤٥. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٨٣. وابن الأحرار: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٢٣٩ و«نثر الجمان...»، ص ١٢٥. وابن فرحون: «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٢٩ هـ، ص ٢٠٧). أما أبياته فهي التالية:

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ هَذَا يَابُهِ فُتِحَا فَاذْخُلْ تُشَاهِدْ سَنَاهَ لَاحِ شَمْسٍ ضَحَى
وَاشْكُرْ مُجِيرَكَ مِنْ حَلٍّ وَمُزْتَحِلٍ إِذْ قَرَّبَ اللَّهُ مِنْ مَرَمَاكَ مَا نَزَحَا
وَشَرَّفَتْ حَضْرَةَ الْإِسْلَامِ مَذْرَسَةً بِهَا سَبِيلُ الْهُدَى وَالْعِلْمِ قَدْ وَضَحَا
أَعْمَالُ يُوسُفَ مَوْلَانَا وَنَيْئُهُ قَدْ طُرَزَتْ صُحُفًا مِيزَانُهَا رَجَحَا

(المقري: «نفع الطيب...»، ٥: ٤٥٧ و ٤٥٨).

رمضان سنة ٧٤٩هـ / أواخر ت ١ سنة ١٣٤٨م.

وحين خلف ابن الخطيب أستاذه ابن الجياب في الوزارة، انشأ قصيدة ميمية من تسعة أبيات، على بحر الطويل^(١)، أمر بنقشها على أحد جدران المدرسة، ثم أوقف عليها، بعد ذلك، نسخة من كتابه «الإحاطة...»^(٢).
أما الأساتذة القائمون فيها بمهمة التدريس، والذين لم يكونوا، جميعاً، من مملكة غرناطة، بل كان بينهم من أتى من المغرب، فلا أستطيع أن أذكر منهم إلا الذين نصت المصادر صراحة على أنهم قعدوا للاقراء بالمدرسة. وهم : أبو زكريا بن هذيل^(٣)، وأبو سعيد بن لب^(٤)، وأبو محمد ابن

(١) هي التالية:

أَلَا هَكَذَا تُبْنَى الْمَدَارِسُ لِلْعِلْمِ وَتَقْصَدُ وَجْهَ اللَّهِ بِالْعَمَلِ الرِّضَا
تُفَاجِرُ مِنِّي خَضْرَةَ الْمُلْكِ كُلَّمَا فَأَجْدَى إِذَا ضَمَّ الْقَمَامُ مِنَ الْحَيَا
فَيَا ظَافِعًا لِلْعِلْمِ يَطْلُبُ رِخْلَةً بِبَابِي حُطَّ الرُّحْلُ لَا تَنْوِ وَجْهَةً
فَكَمْ مِنْ شِهَابٍ فِي سَمَائِي ثَاقِبٍ يَفِيضُونَ مِنْ نُورٍ مُبِينٍ إِلَى هُدًى
جَزَى اللَّهُ عَنِّي يُوسِفًا خَيْرَ مَا جَزَى (ابن الخطيب: دكناس الدكان...، ص ١٥٥ و ١٥٦).

(٢) ابن الخطيب: دكناسة الدكان...، ص ١٥٦.

(٣) هو الفقيه أبو زكريا يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي الأغرناطي (؟ - ٢٥ ذي القعدة ٧٥٣هـ / ٢ - ٢ كانون الثاني ١٣٥٢م). كان شاعراً مبدعاً وخطيباً وطبيباً مشهوراً وعالماً وحكياً. اختص بصحبته لسان الدين الخطيب، وأخذ عنه الطب والتعاليم والمنطق وصناعة التعديل. قعد بالمدرسة يقرئ الأصول والفرائض والطب. (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٧٣ و ٧٤. وابن الأحمر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٣٢٠ - ٣٢٢. والمقري: «نفح الطيب...»، ص ٤٨٧ - ٤٩٧).

(٤) هو أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبي الغرناطي (٧٠١ - ١٧ ذي الحجة ٧٨٢هـ / ١٣٠١ - ١٦ آذار ١٣٨١م). كان عالماً، عارفاً بالعربية واللغة، مبرزاً بالتفسير، مشاركاً في الأصول والفرائض والأدب. أقرأ بالمدرسة النصرية عام ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م. قل بالأندلس في وقته من أئمتها الجللة من لم يأخذ عنه. ومن أكابرهم الإمام الشاطبي والأستاذ الحفار وابن بقي وأبو محمد بن جزى وابن الخطيب وابن زمرك. وله تأليف منها شرح جل =

جُزَيَّ^(١) وأبو عبدالله بن الفخار^(٢)، وأبو عبد الله البَيَّاني^(٣)، وأبو عبدالله ابن مرزوق^(٤)، وأبو علي الزواوي^(٥).

= الزجاجي، وشرح تصريف التسهيل... وله فتاوى مدونة بأيدي الناس. (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٦٧. والمقري: «نفع الطيب...»، ٥: ٥٠٩-٥١٤. والتنبكي، أحمد بابا: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، مطبوع بهامش «الديباج المذهب...» لابن فرحون، ص ٢١٩ و ٢٢٠. والسيوطي: «بغية الرعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، جزءان، ٢: ٢٤٣ و ٢٤٤).

(١) هو أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (؟-؟) «إن ذكر النحو أُرِى بحفاظ بصرته، وسل على كافة الكوفيين صوارم نصرته، أو ذكر البيان، أنسى الخير العيان... وشعره، وإن شغلته عنه شواغل الفنون، مظنة للؤلؤ المكنون... وهو الآن بمدرسة الحضرة يعرب فيغرب». (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٩٦. والتنبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ١٥٤ و ١٥٥ والمقري: «نفع الطيب...»، ٥: ٥٣٩).

(٢) هو محمد بن علي بن أحمد الخولاني، يعرف بابن الفخار وبالألبيري (؟- رجب ٧٥٤هـ/آب ١٣٥٣م). كان إماماً في النحو بحيث لُقِبَ بسببويه العصر. دُرِسَ بالمدرسة النصرية. (ابن الخطيب: «نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب»، تحقيق د. أحمد العبادي، راجعه د. عبد العزيز الأهواني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٦٦. والسيوطي: «بغية الرعاة...»، ١: ١٧٤ و ١٧٥).

(٣) هو محمد بن إبراهيم بن محمد السيارى ويعرف بـ «البَيَّاني». أقرأ الفقه ودرسه وانتصب للفتيا... كان يشارك في العربية والفرائض والأصول، وكان خطيباً جهورياً بليغ الخطبة... توفي بالمدرسة النصرية عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م. (ابن فرحون: «الديباج المذهب...»، ص ٢٩٧. وقد ذكره ابن الخطيب دون أن يترجمه في «أعمال الأعلام...»، ص ٢٩٧. وقد ذكره ابن الخطيب دون أن يترجمه في «أعمال الأعلام...»، ص ٣٠٠. وفي «الإحاطة...»، ١: ٢١٠).

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد ابن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني ويلقب بشمس الدين (٧١١- ربيع الأول ٧٨١هـ/١٣١١- حزيران- تموز ١٣٧٩م). هو «فارس منبر... غاصّ المنزل بالطلبة... مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف...»، وله شرح كتاب «الشفاء» للقاضي عياض، وشرح «العمدة» في خمسة أسفار، وشروح أخرى. قدم الأندلس في أواخر ٧٤٨هـ/١٣٤٨م، قعد للقاء بالمدرسة عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م. وفي أخريات عام ٧٥٤هـ/أواخر ١٣٥٣م رحل إلى المغرب. (التنبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ٢٦٧ و ٢٦٨. وابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٣٩٨. والسيوطي: «بغية الرعاة...»، ص ٤٦ و ٤٧. والمقري: «نفع الطيب...»، ٥: ٣٩٠. وابن فرحون: «الديباج المذهب...»، ص ٣٠٥. وابن خلدون: «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، ١٩٧٩م، ص ٥٠).

(٥) هو أبو علي منصور بن علي بن عبدالله الزواوي (٧١٠؟- ٧٧٠هـ/ ١٣١٠؟- ١٣٦٩م)، =

ولكنني أستطيع، بالمقابل، أن أؤكد أن نخبة ممتازة من علماء ذلك العصر وأدبائه تعاقبوا على التدريس فيها. ذلك بأن المسؤولين الغرناطيين كانوا مهتمين لأمر المدرسة اهتماماً كبيراً، فلا يعقل، في هذه الحالة، أن لا يؤمنوا لها أفضل المدرسين كفاءة وأشهرهم معرفة واطلاعاً.

وأما العلوم التي كانت تدرس فيها، فقد كان على رأسها العلوم النقلية كعلم الأصلين وفروعها من فقه وتفسير وتصوف... وعلوم العربية وما يتصل بها من فنون كالنحو والبلاغة والخطبة... وبعض العلوم الطبيعية كعلم الفيزياء وعلم الطبيعيات^(١).

وقد تخرج من هذه المدرسة الكثير، وأفادوا منها فأفادت منهم بلادهم، ومن هنا كان السلطان أبو الحجاج حرياً بأن يعدّ حامياً للعلوم، مشجعاً للآداب، حاضماً على التعلّم.

ثم جاء ابنه محمد الخامس، من بعده، ليتابع نهجه والسير على خطاه. فبالإضافة إلى أن له محاولات في النظم، ومن ذلك أبيات خمسة كتب بها إلى ابن زمرك فأجاب عنها هذا الأخير بعشرة أبيات عينية الروى على بحر الكامل^(٢). . . أقول بالإضافة إلى هذا، لم يكن الغني بالله أقل من والده تشجيعاً للفكر وتكريماً للعلم. ولا أدل على هذا من أن ابن خلدون، حين قدم إلى غرناطة، لقي: «كل إكرام وترحيب، بل هو اختاره ليكون سفيره إلى ملك تشانة في سبيل عقد الصلح وتنظيم العلاقات السلمية بين

= نزيل تلمسان، يكتب، يشعر، كان عارفاً علم الأصول الفقهية وعلم الأصلين. قدم الأندلس عام ١٣٥٣هـ/١٣٥٢م، فتقدم مقرئاً بالمدرسة، تحت جراية نبيه، متكلياً على الفروع الفقهية والتفسير، متصدراً للفتيا. (التبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ٣٤٥ و ٣٤٦).

(١) إمام الدين: «P.H.M.S.»، ص ١٧٩. وحول موضوع المدارس في المغرب والأندلس يراجع بحث الدكتور دود القاضي في مجلة الفكر العربي، العدد ٢١ السنة الثالثة، ص ٦١.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٣٨.

دولتيهما^(١). حتى إذا أتم ابن خلدون مهمته بنجاح وعاد إلى غرناطة، أقطعه الغني بالله قرية ألبيرة بمرج غرناطة، وسمح له باستقدام أسرته، بل بعث هو في استقدامها^(٢).

على أن وزراء الدولة النصرية وكتّابها كانوا، جميعهم، من أهل القلم، وهم يشكلون، في الواقع، طليعة أدباء العصر. ويتأكد هذا حين أذكر الأديب الكاتب الخطيب الشاعر أبا عبد الله بن الحكيم وزير محمد الثاني ومحمد الثالث، والشاعر المبدع والكاتب البليغ أبا الحسن عليا بن الجياب كاتب نصر وإسماعيل الأول ومحمد الرابع ووزير أبي الحجاج، والشاعر الموشح الكاتب المؤرخ الخطيب الطبيب لسان الدين بن الخطيب وزير الحجاج والغني بالله، وصاحبنا الشاعر الموشح الكاتب ابن زمرك وزير الغني بالله ويوسف الثاني ومحمد السابع.

ولقد برز، غير هؤلاء، في القرن الثامن الهجري، كثير من الشعراء الكتّاب الغرناطيين الذين حددوا، بما صاغوه من شعر ونثر، مكانة الأدب الأندلسي في ذلك القرن. ونجد نماذج كثيرة من أشعارهم في كتب التراجم. وأشهر هؤلاء: أبو جعفر أحمد بن خاتمة الأنصاري شاعر المرية^(٣)، وابن

(١) عنان، محمد عبد الله: «لسان الدين بن الخطيب: حياته وتراثه الفكري»، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة الاستقلال الكبرى، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ١١٣.

(٢) نفسه، ص ١٣ و ١١٤.

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري ويعرف بابن خاتمة (٧١٠هـ - أواخر سنة ٧٧٠هـ/١٣١٠هـ - أوائل ١٣٦٩م). شاعر ألمرية الكبير، قال عنه ابن الخطيب في الإحاطة إنه «جيد القريحة... حسنة من حسنات الأندلس، وطبقة في النظم والنثر». له ديوان شعر، وكتاب تاريخي بعنوان «مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية»، ورسالة بعنوان «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد» وصف فيها الوباء الذي عصف بألمرية وسائر البلاد سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. وله رسائل اخوانية كثيرة، منها رسائل وجهها إلى ابن الخطيب ومنها رسالة إلى ابن جزي.

(ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٢٤٧، و«الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٣٩. وابن الأحرار: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٣٣١، و«نثر الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان»، حققه د. محمد رضوان الداية وسمّاه «أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن»، سلسلة دراسات =

الحاج النُميري^(١)، وأبو عبد الله بن اللُّوشي^(٢) وابن هُذَيْل^(٣)، وأبو بكر محمد بن شَبْرين^(٤)، وأبو جعفر أحمد بن صَفْوَان^(٥)، وابن الحاج

= أندلسية رقم ٨، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص ١٧٥. والتنبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ٧٢. والمَقْرِي: «نفع الطيب...»، ١: ١٦٣ و ٦: ٢٨ و ٣٣ و ٣٤ و (٣٧).

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم... النُميري الغرناطي المعروف بابن الحاج (٧١٢هـ - ٧٦٥هـ / ١٣١٢ - ١٣٦٤م)، شاعر وكاتب، ونثره تلو شعره في الإجابة. قال عنه إسماعيل بن الأحمر في «نثر فرائد الجمان...»: «شاعر حاطم وبحر كتب موجه متلاطم، وجمعية بها طحن ومعرب إفصاح لم يحلل به لحن». أرسم في كتابة الإنشاء عام ٧٣٤هـ/١٣٣٣ - ١٣٣٤م، واستعمل في السفارة إلى الملوك، وولي القضاء بقرب غرناطة. له رحلة دُونها في مجلد سَمَاه «فيض العباب، وإجالة قداح الآداب، في الحركة إلى قسنطينة والزاب». (وكانت موضوع بحث كتبه أ. ل. بريمار A.L. Premare في مجلة «Revue d'histoire de civilisation de Mahgreb Juillet, 1970, p. 34». وله كذلك تأليف كثيرة، منها كتاب «اللباس والصحبة» الذي جمعت فيه طرق المتصوفة والمدعى أنه لم يجمع مثله، وكتاب «نزهة الحدق في ذكر الفرق»، وكتاب «مثاليث القوانين في التورية والاستخدام والتضمين...» (ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٣٥٠ و «الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٦٠. وابن الأحمر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٣١٣. والتنبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ٤٤. والمَقْرِي: «نفع الطيب...»، ٧: ١٠٨).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله اللُّوشي اليحصبي الغرناطي (٦٧٨ - ٧٥٢هـ/١٢٧٩ - ١٣٥١م) ويعرف بابن اللُّوشي: شاعر مفلق فحل وشعره شهير الإجابة، من شعراء السلطان إسماعيل الأول، مدحه ورثاه، وحضر بيعة ابنه محمد الرابع. (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٧٥ و «أعمال الأعلام...»، ص ٣٠٠ و «الإحاطة...»، ٢: ١٩٧. وابن الأحمر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٣٢٩).

(٣) سبق التعريف به في ص ٥٦.

(٤) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن شبرين الجذامي ويعرف بابن شبرين (٦٧٤ - ٣ شعبان ٧٤٧هـ/١٢٧٥ - ١٩ تشرين الثاني ١٣٤٦م). كان شاعراً وأديباً كبيراً. قال عنه ابن الخطيب في «كتيبته»: «خاتمة المحسنين وبقية الفصحاء اللسنين. ان نظم أو نثر تبعت العلماء ذلك الأثر». وهو من شيوخ لسان الدين. (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٦٦ و «الإحاطة...»، ٢: ١٧٤. والنباهي: «المراقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا»، نشره ليفي-بروفنسال، القاهرة، دار الكاتب المصري، ١٩٤٨م، ص ١٥٣. والمَقْرِي: «نفع الطيب...»، ٥: ٥٤١).

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان القيسي، من أهل مالقة، ويعرف بابن صفوان (أواخر ٦٧٥ - آخر جمادى الثانية ٧٦٣هـ/أوائل ١٢٧٧ - أواخر نيسان ١٣٦٢م). وصفه ابن =

البَلْفِيقي^(١)، وأبو القاسم الشريف الحَسَنِي^(٢)، وأبو عبد الله بن جُزَي^(٣)،

= الخطيب بأنه «ناظم، ناثر، عارف... إمام الفرائض والحساب والأدب والتوثيق، ذاكر للتاريخ واللغة، مشارك في الفلسفة والتصوف، كلف بالعلوم الإلهية، يجيد الشعر والكتابة، ولنظمه شغوف على نثره». كتب عن السلطان محمد الثاني واستكتبه إسماعيل الأول رئيساً مستحقاً. له تأليف منها: «مطلع الأنوار الإلهية» و«بغية المستفيد» و«شرح كتاب القرشي في الفرائض». وقد جمع ابن الخطيب شعره في ديوان قدم له وسّماه «الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة». وله قصيدة يعارض بها عينية ابن سينا الشهيرة في النفس. (ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٢٢٩ و«الكتيبة الكامنة...»، ص ٢١٦. وابن الأحرر: «نثر الجمان...»، ص ١٣١. والتبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ٧٢. والمقري: «نفع الطيب...»، ٦: ٤٠).

(١) هو أبو البركات محمد ابن أبي بكر محمد بن إبراهيم بن محمد السلمي المعروف بابن الحاج البَلْفِيقي (بفتح الباء وتشديد اللام). توفي في الثلث الأخير من سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م وقيل سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٢م. من أشهر رجال عصره، قال عنه ابن الأحرر: «رب البلاغة والفصاحة... رجل الحديث وعلمة العلم... كان متبحراً في فنون المعارف، شاعراً مفلحاً، وأديباً بارعاً، وخطيباً مفوهاً». من مؤلفاته «المؤتمن في أبناء من لقيه من أبناء الزمن». وله ديوان كبير سّماه «العذب والأجاج من شعر أبي البركات بن الحاج».

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٢٧. والنباهي: «المراقبة العليا...»، ص ١٦٤. وابن الأحرر: «نثر الجمان...»، ص ١٥٦. والتبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ٢٥٤. والمقري: «نفع الطيب...»، ٥: ٤٧١ و٤٧٣ و٤٧٥ و٤٨٢ و٤٨٦ و٤٨٧. وفي «مجلة الأندلس»، مجلد رقم ٢٨، سنة ١٩٦٣، ص ٣٨١-٤٢٤، بحث عن ابن الحاج، قاضياً مؤرخاً شاعراً، بقلم Soledad Gibert.

(٢) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني السبتي الشهير بالغرناطي (٦ ربيع الأول ٦٩٧ - ٢١ شعبان ٧٦٠هـ/ ٢٢ كانون الأول ١٢٩٧ - ١٨ تموز ١٣٥٩م). هو شاعر العدوة الأندلسية وكاتب انشاء حضرته. تقدم قاضي الجماعة في الحضرة. كان آية في العربية وصدرًا من صدور النحاة وإمامًا في العلوم. من تلاميذه لسان الدين وابن زمرك وأبو إسحق الشاطبي. من مؤلفاته: «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة» و«شرح على الخزرجية» في العروض، وله شعر مدون سّماه «جهل المقل».

(ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ١٢٩. والنباهي: «المراقبة العليا...»، ص ١٧١. وابن الأحرر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٢٣١ و«نثر الجمان...»، ص ١٤٥. والسيوطي: «بغية الوعاة...»، ١: ٣٩. والمقري: «نفع الطيب...»، ٥: ١٨٩. وقد ورد في المصدر الأخير أنه توفي سنة ٧٦١هـ/١٣٦٠م).

(٣) هو أبو عبد الله محمد ابن أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد... ابن جزى الكلبي الغرناطي (شوال ٧٢١هـ/ ٧٥٨هـ؟ / ت ١- ٢ ١٣٢١ - ١٣٥٧م؟). كان شاعراً كبيراً وكاتباً مجيداً، وله باع مديد في التاريخ واللغة والحساب والنحو والبيان. قال عنه ابن الأحرر: «هو رب الشعر». وقال ابن الخطيب: هو «شمس في سماء البلاغة بازغة... فمطولاته بحور... =

والجذامي المنتشاقري^(١)، والخضر ابن أبي العافية^(٢)، وابن قُطْبَةَ الدُّوسِي^(٣)،
والطُّونِجِيْن السَّاحِلِي^(٤).

وتجدر الإشارة، هنا، إلى أن هؤلاء الأدباء هم أعلام الشعر وأعلام

= وأمداحه درر النحور. مدح السلطان يوسف الأول.

(ابن الخطيب: «الإحاطة...» ٢: ١٨٦، و «الكتيبة الكامنة...» ص ٢٢٣. وابن الأحرر: «نثر فرائد الجمال...» ص ٢٩٢. والمقري: «نفع الطيب...» ٥: ٥٢٦.)
(١) هو أبو الحجاج يوسف بن موسى الجذامي المنتشاقري (?-?). كان حياً حين ألف لسان الدين «إحاطته». كان شاعراً بلغ في الإحسان الغاية، فطارت قصائده كل مطار. ولي القضاء ببلدة منتشاقر «Monte - Sacro» (من مقاطعة اكشونه «Ocosnoba» في الركن الغربي الجنوبي من شبه الجزيرة، وأشهر مدنها شلب. تراجع الحاشية رقم ٣ من كتاب «نفع الطيب...»، للمقري، ١: ١٤١). وله تواليف كثيرة حسنة الأغراض منها: «ملاذ المستعين في بعض خصائص سيد المرسلين»، و«اعتلاق السائل بأفضل الوسائل»، و«النفحات الرندية واللمحات الرندية».

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...» ص ١١٩. والمقري: «نفع الطيب...» ٦: ١٣٨.)
(٢) هو أبو القاسم الخضر بن أحمد بن الخضر ابن أبي العافية الأنصاري، ويعرف بابن أبي العافية (ت آخر ربيع الأول ٧٤٥هـ/ ١٠-١١ آب ١٣٤٤م). كان أديباً وشاعراً مكثراً مصيباً غرض الإجادة. تصرف في الكتابة السلطانية. ثم تولى قضاء برجه إلى أن توفي فيها.
(ابن الخطيب: «الإحاطة...» ١: ٥٠٢ و «الكتيبة الكامنة...» ص ١٧٧. والنهاية: «المربة العليا...» ص ١٤٩. وابن فرحون: «الديباج المذهب...» ص ٤٣. والتبكي: «نيل الابتهاج...» ص ١١٠ و ١١١.)

(٣) هو محمد ابن أبي القاسم محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي (٧١٠-؟هـ/ ١٣١٠ - ١٣١١م). شاعر مكثر ومجيد، نظم الشعر وهو صغير. وقد اشتهر بهجائه حتى لقّب بالخطيئة.

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...» ص ٢٧٢. وابن الأحرر: «نثر فرائد الجمال...» ص ٣١٨.)

(٤) هو أبو إسحق إبراهيم بن محمد الساحلي الأنصاري المشهور بالطويجن (طاء مشددة مضمومة وواو مفتوحة وياء ساكنة وجيم مكسورة)، ويعرف أيضاً بالساحلي. توفي في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٧٤٧هـ/ ١٥ تشرين الأول ١٣٤٦م. ذكر ابن الخطيب أنه كان نسيج وحده في الأدب نظماً ونثراً، «لا يشق فيها غباره». رحل إلى السودان... و«صدرت عنه رسائل أثناء إغرابه تشهد بجلالة آدابه».

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...» ص ٢٣٥ و «الإحاطة...» ١: ٣٣٧. وابن الأحرر: «نثر فرائد الجمال...» ص ٣٠٨ و «نثر الجمال...» ص ٢٠٥. والمقري: «نفع الطيب...» ٢: ١٩٤.)

الكتابة في آن، ذلك أن الأديب بمفهوم ذلك العصر كان عليه أن يتقن اللغة العربية بحيث يستطيع النظم والكتابة.

وعلى الرغم مما يوصف به المذهب المالكي السائد في غرناطة من تشدد، لم يكن الغرناطيون ينظرون إلى الشعر نظرة الكاره المسمثر تبعاً للآية الكريمة التي تقول: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمَ تَرَأْنَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾^(١) بل هم، على العكس، أحبوا الشعر واستحسنوا قرضه وتذوقوه تبعاً للآية الكريمة التي تقول: ﴿... إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾^(٢).

وقد عبّر عن هذا الاستحسان الأمير أبو الوليد بن الأحمر^(٣) في كتابه «نثر الجمان...»، حين خصص الباب الأول منه لذكر فضل الشعر وإباحة إنشاده في المساجد مشروطاً أن يبتعد عن الهجاء والذم والغزل الماجن الإباحي.

ولهذا نلاحظ أن الشعر الغرناطي، وإن طرق أغراضاً شتى، كان في أكثره مدحاً ووصفاً ورتاءً، ذلك أن التعلق بالدين، بخاصة، فرض على الشعراء الإقلال من الهجاء والغزل الإباحي والإكثار من الشعر الصوفي الذي يتجسد في المديح النبوي ووصف الجهاد.

ولقد كان المتأدب الغرناطي يدرس، أول ما يدرس، العلوم الدينية

(١) «الشعراء» ٢٦ / ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦.

(٢) «الشعراء» ٢٦ / ٢٢٧.

(٣) هو الأمير أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن محمد بن فرج بن إسماعيل بن يوسف المعروف بابن الأحمر، توفي سنة ٨١٠هـ (وذكر أيضاً أن سنة وفاته هي ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م). كان أديباً شاعراً مؤرخاً، وله تواليف كثيرة منها «نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان» و«نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان» و«روضة النسر في دولة بني مرين». وهذا الأخير حققه الدكتور محمد رضوان الداية، الرباط، المطبعة الملكية، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م. ولابن الأحمر هذا ترجمة وافية في الصفحات (٦١ - ٢٠٣) من مقدمة تحقيق كتابه «نثر فرائد الجمان...».

وعلى رأسها الفرائض والفقه، وعلوم العربية وفي طليعتها البلاغة والعروض، وكان عليه أن يتقن الخط ويلم بشيء من الحساب. لذلك كان معظم الفقهاء والأدباء في غرناطة ينظمون وينثرون ويشاركون في فنون كثيرة. ونظرة سريعة على تراجم أدباء ذلك القرن تؤكد لنا أن المفهوم الشائع للأدب فيه إنما هو المفهوم نفسه الشائع في العصور العباسية، بمعنى أن الأدب كان يفهم على أنه الأخذ من كل علم سائد بطرف^(١). ولذا فإن أدباء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) كانوا، هم أنفسهم، مثقفيه. فالشاعر الغرناطي، بصورة عامة، كاتب وفقهه ونحوي... إلّا أن فن النظم غلب عليه، والفقهاء الغرناطي كاتب وناظم ولغوي... إلّا أن الفقه غلب عليه، وقس على هذا سائر أدباء العصر.

وهكذا فإن الذين ذكروا في ما سبق، غلب عليهم الشعر والكتابة، وأستطيع أن أضيف إليهم مجموعة أخرى كبيرة ممن اشتهروا بالنظم والنثر^(٢).

- (١) ابن خلدون: «المقدمة»، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٥٥٣.
- (٢) أمثال أبي عبد الله بن خميس، توفي في عيد الفطر سنة ٧٠٨هـ/أواسط آذار سنة ١٣٠٩م. وله ديوان «الدر النفيس في شعر ابن خميس» (المقري: «نفع الطيب...»، ٥: ٣٥٩. والسيوطي: «بغية الوعاة...»، ١: ٢٠١). وأبي محمد عبد الله الأزدي من بلش وقد توفي بسبب الوباء سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. (المقري: «نفع الطيب...»، ٦: ١٠٣). وابن عطية المحاربي من كتاب محمد الخامس. (ابن الأحرر: «نثر الجمان...»، ص ١٣٧، وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٦٩). وإبراهيم بن جابر القيسي (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٦٣). وابن الزيات الكلاعي، توفي في شوال ٧٢٨هـ/آب ١٣٢٨م. (ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٢٩٥) و«الكتيبة الكامنة...»، ص ٣٤، والسيوطي: «بغية الوعاة...»، ١: ٣٠٢). وابن فرحون: «الدباج المذهب...»، ص ٤٣). وأبي عبد الله ابن حسان الغافقي (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٤٥). والأخير المألقي أبي الحسن علي بن أحمد. (ابن الأحرر: «نثر الجمان...»، ص ١٥٠) و«نثر فرائد الجمان...»، ص ٢٣٥، وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٦٢). وابن الشراط المألقي عبد الله بن محمد. (ابن الأحرر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٣٢٥). وابن العريف الغرناطي محمد بن محمد. (ابن الأحرر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٣٢٦). وأبي بكر بن الحكيم (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٩٥، والمقري: «نفع الطيب...»، ٥: ٤٩٧). وأبي علي الحسن الأنصاري (ابن الأحرر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٣٠٧، وابن الخطيب: «الكتيبة =

ولكني أكتفي بمن أشرت إليهم وتمكن مراجعة كتب التراجم المختصة بهذا الشأن.

أما النحو فقد امتاز فيه نخبة من الأدباء غلبت عليهم هذه الصناعة، وعلى رأسهم أبو جعفر بن الزبير الثَّقَفِي^(١)، وابن حَيَّان الأندلسي^(٢)، وابن الفَخَّار الألبيري^(٣)، وابن عَبْدِ النُّور^(٤)، وابن الفَخَّار الجُدَّامي^(٥)، وابن = الكامنة...، ص ٢٠٥). وغيرهم كثيرون...

(١) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثَّقَفِي الجبالي المولد الغرناطي المنشأ (أواخر ٦٢٧ - ٨ ربيع الأول ٧٠٨هـ/١٢٢٩ - ٢٦ آب ١٣٠٨م). إليه انتهت الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية. كان نحوياً ناقداً أديباً محدثاً مفسراً، أقرأ النحو والقرآن والحديث بمالقة، وولي قضاء المنكح والخطبة بالحضرة، وهو شيخ أبي حَيَّان. له مصنفات كثيرة في النحو وأصول الفقه والتاريخ وذيّل على كتاب «الصلة» لابن بشكوال سمّاه «صلة الصلة». (السيوطي: «بغية الوعاة»...، ١: ٢٩١. وابن الخطيب: «الإحاطة»...، ١: ١٩٥. وابن فرحون: «الديباج المذهب»...، ص ٤٢. والفيروزآبادي: «البلغة في تاريخ أئمة اللغة»، تحقيق محمد المصري، سلسلة إحياء التراث القديم رقم ٢٧، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص ١٤).

(٢) هو أبو حَيَّان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الملقب بأثير الدين (من الألقاب الشرقية) (أواخر ٦٥٤ - ٢٨ صفر ٧٤٥هـ/أوائل ١٢٥٧ - ١٣ تموز ١٣٤٤م). هو نحوي عصره ولغوي ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه! كان الإمام المطلق في النحو والتصريف. رحل إلى المشرق مخافة أن يكرهه السلطان على تعلم المنطق والفلسفة كما أشار هو في بعض كتاباته. أضرب في آخر أيامه. له تصانيف كثيرة منها: «البحر المحيط» في التفسير، وهو أشهرها، و«التذيل والتكميل في شرح التسهيل» و«ارتشاف الضرب في علم لسان العرب» و«التذكرة» و«اللمحة» و«الشذرة»، وكلها في النحو، و«نحاة الأندلس». وله ديوان شعر. (السيوطي: «بغية الوعاة»...، ١: ٢٨٠. وابن خلدون: «العبر»...، ص ٢٤٣. والفيروزآبادي: «البلغة»...، ص ٢٠٣).

(٣) سبق التعريف به في ص ٥٧ من هذه الدراسة.

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد المالقي النحوي ويعرف بابن عبد النور (رمضان ٦٣٠ - ٢٧ ربيع الثاني ٧٠٢هـ/حزيران - تموز ١٢٣٣ - ١٩ كانون الأول ١٣٠٢م). كان عالماً بالنحو، صنف شرح الجزولية، وشرح مغرّب ابن هشام الفهري. على أن أعظم تصانيفه هو «رصف المباني في حروف المعاني» وهو يدل على تقدمه.

(السيوطي: «بغية الوعاة»...، ١: ٣٣١. وابن الخطيب: «الإحاطة»...، ١: ٢٠٣. والفيروزآبادي: «البلغة»...، ص ٢٥).

(٥) هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الفخار الجُدَّامي الأركشي (٦٣٠ - ٧٢٣هـ/ =

شُقْرَال^(١)، وابن عَبْدِ الْحَقِّ^(٢) وابن هَانِءِ اللَّخْمِي^(٣).

وفي ميدان الفقه والتفسير لمع أَبُو حَيَّانَ الْغُرْنَاطِي^(٤)، وَالتَّنُوخِي^(٥)، وابن جُزَي^(٦)

= (١٢٣٢-١٣٢٣م). كان مفتناً عالماً بالفقه والعربية والقراءات والأدب والحديث. من تصانيفه: «شرح مشكلات سيويه» و«شرح قوانين الجزولية».

(السيوطي: «بغية الوعاة...»، ١: ١٨٧. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٧٠).

(١) هو أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ فَرَجَ بْنِ شُقْرَالِ اللَّخْمِي الشَّرَفِيِّ وَيَعْرِفُ بِالطَّرْسُونِيِّ. تَوَفَّى سَنَةَ ٧٣٠هـ/١٣٢٩م - ١٣٣٠م. كَانَ قِيَمًا عَلَى النُّحُو مُشَارِكًا فِي الْأَصْلِينَ وَالْمُنَظِقِ وَلَهُ شِعْرٌ. عَمِلَ نَازِرًا خِزَانَةَ الْكُتُبِ السُّلْطَانِيَّةِ عِنْدَ الْوَزِيرِ ابْنِ الْمَحْرُوقِ. (السيوطي: «بغية الوعاة...»، ١: ٤٥).

(٢) هو أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ الْجَدَلِيِّ الْمَالِقِيِّ وَيَعْرِفُ بِابْنِ عَبْدِ الْحَقِّ (٨ شَوَّالٍ ٦٩٨ - ٢٧ رَجَبٍ ٧٦٥هـ/ ١٠ تَمُوزَ ١٢٩٩ - ١ أَيْسَارَ ١٣٦٤م). كَانَ مُضْطَلَعًا بِصَنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ، عَارِفًا بِالْفُرُوعِ وَالْأَحْكَامِ، مُشَارِكًا فِي الْأَصُولِ وَالْأَدَبِ وَالطَّبِّ. وَلَهُ شِعْرٌ. تَصَدَّرَ لِلِقَاءِ بِمَالِقَةَ وَقَضَى بَيْلَشَ وَغَيْرَهَا. (السيوطي: «بغية الوعاة...»، ١: ٣٢١. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٢٣، و«الإحاطة...»، ١: ١٨٦. وابن فرحون: «الديباج المذهب...»، ص ٤١ وقد ورد فيه أنه توفي سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م).

(٣) هو أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ هَانِءِ اللَّخْمِي السَّبْتِيِّ (تَوَفَّى بِجَبَلِ الْفَتْحِ أَوَّخِرَ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ ٧٣٣هـ/ أَوَّاسِطَ آبِ ١٣٣٣م). كَانَ إِمَامًا بِالْعَرَبِيَّةِ، مَبْرَزًا، لَا يَشُقُّ فِي ذَلِكَ غِبَارَهُ، مُشَارِكًا فِي الْأَصْلِينَ. مِنْ تَصَانِيفِهِ «شَرْحُ التَّسْهِيلِ»، وَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلٌ، وَ«لَحْنُ الْعَامَةِ» وَأَرْجُوزَةٌ فِي الْفَرَائِضِ. (السيوطي: «بغية الوعاة...»، ١: ١٩٢).

(٤) سبق التعريف به في ص ٦٥ من هذه الدراسة.

(٥) هو أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ التَّنُوخِيِّ (٩٦٠-٧ محرم ٧٢٧هـ/ ١٢١٠-٣ كانون الأول ١٣٢٦م). كَانَ مُفَسِّرًا فَقِيهًا عَارِفًا بِالْعَرَبِيَّةِ. دَخَلَ غُرْنَاطَةَ وَأَقْرَأَ بِهَا فَنُونَ الْعِلْمِ بَعْدَ وَفَاةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، وَجَمَعَ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ وَتَدْرِيسِ الْفِقْهِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالتَّفْسِيرِ. وَلَهُ شِعْرٌ. رَوَيْتَ عَنْهُ كَرَامَاتٍ وَأَخْبَارَ عَجِيبَةٍ، إِذْ كَانَ عَلَامَةً الْأَوْلِيَاءِ بِالْأَنْدَلُسِ فِي وَقْتِهِ، الْمَجْمَعُ عَلَى فَضْلِهِ وَزَهْدِهِ وَعِلْمِهِ وَمُرَبَّتِهِ.

(السيوطي: «بغية الوعاة...»، ١: ٤٢٤. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٣٢ و«الإحاطة...»، ١: ٣٨٢. والتنبكيتي: «نيل الابتهاج...»، ص ٣٨٢).

(٦) هو الشَّيْخُ الْأَسَازُ أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ جَزِيِّ الْكَلْبِيِّ، مِنْ غُرْنَاطَةَ، (٩ ربيع الثاني ٦٩٣ - ٩ جمادى الأولى ٧٤١هـ/ ٩ آذار ١٢٩٤ - ٣١ ت ١٣٤٠م). كَانَ فَقِيهًا حَافِظًا لِلتَّفْسِيرِ، قَائِمًا عَلَى التَّدْرِيسِ مُشَارِكًا فِي فَنُونٍ مِنْ عَرَبِيَّةٍ وَأَصُولٍ وَقِرَاءَاتٍ وَحَدِيثٍ وَأَدَبٍ. تَقَدَّمَ خَطِيبًا بِالْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ. لَهُ تَأْلِيفٌ كَثِيرَةٌ أَشْهَرُهَا: «التَّسْهِيلُ لَعُلُومِ التَّنْزِيلِ» فِي التَّفْسِيرِ، وَ«وَسِيلَةُ الْمُسْلِمِ فِي تَهْذِيبِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» وَ«الْقَوَانِينُ الْفَقْهِيَّةُ فِي تَلْخِيصِ مَذْهَبِ =

والشَّاطِطِي^(١)، وأبو بكر بن جُزَي^(٢)، وعثمان بن مَنْظُور^(٣)،
أبو بكر بن مَنْظُور^(٤)، وأبو جعفر بن فَرْكُون^(٥)، وابن بكر

= المالكية والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية و«النور المبين في قواعد عقائد الدين». وله فهرسة كبيرة اشتملت على جملة كثيرة من أهل الشرق والمغرب. توفي شهيداً في معركة طريف.

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٤٦. وابن فرحون: «الديباج المذهب...»، ص ٢٩٥ و ٢٩٦. والمقرئ: «نفع الطيب...»، ٥: ٥١٤).

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاططي. توفي في شعبان عام ٧٩٠هـ/آب ١٣٨٨م. هو الإمام العلامة في الفقه والأصول والتفسير والحديث والعربية. وله تأليف جلية في التصوف مشتملة على أبحاث نفيسة منها: كتاب «الموافقات» وكتاب «الإشادات والإفادات». وهو من تلاميذ لسان الدين بن الخطيب. (التبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ٤٦).

(٢) هو أبو بكر (أو أبو جعفر) أحمد ابن أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي (١٥ جمادى الأولى ٧١٥ - ٧٨٥هـ/١٧ آب ١٣١٥ - ١٣٨٤/١٣٨٣م). وكان له في لجة الفقه سيج وعلى بعض موضوعات أبيه شرح. وأدبه ساطع. ولي القضاء ببرجة، ثم بأندرش، ثم بوادي آش، ثم بحضرة غرناطة. وعمل خطيباً بمسجد السلطان.

(ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ١٦٣. و«الكتيبة الكامنة...»، ص ١٣٨. وابن الأحمر: «نثر الجمان...»، ص ١٦٥. والنباهي: «المراقبة العليا...»، ص ١٧٧. وابن فرحون: «الديباج المذهب...»، ص ٤١. والمقرئ: «نفع الطيب...»، ٥: ٥١٧).

(٣) هو أبو عمر عثمان بن محمد بن يحيى بن محمد بن منظور القيسي ويعرف بابن منظور. من أهل مالقة. (توفي في ٢٥ ذي الحجة عام ٧٣٥هـ/١٦ آب ١٣٣٥م). كان علماً من أهل النظر والاجتهاد والتحقيق مشاركاً في فنون من فقه وعربية. اقرأ بمالقة. وولي القضاء بمواضع عديدة. له تأليف منها تقييد حسن في الفرائض سمّاه «بغية المباحث في معرفة مقدمات الموارث».

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١١٤. والنباهي: «المراقبة العليا...»، ص ١٤٧. وابن فرحون: «الديباج المذهب...»، ص ١٩٢).

(٤) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن منظور القيسي (مات بالطاعون في منتصف صفر ٧٥٠هـ/أيار ١٣٤٩م). كان فقيهاً علماً من أعلام القضاة. ولي القضاء بجهاث شتى من الأندلس. ثم تقدم ببلده مالقة قاضياً وخطيباً. له تأليف منها: «نفحات النسوك وعميون التبر المسبوك في أشعار الخلفاء والوزراء والملوك»، وكتاب «السجم الواكفة والظلال الوارفة في الرد على ما تضمنه المظنون به من اعتقادات الفلاسفة» وكتاب «البرهان والدليل في خواص سور التنزيل».

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١١٩. والنباهي: «المرقب العليا...»، ص

(١٥٤).

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشي ويعرف بابن فركون (٦٤٩ - ١٦ ذي =

الأشعري^(١)، وابن بيش العبدري^(٢)، وأبو جعفر بن برطال^(٣).

وفي أدب الرحلة ألف ابن الحاج النميري «فيض العباب...»، وألف خالد البلوي^(٤) «تاج المفرق في تحلية أهل المشرق» المعروف برحلة البلوي.

= القعدة ٧٢٩هـ/١٢٥١ - ١١ أيلول ١٣٢٩م). من صدور القضاة بالأندلس. قضى بالمرية، وعمل قاضي الجماعة بغرناطة لفترة. كان كثير الاجتهاد والنظر، ماهراً في علم الفريضة، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وقراءة. وله شعر.

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٠١ و«الإحاطة...»، ١: ١٥٩. والنباهي: «المراقبة العليا...»، ص ١٣٨. والتنبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ٦٤).

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يحيى... ابن بكر بن سعد الأشعري المالقي ويعرف بابن بكر (٦٧٣/٦٧٤ - ٧ جمادى الأولى ٧٤١هـ/١٢٧٤/١٢٧٥ - ٢٩ تشرين الأول ١٣٤٠م). كان عارفاً بالكلام، ميرزاً في الحديث تاريخاً وإسناداً وتعديلاً وتجريحاً، حافظاً للأنساب والأسماء والكنى، قائماً على العربية، مشاركاً في الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب. ولي القضاء ببلده مالقة، ثم القضاء والخطابة بغرناطة. وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب.

(ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ١٢٥. والنباهي: «المراقبة العليا...»، ص ١٤١. والسيوطي: «بغية الوعاة...»، ١: ٢٦٥. والمقري: «نفع الطيب...»، ٥: ٣٨٥).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن بيش العبدري الغرناطي (٦٨٠ - رجب ٧٥٣هـ/١٢٨١ - تموز/آب ١٣٥٢م). عانى صناعة النحو واشتهر بالإلحاح على كتاب الصحاح. كان متضلعا بالعربية، عاكفاً على تحقيق اللغة، مشاركاً في الطب. أقرأ بغرناطة. كان له في الشعر نصيب. أثرى من التكسب بالكتب.

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٩٠. والسيوطي: «بغية الوعاة...»، ١: ٢٣٣. والمقري: «نفع الطيب...»، ٥: ٣٨٤ و٦: ٢٤٤).

(٣) هو القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد بن علي بن أحمد الأموي المعروف بابن برطال (٦٨٩ - ٥ صفر ٧٥٠هـ/١٢٩٠ - ٢٥ نيسان ١٣٤٩م). ولي القضاء ببلده ثم تقدم قاضياً بغرناطة وإماماً بالمسجد الأعظم فيها وخطيباً بجامع قلعته.

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٢٥ و«الإحاطة...»، ١: ١٧٧. والنباهي: «المراقبة العليا...»، ص ١٤٨).

(٤) هو أبو البقاء خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم ابن أبي خالد البلوي الأندلسي، قاضي قنتورية (كان حياً حين ألف لسان الدين «الإحاطة...»). وصفه الشاطبي بأنه الشيخ الفقيه القاضي الأعدل، صاحب الرحلة المشهورة المسماة «تاج المفرق...»، وفيها من العلوم والآداب ما لا يتجاوز الرائد. (المقري: «نفع الطيب...»، ٥: ٥٣٢. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٣٤ و«الإحاطة...»، ١: ٥٠٨).

وفي التاريخ: ابن الخطيب صاحب «نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب» و«اللمحة البدرية في الدولة النصرية» و«كتاب أعمال الأعلام في من بويج قبل الاحتلال من ملوك الإسلام»، وابن الأحمر صاحب «روضة النسرين في دولة بني مرين» و«مستودع العلامة ومستبدع العلامة»، وأبو البركات ابن الحاج البليقي صاحب «تاريخ ألمرية وباجة»، وابن خاتمة صاحب «مزنة ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية».

وفي التراجم الأدبية: ابن الخطيب مؤلف «الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» و«الإحاطة في أخبار غرناطة»، والقاضي النباهي^(١) مؤلف «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا»، وابن الأحمر مؤلف «نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان» و«نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان»، وابن فرحون^(٢) مؤلف «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب».

وفي المقامات: ابن الخطيب منشئ «مقامة السياسة» و«مقامة وصف البلدان»، وأبو محمد عبد الله الأزدي منشئ «مقامة العيد»، والقاضي النباهي صاحب «المقامات النخيلية».

وفي الرسائل الديوانية والاخوانية: ابن الخطيب وابن زمرك وابن خاتمة وابن الجياب.

(١) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي النباهي ويعرف بابن الحسن وبالبني. ولد عام ٧١٣هـ/١٣١٢-١٣١٣م وكان على قيد الحياة سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م. كان قاضي الجماعة في غرناطة. كان صديقاً لابن الخطيب ثم صار من أعدائه، وقد جدّ في أمره مع ابن زمرك حتى قتل.

(«المرقبة العليا...»، التصدير، ص (ج) و(ط)).

(٢) هو أبو الوفا إبراهيم بن فرحون (برهان الدين). توفي سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٧م. كان فقيهاً مالكياً مهراً في فن التراجم. وله غير «الديباج». «تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام». (منجد الأعلام، ص ٥٢٢).

أما في النقد، «فلا نفع في العصر الغرناطي على كتاب نقدي متخصص نفق عنده، فقد أنهى حازم القرطاجني^(١) الكتابة في النقد»^(٢).

ولقد كثرت في ذلك العصر، مؤلفات الغرناطيين في مختلف العلوم النقلية. ولكن هذه المؤلفات كانت، في جزء كبير منها، عبارة عن شرح أمهات الكتب المطولة في الفنون أو اختصارها^(٣).

وأشهر المؤلفين ابن الخطيب. فقد كان له أكثر من خمسين مؤلفاً في الأدب والتاريخ والتراجم والطب.. أبرزها «الإحاطة في أخبار غرناطة».

وكان لابن الزيات الكلاعي^(٤) أكثر من عشرين مؤلفاً في علم الكلام واللغة والسيرة النبوية والقواعد الاعتقادية، منها: «رصف نفائس اللآلي ووصف عرائس المعالي «في النحو»، و«قاعدة البيان وضابطة اللسان» في العربية، والأرجوزة المسماة بـ «قرة عين السائل وبغية نفس الأمل» في اختصار السيرة النبوية.

وكان لابن الحاج النميري بضعة عشر كتاباً وأرجوزةً في طرق المداعبة والممازحة وأخبار المنام ومحادثة الأرواح وذكر الفرق وفي الحديث وطرق

(١) هو أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني، الشيخ النحوي الناظم النائر، ولد سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م وتوفي ليلة السبت ٢٤ رمضان سنة ٦٨٤هـ/١٣ تشرين الثاني ١٢٨٥م. (المقري: «نفع الطب..»، ٢: ٥٨٤. والسيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٤٩١. وله ترجمة وافية في كتاب «تاريخ النقد الأدبي في الأندلس» للدكتور محمد رضوان الداية، سلسلة دراسات أندلسية رقم ١، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨١م، ص ٤٨٨).

(٢) الداية، محمد رضوان: «تاريخ النقد..»، ص ٥٤٥.

(٣) ابن خلدون: «المقدمة»، ص ٥٣٢.

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الكلاعي، من أهل بلش مالقة، ويعرف بابن الزيات (٦٤٩-٦٥٠/١٧ شوال ٧٢٨هـ/١٢٥١-١٢٥٢/٢٥ آب ١٣٢٨م). وهو الخطيب المتصوف الشهير الذي كان يجود القرآن ويشارك في العربية والفقه والأدب والتفسير. وله تأليف كثيرة.

(ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٢٩٥ و«الكتيبة الكامنة..»، ص ٣٤. وابن فرحون: «الديباج..»، ص ٤٣. والسيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٣٠٢).

التصوف والتورية. ولعل أشهرها كتاب «جزء في بيان اسم الله الأعظم»، وصفه ابن الخطيب في «إحاطته» بأنه «كتاب كبير الفائدة عظيم الأثر»^(١).

وكذلك كان للمنتشاقري بضعة عشر كتاباً في الأدب والحديث والسيرة، منها: «تويع الرائي في تنوع المراثي» و«أرج الأرجاء في مزج الخوف والرجاء».

ولابن ليون التجيبي^(٢) نحو ثلاثين تأليفاً (وقيل مائة) وأكثرها اختصار لكتب معروفة، إذ كان مولعاً باختصار الكتب. وأبرز مؤلفاته: «الآيات المهدبة في المعاني المقربة» و«أنداء الديم في الوصايا والمواعظ والحكم» و«نصائح الأحباب وصحائح الآداب»، وهي مجموعات شعرية أورد منها المقرئ في «نفحه» مائتين وتسعاً وثمانين قطعة مؤلفة من ستمائة وسبعة وتسعين بيتاً من الشعر تتضمن نصائح ومواعظ متنوعة^(٣).

ولأبي القاسم بن جزي بضعة عشر كتاباً في قواعد العقيدة والحديث والقراءات والتفسير، أشهرها كتاب «التسهيل لعلوم التنزيل» في التفسير.

ولابن المرأة^(٤) بضعة كتب في الحديث والتفسير وذكر كلام التصوف لعل أهمها كتاب بعنوان «جزء في اجماع الفقهاء».

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٣٥٤.

(٢) هو أبو عثمان سعد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون التجيبي (٦٨١ - ٧٥٠هـ / ١٢٨٢ - ١٣٤٩م). من أجل علماء الأندلس وأكابر أئمتهم. وهو من شيوخ لسان الدين. وله تصانيف مشهورة، نظماً ونثراً، منها: «كتاب في الهندسة» و«كتاب في الفلاحة» (المقرئ: «نفح الطيب...»، ٥: ٥٤٣. والتبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ١٢٣).

(٣) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٥: ٥٤٤ - ٥٩٦.

(٤) هو أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي، ويعرف بابن المرأة. توفي سنة ٧١١هـ / ١٣١١م. كان متقدماً في علم الكلام، حافظاً ذاكرة للحديث والتفسير والفقه والتاريخ، وكان الكلام أغلب عليه.

(ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٣٣٣).

ومن دواوين الشعر أذكر ديوان «الصيّب والجهام والماضي والكهام» لابن الخطيب، وديوان ابن خاتمة الأنصاري، وديوان «جهد المقل» للشريف أبي القاسم الحسيني السبتي. وجمع ابن الخطيب أشعار ابن صفوان في ديوان وقدم صدره خطبة وسماه بـ «الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة»، وذلك عام ٧٤٤هـ/١٣٤٤م^(١). كما جمع القاضي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي^(٢) شعر ابن خميس^(٣) في جزء سماه «الدر النفيس في شعر ابن خميس». ولأبي البركات بن الحاج ديوان «العذب والاجاج من شعر أبي البركات بن الحاج»، ولابن هذيل ديوان «السليمانيات والعزفيات».

وأشير هنا إلى أن قسماً كبيراً من هذه المؤلفات والكتب والدواوين، قد غاله الضياع، وأن القسم الباقي لا يزال أكثره في شكل مخطوطات منتشرة في مكتبات العواصم الأوروبية، بانتظار الكشف عنها وتحقيقها^(٤).

على أن هذا الازدهار الذي أصاب الأدب في العصر النصري الثاني لم يطل الفلسفة ولا الطب ولا الرياضيات وغيرها من العلوم العقلية. فنحن لا نرى في هذا العصر من الأطباء والفلاسفة وأصحاب العلوم الطبيعية والرياضية إلا القليل إلى جانب مئات من رجال الشريعة والفقه والشراح والمفسرين والمصنفين والشعراء والكتاب.

ويؤكد هذا القول ما ورد في «بغية الوعاة...» من أن السيوطي رأى في كتاب أبي حيّان الغرناطي الذي ألفه في ذكر مبدئه واشتغاله وشيوخه ورحلته،

(١) ابن الخطيب والإحاطة...، ١ : ٢٣٦.

(٢) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٥ : ٣٦١.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن خميس التلمساني. قتل بغرناطة مع غدومه ابن الحكيم يوم الفطر سنة ٧٠٨هـ/ أواسط آذار ١٣٠٩م وهو ابن ثيف وستين. كان من فحول الشعراء وأعلام البلغاء، وله مشاركة في العقلیات. قعد لاقراء العربية بحضرة غرناطة، ثم مال إلى التصوّف والتجوال. وله في ذي الوزارتين ابن الحكيم القصائد المدحية الكثيرة.

(المقرئ: «نفع الطيب...»، ٥ : ٣٥٩. والسيوطي: «بغية الوعاة...»، ١ : ٢٠١).

(٤) ليفي - بروفنسال: «محاضرات عامة في أدب الأندلس...»، ص ٣.

والذي سماه بـ «النضار»: «أن مما قوّى عزمه على الرحلة عن غرناطة، أن بعض العلماء بالمنطق والفلسفة والرياضي والطبيعي قال للسلطان: إني كبرت وأخاف أن أموت، فأرى أن ترتب لي طلبه أعلمهم هذه العلوم، لينفعوا السلطان من بعدي. قال أبو حيّان: فأشير إليّ أن أكون من أولئك، ويرتب لي راتب جيد وكسا وإحسان، فتمنعت ورحلت مخافة أن أكره على ذلك»^(١).

ويستفاد من هذا الخبر أن أصحاب العلوم العقلية كانوا قلة بدليل خوف العالم المذكور في الخبر من موته وضياع علمه، وكان الذي يعرفه لا يعرفه أحد غيره.

على أن هذه القلة في أصحاب العلوم العقلية تعود إلى أسباب أذكرها في ما يأتي:

١ - كان الأدب يؤدي دوراً اجتماعياً وسياسياً. فالشعر، مثلاً، كان رائجاً لأن أكثره كان في غرض المديح، وهذا المديح كان أقرب إلى الشعر السياسي الاجتماعي منه إلى المدح المجرد، وإن ظل يحمل، في كل حال، صفة التكسب. فالسلطان بحاجة دائمة إلى أن يكون حكمه مؤيداً من العامة - ويأتي الشعر ليغطي هذه الناحية السياسية - وهو بحاجة، أيضاً، إلى إبراز صفاته ونشر أياديه وتحليلد مفاخره - ويكون للشعر، هنا أيضاً، دور وظيفي لتغطية هذه الناحية الاجتماعية - وهذا الدور الثنائي للشعر، لا يمكن أن تؤديه الفلسفة ولا العلم الرياضي.

٢ - كثرة التآليف واختلاف المصطلحات في التعاليم^(٢)، وتعدد طرقها، كل هذا أبعد الناس عنها «لأن المتعلم يحتاج إلى حفظها كلها أو أكثرها

(١) السيوطي: «بغية الوعاة...»، ١: ٢٨١.

(٢) علم التعاليم هو العلم الرابع من علوم الفلسفة ويشتمل على أربعة علوم: علم الهندسة، علم الهيئة، علم الارتماطقي، علم الموسيقى. (ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٧٨ و ٤٧٩).

ومراعاة طرقها»^(١) وتمييز ما بينها، وفي هذا من العسر الشيء الكثير.

٣- إن سيادة الروح الديني في مملكة غرناطة، جعلت الغرناطيين على استعداد لرفض أي شيء يظنون أنه يمس العقيدة ولو من بعيد. وعلوم الفلسفة^(٢) «ضررها في الدين كثير»^(٣)، وهي تنافي، في رأيهم، ما أتى به الإسلام. لذلك، حين ترجم ابن الأحمر الأديب العالم الفيلسوف يحيى بن هذيل في كتابه: «نثر فرائد الجمان...»، أشاد به وكال له المديح بغير حساب، إلا أنه ذكر أن الأندية غمزت منه وطعنت فيه بما شأنه وذلك «لاستغراقه في العقليات وإطراحه النجاة بالنقليات»^(٤).

٤- وبتأثير ذلك التعلق بالدين، كان للفقهاء المالكيين سلطان واسع في الأندلس، بصورة عامة، وفي مملكة غرناطة، بصورة خاصة. ذلك أن الغرناطيين كانوا يميلون إلى تطبيق الأحكام الشرعية والتزام مبادئها؛ ولما كان الفقهاء أدرى الناس بهذه الأحكام، كان على الغرناطيين احترامهم واحترام آرائهم.

من هنا كان بعض السلاطين يلجأون إلى استرضاء العامة عن طريق استرضاء بعض الفقهاء الذين كانوا يهاجمون، باسم الدين، البدع والمنكرات. وكانت الفلسفة، بخاصة، تعدّ من تلك المنكرات. ولقد عرف تاريخ الأندلس حكايات عن علماء نُكِّلَ بهم وأُحرقت كتبهم لأنهم اتهموا، «دنياً أو كذباً»، بأنهم ضمّنوا مؤلفاتهم شيئاً من الزندقة والإلحاد.

(١) ابن خلدون: «المقدمة» ص ٥٣١. ويقول ابن خلدون أيضاً: «هذا إلى أن تناقص العمران يؤدي إلى تناقص العلوم واضمحلالها إلا قليلاً نجده في تفريق الناس وتحت رقة العلماء». (المقدمة، ص ٤٨١).

(٢) علوم الفلسفة تشتمل على أربعة علوم: علم المنطق، العلم الطبيعي (بما فيه الطب)، العلم الإلهي، والتعاليم. (ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٧٨).

(٣) ابن خلدون: «المقدمة» ص ٥١٤.

(٤) ابن الأحمر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٣٢٢.

ويرغم تعدد الأمثلة التي يمكن استخراجها من تاريخ الأندلس على هذا القول^(١)، فلن أذهب بعيداً وسأكتفي بأن أعطي مثلاً من القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي): ابن الخطيب نفسه. فقد اتهمه القاضي النباهي بأنه سلك في بعض كتاباته سبيل الغيبة المحرمة وأنه دعا إلى البدعة والتلاعب بالشرعية، وأنه أورد كلاماً مقذعاً بعيداً عن الحشمة والحياء، فيه استهزاء وازدراء بالدين، تهمة أدت في النهاية إلى مقتله وإحراق بعض كتبه^(٢).

وقد ذكر القاضي النباهي في «المراقبة العليا..» شيئاً من هذا القبيل، حين تحدث عن الحكم الواجب فرضه من سجن وتحريق وزجر على «من وُجد بخطه شيء من المذاهب الفلسفية المخالفة للشرعية»^(٣).

٥- إن العلوم العقلية والفلسفة بصورة خاصة، يلزمها موطن مستقر، لتزهر في جو من الأمن والطمأنينة الدائمة. ولقد كانت مملكة غرناطة على كف عفريت، كما يقولون، وكان كثير من الغرناطين، ومنهم جملة من العلماء، يتركون بلادهم إلى المغرب، إما استزادة للعلم بأنواعه، إذ كان المغرب، على تعلق ساكنيه بأهداب الدين، أكثر تسامحاً تجاه هذه الأمور ولأنه يحوي مدارس للعلم كثيرة وأساتذة كباراً، وإما طلباً للاستقرار، إذ كان

(١) في فصل بعنوان «الأندلسيون والعلوم والآداب» كتب المقرئ في «نفح الطيب...»، ١: ٢٢١ ما صورته: «كل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لها حظاً عظيماً عند خواصهم، ولا يُتظاهر بها خوف العامة، فإنه كلما قيل «فلان يقرأ الفلسفة» أو «يشتغل بالتنجيم» أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت أنفاسه، فإن زل في شبهة رجوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقريباً لقلوب العامة وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرب المنصور ابن أبي عامر لقلوبهم أول نبوضه وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن، على ما ذكره الحجاري والله أعلم».

(٢) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٥: ١٢٢.

(٣) النباهي: «المراقبة العليا...»، ص ٢٠١.

المغرب، بالطبع، أكثر أمناً، لأنه لم يكن مهدداً بالاحتلال كما كان شأن غرناطة .
ولقد كان ابن الخطيب يشعر بخطر الفناء الذي كان يتهدد الأندلس
الصغرى، لذلك وجّه، في وصيته لأولاده الثلاثة، النصيح بعدم الإسراف في
اقتناء العقار، إذ قال:

«ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير
الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار،
وساعياً لنفسه، ان تغلب العدو على بلده، في الافتضاح والافتقار ومعوقاً عن
الانتقال أمام النوب الثقال..»^(١).

والواقع أن الجملة الأولى من هذا القول تمثل حقيقة الموقف تماماً: بلد
يسعى الاسبان إلى استرداده، بأي ثمن، وساكنوه يسعون، بكل ما أوتوا من
عزم وتصميم، إلى الإبقاء عليه والاحتفاظ به لأنفسهم، هذا البلد كيف
يكون؟ ألا تكون مهاده قلقة؟ ألا يعيش أهله، من أجله، في جهاد دائم؟
وهذا الجهاد، ألا يحمل في طياته معنى الاستشهاد؟ وماذا بعد الموت غير
ملاقة الله عز وجل؟ وكيف يلاقي المسلم ربه من دون زاد؟ وهل زاده إلا
الأعمال الصالحة؟ وإذا لم يكن التقى والعبادة وقراءة القرآن وتفسيره وحفظ
الحديث والعمل به وتدارس الفقه وتعلم الفرائض والحفاظ على اللغة العربية
وقواعدها، رأس هذه الأعمال الصالحة فماذا يكون إذا؟ لا وقت للتفلسف
ولا للعقلنة! الموقف واضح! العدو على الأبواب والدفاع عن النفس وعن
الأرض لا يتردد أمامه عاقل، فليطرح الغرناطيون العلوم العقلية، وليسعوا
إلى تحقيق ما يروونه عملاً صالحاً وزاداً للأخرة «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا
مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»^(٢). وقد «فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً»^(٣).

(١) المقرئ: «فتح الطب...»، ٧: ٤٠٤.

(٢) «الشعراء» ٨٨/٢٦ و ٨٩.

(٣) «النساء» ٩٥/٤.

على أن الكلام على جهاد الغرناطين يفرض الكلام على النزعة الصوفية التي سادت مملكتهم. فلقد كان للحركة الصوفية «دور أساسي وفَعَال في تنشيط الحركة الثقافية الأندلسية وتطويرها بنوياً ووظيفياً»^(١). وبرزت، كوجه غني، في شعر تلك الفترة. فالشعراء كانوا، دائماً، يعبرون عن هذا الغرض في قصائدهم المدحية، ولم يكن شعرهم «مجرد ثرثرة كما اعتقد بعض الباحثين»^(٢) بل كانوا يصورون واقعاً حاصلاً، إذ صوروا ملوك بني نصر رجالاً شجعاناً يدافعون عن الدين ويدودون عنه بجهادهم ليفوزوا برضا الله. وبما أن أهم الحركات الجهادية وأكبرها وقعت في عهد الغني بالله إذ كانت حملاته «قمة ازدهار جهاد حقيقي»^(٣)، في ما بين عامي ٧٦٧ و٧٧١هـ/١٣٦١ - ١٣٧٠م، فلم يكن من الممكن أن يسكت شعراؤه عن التغني بجهاده، وعلى رأس هؤلاء الشعراء كان ابن الخطيب وابن زمرك.

على أن الشعراء لم يكونوا يكتفون بالتغني بجهاد ملوكهم وحسب، بل كانوا يقرنون هذا التغني بتحريض الغرناطين على الوقوف صفاً واحداً لمقاومة الاسبان، وكان يشاركهم في هذا، بل قل كان يسبقهم إلى هذا ويتفوق عليهم فيه، الفقهاء والعلماء وخاصة المتصوفة الذين كانوا يخرجون مع اتباعهم للمشاركة في الجهاد لتأكيد القول بالفعل وربط دور الواعظ المحرض بدور المجاهد الحريص على الشهادة. ومن أشهر هؤلاء المتصوفة ابن الزيات الكلاعي وأحمد بن صفوان ومحمد بن صفوان^(٤) والزيات الأموي^(٥).

(١) «عالم الفكر»، العدد الأول من المجلد ١٢، سنة ١٩٨١، ص ١٧١.

(٢) نفسه، ص ١٨٥.

(٣) غرسيا - غومس: «مع شعراء الأندلس...»، ص ١٨٧.

(٤) هو أبو طاهر محمد بن أحمد بن حسين بن صفوان القيسي، توفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، كان الناس يقصدونه للتبرك به. وقد أُلّف للسلطان أبي الحجاج يوسف الأول كتاباً في التصوف والكلام على اصطلاح الصوفية.

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامة...»، ص ٨٤).

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن عيسى الأموي ويعرف بالزيات، توفي في ٢٢ جمادى الثانية ٧٦٥هـ/٢٨ آذار ١٣٦٤م، وقد شارب الاكتهال. وهو «من أهل الخير والصلاح والاتباع، =

لا بدّ، بعد هذه الإشارة السريعة إلى الجهاد والتصوف في غرناطة، من الإشارة إلى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، هذا الاحتفال الذي كان في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) رسماً يقيمه سلاطين غرناطة في كل عام. «وكان يحتفل في الصنيع فيها والدعوة، وإنشاد الشعراء اقتداء بملوك المغرب» كما ذكر ابن خلدون في «التعريف...»^(١).

وقد تحدث ابن الخطيب، أيضاً، عن هذه المناسبة الكريمة، فوصف اجتماع الناس ليلة المولد النبوي في الايوان (بهو السباع؟)، وجلوس السلطان في صدر البهو^(٢). ثم أورد قصيدته بهذه المناسبة وقصائد ابن زمرك وابن خلدون وغيرهما ممن شهدوا الاحتفال وشاركوا فيه بإنشاد قصائدهم. ومن هنا شاع فن المولديات وازدهر، وكان ابن زمرك من أكبر أصحاب هذا الفن، كما سنرى. قلت، قبل قليل^(٣)، إن أصحاب العلوم العقلية كانوا قلة، وأوضحت أسباب هذه القلة. بقي أن أسرد أسماء هؤلاء العلماء فأذكر أنه في علم الهيئة عُرف الحِبَالِي^(٤)، وأحمد بن بَاصَة^(٥)، وحسن بن بَاصَة^(٦).

= مفتوح عليه في طريق الله، عارف بطرق الصوفية... متوغل بالكلف بالجهاد، مرتبط للخليل، مبادر للهيعة، حريص على الشهادة، بركة من بركات الله في الأندلس يعز وجود مثله». (ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٢٩٥).

(١) ص ٨٩.

(٢) وذلك في ١٢ ربيع الأول ٧٦٤هـ/ ٣٠ كانون الأول ١٣٦٢م.

(٣) تراجع الصفحة ٧٢ من هذه الدراسة.

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري، ويعرف بالحِبَالِي (؟-؟). كان على قيد الحياة حين ألف ابن الخطيب «الإحاطة...». له بصر بصناعة التعديل وجداول الأبراج، تدرب في أحكام النجوم، وقرأ الطب على أبي زكريا ابن هذيل، وكان مقصوداً في العلاج بالرقى والعزائم.

(ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٢١٢).

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن حسن بن باصة الأسلمي، توفي سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م. كان مؤقت المسجد الأعظم بغرناطة، وكان نسيج وحده معرفة بالهيئة واحكاماً للآلة الفلكية... وقد أخذ ذلك عن والده شيخ الجماعة في هذا الفن.

(ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٢١١).

(٦) هو أبو علي حسن بن محمد بن باصة ويعرف بالصلعلل، رئيس المؤقتين بالمسجد الأعظم من =

وفي علم الكيمياء (أو علم الصنعة)، ذكر ابن الخطيب أنه قد نشأت بين أبي جعفر بن صفوان وابن شعيب الكرياني صداقة أوجبها القدر المشترك من الولوع بالصنعة المرموزة. وكان ابن شعيب هذا، عالماً في الكيمياء، أتى من المغرب ودخل غرناطة، على عهد يوسف الأول، وحقق بها تغيير أمر الأدوية المنفردة.

أما في الطب فقد اشتهر ابن هُذَيْل والشَّقُورِي^(١) وابن الخطيب^(٢) وابن زَرْزَر^(٣)، وابن حسن القيسي^(٤) وابن الصائغ اليهودي^(٥)، وابن = غرناطة، توفي سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م. كان فقيهاً إماماً في علم الحساب والهيئة، ماهراً في التعديل، وله مستنبطات ومستدركات وتوالمف.

(ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٤٧٦).

(١) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله اللخمي الشقوري (٧٢٧-١٣٢٧هـ/؟-١٣٢٧هـ). تلقى علم الطب على أستاذه ابن هذيل. كما أخذ هذا العلم عن الشيخ حيدان الذي لا نعرف عنه شيئاً، وعن جده الصحيح الطبيب غالب الشقوري وعن العالم الوزير خالد بن خالد. ومن تأليفه: «المجربات» وكتاب «تحفة المتوسل وراحة المتأمل» في الكلام على الزحار الزكامي والمرض الاسهالي. وله أيضاً كتاب «الجهاد الأكبر». (يراجع بحث الدكتور رينو Renaud بعنوان «محمد الشقوري: طبيب مملكة غرناطة»، في مجلة «إيسيريس»، مجلد ٢٣، سنة ١٩٤٦، ص ٣١-٦٤).

(٢) ألّف عدة كتب ورسائل طبية أهمها: «عمل من طب لمن حب» وهو كتاب ضخّم يذكر فيه أنواع الأمراض وأسباب كل منها وأعراضه وعلاجه. وله أرجوزة في الطب ورسالة في «تكوين الجنين» ورسالة «الوصول لحفظ الصحة في الفصول»... (عنان، محمد عبد الله: «لسان الدين بن الخطيب...»، ص ٢٧٥).

(٣) هو إبراهيم بن زرزور، الطبيب الغرناطي اليهودي الذي كان ماهراً في العلوم الفلكية. قرّ من غرناطة، اثر فرار محمد الخامس منها، والتحق ببلاط قشتالة بأشبيلية، وخدم ملكها اذفونش بصفة طبيب ومنجم.

(ابن خلدون: «التعريف بابن خلدون...»، ص ٤١٣. وابن الخطيب: «نفاسة الجراب...»، ص ١٩).

(٤) هو أبو علي حسن بن محمد بن حسن القيسي ويعرف بالقلنار، وهو من أهل مالقة، (؟-؟). وكان بقية شيوخ الأطباء ببلده، حافظاً للمسائل الطبية، ذاكراً للدواء، فسيح التجربة، طويل المزاولة، متصرفاً في الأمور التي ترجع إلى صناعة اليدّين صيدلة واختراعاً. أخذ صناعة الطب عن أبي الحسن الأركشي، ومعرفة أعيان النبات عن المصحفي، وارتاد منابت العشب في صحبته... وحاول عمل الترياق الفارق بالديار السلطانية عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م، مبرزاً في اختيار أجزائه وأحكام تركيبه. (ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٤٧٥).

(٥) هو يحيى بن الصائغ اليهودي، كان طبيب يوسف الثاني، وحين نمي إليه أنه يحاول اغتياله =

المهنا^(١) والطيبان أبو عبد الله بن سالم^(٢) وأبو عبد الله بن سراج^(٣) اللذان أخذوا الطب عن أحمد ابن محمد الكرنى، شيخ الأطباء بغرناطة على عهده، وكان حياً سنة تسعين وستمائة^(٤).

ولقد كان لابن هذيل مشاركة في المنطق والهندسة والفلسفة، كما شارك ابن عبد النور وابن منظور في المنطق...

وهكذا نرى أن الأدب كان يطغى على العلم في مملكة غرناطة، وأن أكثر متأديبيها كانوا يقرضون الشعر. ولقد كان الشعراء ينظمون مدائحهم مقابل صلات وهبات من الأمراء. وكانت هذه المدائح ضرورة لازمة ودوافعها النفسية واضحة. فقد كان للشعر، عند العرب، قيمة سياسية واجتماعية كبيرة، ظل يحتفظ بها على مر العصور. وهكذا أظهرت غرناطة حيوية أدبية احتفظت بها إلى النهاية، وظل قصر الحمراء مركزاً رئيساً ومهماً للمطارحات الشعرية والإنشادات المدحية في المناسبات والأعياد.

على أنه لم يبق من هذا الشعر إلا ما نقله أصحاب كتب المختارات، معتمدين في هذا النقل، على أذواقهم الأدبية وآرائهم النقدية الخاصة بهم. ولذلك كان أكثر ما وصل إلينا عبارة عن مقطوعات مجتزأة من القصائد الطوال. وتتفاوت قيمة هذه المختارات بتفاوت أذواق المصنفين وآرائهم. ومن هنا يظهر جلياً أن «ما بين أيدينا من أدب الأقدمين لا يعود الفضل في وصوله إلينا، إلى قيمته الأدبية وحسب، بل إلى أذواق أولئك الذين احتفظوا لنا بهذا الأدب ونقلوه إلينا»^(٥).

= بالسّم حبسه ثم قتله.

(عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١١٣).

(١) هو طبيب عالم من تلامذة لسان الدين، نقل عنه كثيراً واعتمد عليه في أمور الطب. له شرح ألفية ابن سينا في الطب وهو من الكتب المشهورة بالغرب.

(المقري: «نفح الطيب...»، ٧: ٢٨١).

(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٢١٣.

(٣)

وبانتهاء الحديث عن أحوال المملكة النصرية، العمرانية والسياسية والفكرية، في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، يحسن البدء بالكلام على ابن زمرك، وبالتحديد، على سيرته.

الباب الثاني

سيرة ابن زُمَرَكَ (*)

اسمه وكنيته ولقبه :

هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف... الصريحى^(١)، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن زُمَرَكَ^(٢). ولقد ورد هذا اللقب في المراجع مرة بفتح الزاي والراء، ومرة أخرى بضمهما، ومرة ثالثة بفتح الزاي والميم وتسكين الراء. وهذا الاختلاف في كيفية الضبط يعود إلى أن

(*) تَرَجَّمَتِ المصادر التالية: ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٢١ و«الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٨٢. وابن الأحرر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٣٢٧. والتنبكتي: «نيل الابتهاج...»، ص ٢٨٢. والعسقلاني: «الدرر الكامنة...»، ص ٣١٢. والمقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ٧-٢٠٦ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٦٥. وله ترجمة أيضاً في كثير من المراجع منها: بروكلمان: «تاريخ الأدب العربي»، ٢: ٣٧٠. و«دائرة المعارف الإسلامية»، ٣: ٩٧٢. والزركلي: «الأعلام»، ص ٢٩. وعنان: «نهاية الأندلس...»، ص ٤٨٢. وزعم غرسيا - غومس أن له ترجمة في «بغية الوعاة...» نقلاً عن بلاشير مع أنه لم يذكر فيه البتة: «مع شعراء الأندلس...»، ص ١٩٠.

(١) وردت في «الدرر الكامنة...»، ص ٣١٢: الصرنجي، وهو تصحيف ظاهر. كما وردت في «الشعر الأندلسي» لغرسيا - غومس، ص ٧٢: الشريحي وهو خطأ واضح وقع فيه المَرَب. (٢) ورد هذا اللقب بالحرف اللاتيني بأشكال كثيرة مختلفة: Zamrak في مجلة «الأندلس»، مجلد ٢٤، ص ٤٠٦ ومجلد ٣٥، ص ٤٥٣ ومجلد ٤١، ص ٢٠٧ ومجلد ٤٢، ص ٤٤٧. وZumruk في مجلة «إيسيريس»، مجلد ٤٣، ص ٣٥٤. وفي دراسة بلاشير عنه في «A.I.E.O.»، مجلد ٢ سنة ١٩٣٦، ص ٢٩١. وZemrek في «J.A.»، مجلد ١٢، سنة ١٨٩٨، ص ٤٤٤ وSemrek في «J.A.»، مجلد ١٣، سنة ١٨٤٢، ص ٣٦٣. وZemrec في «I.A.G.»، ص ٦١.

أحداً من أصحاب المصادر الذين ترجموه لم يوضح هذه الكيفية.

وعلى الرغم من هذا، فلعلني استطعت أن أصل إلى تحديد هذا اللقب بشكله الصحيح، على وجهي الجزم والترجيح. فأما الجزم فيتناول تشكيل حرفي الميم والراء. فالأول ساكن بالضرورة، والثاني يجب أن يكون مفتوحاً. والبرهان الخامس على هذا، نجده في عنوان كتاب جمع فيه السلطان ابن الأحمر أشعار ابن زمرك وسماه: «البقية والمذكر من شعر ابن زُمَرَكَ»، تبعاً للقاعدة المتبعة من قبل مؤلفي ذلك العصر في تسجيح العناوين. ويلاحظ في العنوان المذكور أن السجعة تستوجب تسكين الميم وفتح الراء. وأما الترجيح فيتعلق بتشكيل حرف الزاي. وأنا أرجح أن يكون هذا الحرف مضموماً، ترجيحاً قريباً من الجزم، مع الاعتراف بأن ضبطه بالفتح لا يُخلّ بالسجع الوارد في العنوان. وهذا الترجيح القوي، ينبع بكل بساطة، من استقراء عناوين المؤلفات في ذلك العصر. ذلك أن من يقرأ هذه العناوين، لا بد أن يلاحظ أن السجع في معظمها تام^(١). ولما كانت الميم في «مذكر» مضمومة، رجح، في رأبي، أن تكون الزاي في زُمَرَكَ مضمومة أيضاً. فبضبطها هكذا يأتي السجع في العنوان المذكور أكمل وأتم، انسجاماً مع عادة التسجيح التام المتبعة آنذاك.

نسبه:

أما نسبه فمن الأنساب الأصيلة، ذلك أن ابن الخطيب، حين تحدث

(١) لعلني أستطيع أن أسرد هنا عشرات من هذه العناوين غير أني أكتفي بذكر بعضها:

البرّهان في سور القرآن لابن الزبير

لذات السمع من القراءات السبع لابن الزيات الكلاعي

السلوك في شيم الملوك لابن الزيات الكلاعي

تنعيم الأشباح بمحادثة الأزواج لابن الحاج النميري

كناسة الدكان بعد انتقال السكان لابن الخطيب

مقنعة السائل عن المرض الهائل لابن الخطيب...

(يراجع فهرست الكتب في كتاب ابن الخطيب والإحاطة...، ١: ٥٩٣ وفهرست الكتب في =

عن سكان غرناطة ذكر أن أنسابهم «يكثر فيها القرشي والفهري والأموي.. والأوسي والخزجي.. والصريحي...»، وكفى بهذا شاهداً على الأصالة ودليلاً على العروبية»^(١).

وهذا ينفي ما ذكره غرسيا - غومس^(٢)، وما أورده بلاشير^(٣)، وما أتت به دائرة المعارف الإسلامية^(٤)، من أن نسب شاعرنا وضع الأصل! ولا أدري كيف توصلوا إلى هذا الزعم، فهم إما أن يكونوا قد اعتمدوا على التخمين، والتخمين لا يغني عن الحق شيئاً، وإما أن يكونوا قد أخذوا بأقوال علي بن لسان الدين المسجلة على هامش كتاب «الإحاطة..»^(٥)، وهي أقوال لا يمكن الأخذ بها لأنها صادرة عن رجل حاقّد حائق، هم الأوحد التجريح والطنن. وقد نبه غرسيا - غومس نفسه إلى أن رواية عليّ هذا «يجب أن نأخذها بحذر شديد»^(٦).

وإذا كان يستدل على الوضاعة بالفقر فلا شيء يدلنا في المصادر على أن ابن زمرك كان «ينحدر من أسرة فقيرة»^(٧)، إلّا إذا عدّ ربض البيازين من الأحياء التي يسكنها الفقراء، لكونه حياً شعبياً كبيراً، وهذا ليس صحيحاً. وعلى فرض أن ابن زمرك كان، بالفعل، منحدرًا من أسرة فقيرة، فلماذا يكون فقر هذه الأسرة دليلاً على وضاعة أصلها بالضرورة؟ ومن قال أن أصالة النسب والفقر لا يجتمعان؟؟. وعلى كل حال، لن أقف طويلاً عند هذا الأمر وأرى أن شهادة ابن الخطيب بأن النسب الصريحي من الأنساب العربية الأصيلة، كافية وحاسمة للإشكال.

= كتاب المقرئ: «نفع الطيب...»، ٨: ٤٧٠.

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ١٤١.

(٢) «مع شعراء الأندلس...»، ص ١٩٠ - ١٩٢.

(٣) «A.I.E.O.» مجلد ٢، سنة ١٩٣٦، ص ٢٩٢.

(٤) المجلد الثالث، ص ٩٧٢.

(٥) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٦: ٧٧ و ٧٨، و ٧: ١٦٠ - ١٦٢.

مولده:

ولد ابن زمرك في الرابع عشر من شهر شوال عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة هجري (في الثامن والعشرين من شهر حزيران عام ١٣٣٣ ميلادي)، في ربض البيازين بغرناطة. ولا نعرف عنه شيئاً سوى أن أصله من شرقي الأندلس ثم جاء سلفه غرناطة وسكن البيازين. وإذا كان أبو الحسن علي ابن لسان الدين يذكر بأن والده حداد وأنه ضربه حتى الموت، فلا يمكن التعويل على هذا القول، ولا الوثوق به لأنه صادر، كما قلت، عن رجل غاضب راغب في التهجم على من تسبب في قتل والده ابن الخطيب وحريص على إلصاق أبشع التهم به.

دراسته وشيوخه:

نشأ ابن زمرك، منذ صغره، محباً للعلم طالباً له، فدأب على القراءة، وأخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس، وعكف على تثقيف نفسه. ومع أن المصادر لا تذكر شيئاً عن مكان دراسته وزمانها، فبالإمكان أن نتصور هذه الكيفية، ذلك أنه لا بد أن يكون قد بدأ دراسته، كما كان يبدأ كل الفتيان عصرئذ، بتعلم القرآن قراءة وحفظاً، وفهم أحكام الوضوء والصلاة، وتعلم الشكل والهجاء والخط. إذ كان مذهب أهل الأندلس «تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم الولدان رواية الشعر والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب... إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبوبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة»^(١).

ولا شك في أن جامع غرناطة كان يقوم، بالنسبة إلى طلاب العلم،

(١) ابن خلدون: «المقدمة»، ص ٥٣٨.

بدور المدرسة حين خلت غرناطة من المدارس. وهو قد ظل يقوم بهذا الدور حتى بعد إنشاء المدرسة اليوسفية سنة ١٣٤٩هـ/١٧٥٠م. في هذا العام كان شاعرنا قد دخل في السابعة عشرة من عمره، فلا بد أن يكون قد التحق بها ودرس فيها على أيدي كبار الأساتذة. ومن هنا يسهل تعداد شيوخه وتبيين أنواع العلوم التي أخذها عليهم، ذلك أن ابن الخطيب، ومن بعده يوسف الثالث ابن الأحمر ذكر أسماء معلميه. فعرفنا منها أن ابن زمرك تتلمذ في علوم العربية، وبخاصة النحو والبلاغة، على أستاذين شهيرين في ذلك الوقت هما أبو عبد الله بن الفخار وقاضي الجماعة أبو القاسم الشريف الحسيني. وأنه أجدد الفقه على الأستاذ المفتي أبي سعيد بن لب، ومن بعده على أبي عبد الله المقرئ^(١) (جدّ مؤلف «نفح الطيب»)، كما قرأ الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزواوي، ودرس مناهج الصوفية وحذق الخطبة على يد الخطيب الفقيه أبي عبد الله بن مرزوق الذي وفد إلى غرناطة في عهد السلطان أبي الحجاج. ثم حصلت له الإجازة والتحديث بقاضي الجماعة أبي البركات بن الحاج البلّفيقي وبالخطيب البليغ الشاعر أبي عبد الله اللّوشي وبالخطيب الورع ابن بيش العبدري. وانصوى فترة إلى شيخ الفرق الصوفية أبي جعفر ابن الزيات وأخيه الزاهد الفاضل أبي مهدي. ودرس الأدب على إمام عصره في الشعر والنثر المؤرخ الطيب الأديب لسان الدين بن الخطيب. ثم «أعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد»^(٢) إلى فاس، كعادة كثير من الطلاب في ذلك الوقت، إذ إن «الرحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد

(١) هو محمد بن محمد بن أحمد... القرشي المقرئ، قاضي الجماعة بفاس، ومن أكابر شيوخ ابن الخطيب. وصفه صاحب «نيل الابتهاج...» بأنه الإمام العلامة النظار المحقق القدوة... أحد فحول أكابر علماء المذهب، وذكره ابن فرحون في «الديباج...». تأليفه كثيرة منها: «القواعد» و«الطرف والتحف» و«المحاضرات» و«الحقائق والرقائق». توفي في ٢٩ جمادى الأولى ٧٥٩هـ/٩ أيار ١٣٥٨م. (المقرئ: «نفح الطيب...»، ٥: ٢٠٣).

(٢) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٧: ١٤٦.

والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»^(١). وفي فاس روى عن المحدث أبي الحسين بن التلمساني^(٢) وقرأ بعض الفنون العقلية على الشريف أبي عبد الله العلوي التلمساني^(٣)، عالم عصره وقدوة زمانه و«اختص به اختصاصاً لم يخل فيه من استفادة مران وحنكة في الصنعة»^(٤).

وهكذا أحسن ابن زمرك الاصغاء فأحسن الدراسة. وعاد إلى غرناطة و«نصب نفسه للناس متكلياً فوق الكرسي المنصوب، وفوق المحفل المجموع، مستظهراً بالفنون التي بعد فيها شأوه من العربية والبيان واللغة، وما يقذف به في لجج النقل من الأخبار والتفسير»^(٥). وكان قد عانى الأدب واستطاع أن يبلغ فيه شأواً بعيداً وأن يعالج كثيراً من فنونه، شعراً ونثراً.

مناصبه:

لم ينفرد ابن زمرك بالتدريس طويلاً، إذ سرعان ما قدمه ابن مرزوق إلى أبي سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن، اللائد وقتئذ بغرناطة، فتقلد منصب الكتابة عنه.

وحين توفي أبو الحجاج يوسف سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، جاء بعده ابنه السلطان محمد الخامس الذي عزز مركز ابن الخطيب وأبقاه وزيراً لديه. فما كان من هذا الأخير إلا أن ألحق تلميذه ابن زمرك بإدارة الدولة لما رأى فيه من نجابة وفطنة، وجعله في عداد الكتاب. وهكذا لازم ابن زمرك عهد

(١) ابن خلدون: «المقدمة»، ص ٥٤١.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

(٣) هو الشريف الإمام العالم العلامة المحقق أبو عبد الله التلمساني الحسني صاحب «المفتاح في أصول الفقه» وشارح «الجمال الخونجية» والمتوفى عام ٧٧٢هـ/١٣٧٠ - ١٣٧١م، دفن المدرسة اليعقوبية في تلمسان.

(المقري: «نفح الطيب»، ٥: ٢٧٢).

(٤) نفسه، ٧: ١٤٧.

(٥) نفسه، ٧: ١٤٦.

الغني بالله منذ بدته. ويؤكد هذا ما ذكره السلطان ابن الأحمر من أنه وجد رقعة من رقاع ابن زمرك يقول فيها: «خدمته سبعاً وثلاثين سنة»: «ثلاثاً بالمغرب وباقيها بالأندلس...»^(١)، فإذا عرفنا أن الغني بالله قد توفي سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م، وأنه قام بأمر المملكة مدة سبع وثلاثين سنة وبضعة أشهر، أدركنا بالتالي صحة قول ابن زمرك.

ثم لما كانت حادثة استيلاء إسماعيل أخي محمد الخامس على السلطة في غرناطة، عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م، ولجوء الغني بالله مع وزيره ابن الخطيب إلى فاس، بفضل وساطة سلطان المغرب عامذاك أبي سالم إبراهيم^(٢)، لم يكن أمراً طبيعياً أن يبقى ابن زمرك في غرناطة، وقد هاجر منها كثير من القادة والأمراء والعلماء والكتّاب^(٣)، فلحق بسلطانه وأستاذه إلى فاس. واتصل هناك مجدداً بمخدومه السابق السلطان أبي سالم وبأستاذه الكبير ابن مرزوق الذي توجه بالعمامة، فارتحل بين يديه فيها.

تَوَجَّتَنِي بِعِمَامَةٍ تَوَجَّتَ تَاجَ الْكَرَامَةِ
فَرَوْضَ حَمْدِكَ يُزْهِى مِنِّي بِسَجْعِ الْحَمَامَةِ^(٤)

ولئن كان ابن الخطيب قد ترك فاس ليطوف في مدن المغرب وقراه، ويستقر أخيراً في سلا، فكل الدلائل تشير إلى أن ابن زمرك لم يترك سلطانه بل كان على اتصال دائم به، الأمر الذي جعل الغني بالله يكلف به ويأنس إليه «لحلاوة منطوق ورفع استيحاش ومراوضة خلق»^(٤). وحين انصرف محمد الخامس إلى الأندلس صبيحة يوم السبت ١٧ شوال سنة ٧٦٢هـ/١٩ آب

(١) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ١٦٧.

(٢) نفسه، ٥: ٨٥.

(٣) ابن الخطيب: «نفاضة الجراب...»، ص ١٩.

(٤) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ١٦٦.

١٣٦١م، ثم استقل برندة وجهاتها^(١)، كان ابن زمرك ممن رافقوه إلى رنده، حيث قام له فيها برسم الكتابة مع الفقيه أبي الحسن النباهي الذي أصبح، في ما بعد، قاضي الجماعة بغرناطة^(٢).

وما أن استتب الأمر للغني بالله واستطاع أن يستردّ، في سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م، سلطته المسلوقة منه، حتى استدعى ابن الخطيب من المغرب وأصدر ظهيراً بتعيينه وزيره الأول وساعده الأيمن^(٣). ثم ما لبث أن أصدر ظهيراً آخر بتعيين ابن زمرك كاتب سره، وكان هذا الظهير من إنشاء ابن الخطيب نفسه، وفيه يقول على لسان سلطانه:

«هذا نظير كريم نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعه... وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على من دون رتبته من أولي صناعته أن يتبعه... ونقله من كرسي التدريس والتعليم، إلى مرقى التنويه والتكريم، والرتبة التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وجعل أقلامه جياداً لاجالة أمره العلي، وخطابه السني، في ميدان الأقاليم، ووضع في يده أمانة القلم الأعلى، جاريّاً من الطريقة المثلّى على المنهج القويم، واختصه بمزية الشفوف على كتاب بابه والتقديم، لما كان ناهض الفكر في طلبة حضرته زمن البداية. ولم تزل تظهر عليه لأولي التمييز مخايل هذه العناية، فإن حضر في حلق العلم جلّى في حلبة الحفاظ إلى الغاية، وإن نظم أو نثر أتى بالقصائد المصقولة، والمخاطبات المنقولة، فاشتدّ في بلده وغير بلده، وصارت أزمة العناية طوع يده... ناطقاً عن مقامه بالمخاطبات العجيبة، واصلّاً إلى المعاني البعيدة بالعبارة القريبة... وقدمه، أعلى الله قدمه، كاتب السر، وأمين النهي والأمر... وتيمّن

(١) المقرئ: «نفع الطيب»، ٧: ١٤٦. وابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ١١٣.

(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ١١٤.

(٣) هذا الظهير مؤرخ في ٢ رمضان سنة ٧٦٣هـ/٢٥ حزيران ١٣٦٢م.

(عنان، محمد عبد الله: «لسان الدين بن الخطيب...»، ص ٢٩٤-٢٩٦).

باستخدامه قبل الحلول بدار الملك والاستقرار، وغير ذلك من موجبات الإكبار... فليتول ذلك عارفاً بمقداره، مقتنياً لآثاره، مستعيناً بالكتم لأسراره... معطياً هذا الرسم حقه من الرياسة، عارفاً بأنه أكبر أركان السياسة... وكتب في كذا»^(١).

وهكذا دخل ابن زمرك في سلك رجال الحاشية الأقوياء، وراح يتابع نشاطه ككاتب للسر وكشاعر للبلاط لا يفتأ ينشد سلطانه في المناسبات قصائد المدح إظهاراً لامتنانه وإخلاصه.

ويأتي العام ٧٧٣هـ/١٣٧١م وهو يحمل في طياته خبراً مثيراً: الوزير ابن الخطيب يفر إلى المغرب ويلتحق بالسلطان المريني عبد العزيز. وسبب هذا الفرار هو أن ابن الخطيب أحس بالوشايات تفعل فعلها في نفس سلطانه وتجد لديه سمعاً وقبولاً، وأدرك أنها ستؤتي أكلها ولو بعد حين، وأنه لا بدّ فاقد عطف مليكه، فأضمر في نفسه الفرار، واستأذن الغني بالله لتفقد الثغور، ثم أسرع بالإبحار من جبل طارق إلى سبته، تاركاً لسلطانه رسالة طويلة يعتذر فيها عن رحيله^(٢). وكان الغني بالله، بفضل سعاية الواشين، قد أخذ يشك، بالفعل، في تصرفات وزيره، فلما هرب هذا الأخير، تأكدت شكوكه وجعل همه مطاردة وزيره الهارب، فأرسل بطلبه من سلطان المغرب غير مرة، ولكن طلبه لم يُلبّ. حتى إذا تغير السلطان وجاء إلى الحكم أبو العباس أحمد ابن أبي سالم بفضل تدخل الغني بالله لمصلحته وبشرط القبض على ابن الخطيب، تم القبض عليه. فأرسل ابن زمرك في المهمة الصعبة إلى المغرب، حيث قام بسفارته على أتم وجه، ووصل إلى ما أراده مليكه من قتل ابن الخطيب. وكان ابن خلدون، حين أجاز إلى الأندلس في ربيع سنة

(١) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٥ : ١٣٤ و ١٣٥.

(٢) عنان، محمد عبد الله، «لسان الدين بن الخطيب...»، ص ١٣٤.

٧٦٦هـ/١٣٧٤م، قد لقي ابن زمرك ذاهباً إلى فاس في غرض «التهنئة»!!^(١).

وهذا الموضوع أكدته المصادر جميعها، وإن اختلفت في نظرتها إلى فعل ابن زمرك، ولكن واحداً من أصحاب هذه المصادر لم يحاول أن يعلل هذا الفعل. وأنا لا أشك في أنه كانت لابن زمرك يد في محنة ابن الخطيب، إلّا أنني سرعان ما أتساءل: كيف استطاع ابن زمرك أن يكون ضالعاً في قتل من كان أستاذه، وولي أمره ونعمته، وعمدوحي الذي نظم فيه قصائد عدة يمكن أن تستشف منها عاطفة قريبة من الصدق تجاهه؟ وما الذي أفسد هذه الصداقة؟.

الإجابة الشافية عن هذا كله، تتضح بعد كشف أسباب ثلاثة:

١- كان العصر النصري عصر صراعات مستمرة متوالية. ولئن كان شيئاً طبيعياً أن يثور الابن على أبيه والأخ ضد أخيه طلباً للسلطة الأولى في البلاد، فأحرّ بأن تقوم المنازعات للاستئثار بالسلطة الثانية (الوزارة).

٢- لم يكن من الممكن أن يقف ابن زمرك إلى جانب أستاذه ضد سلطانه، حتى ولو من قبيل الوفاء للذي علّمه ورفّعه، لأنه يعلم مسبقاً أنه إذا فعل هذا، فسيناله غضب الملك، وأنه إن وافق مليكه على شعوره تجاه وزيره الفار فاز بالوزارة التي كان يطمح إليها وأصبح اليد اليمنى للسلطان. وهذا ما حصل تماماً.

٣- فإذا سردنا، إضافة إلى هذين السببين، قصة صغيرة حدثت بين ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك حصلنا على السبب الثالث. وهذه القصة قد يقرأها الدارس ولا يكاد يعلق عليها أهمية أو ينتبه إلى مغزاها. وموجزها أن ابن زمرك دخل، ذات يوم، على ابن الخطيب «يستأذنه في جملة

(١) ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٤٤٤.

مسائل مما يتوقف عادة على اذن الوزير، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد الله بن زمرك. قال الشريف: فأَمْضَاهَا كُلَّهَا لَهُ، مَا عَدَا وَاحِدَةً مِنْهَا تَضَمَّنَتْ نَقْضَ عَادَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، فَقَالَ لَهُ ذُو الْوَزَارَتَيْنِ ابْنُ الْخَطِيبِ: لَا، وَاللَّهِ، يَا رَئِيسَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، لَا آذَنُ فِي هَذَا، لَأَنَا مَا اسْتَقَمْنَا فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَّا بِحِفْظِ الْعَوَائِدِ^(١).

من هنا، أقدر أنه نشأت في صدر ابن زمرك ضغينة ظلَّ يحملها له حتى تحولت، في النهاية، إلى سعاية في قتله.

هي أسباب ثلاثة، إذًا، كلٌّ منها كان كافياً لأن توجه تصرفات ابن زمرك الوجهة المعروفة: الطموح الشخصي، ومسايرة الملك، والحقْد. ولم يكتفِ ابن زمرك بهذا بل عرَّضَ بأستاذه في بعض قصائده التي مدح بها الغني بالله^(٢).

على أننا، إذا كنا نقدر ابن الخطيب شاعراً و كاتباً وعالماً، لا نقبل أن نسيغ عليه معالم القداسة، وننزله عن الوقوع في بعض الأخطاء ذلك أن على الدارس ألاَّ يطمئن إلى ما يقوله بعض الناس، بل إلى ما تفرضه الوقائع والأحداث. والواقع أن ابن الخطيب لم يكن ذلك الرجل الخالي من العيوب، فقد رأيناه يحب السلطة ويرغب أن يستأثر بها وهو مستعد أن يحارب من يحاول استخلاصها منه أو مشاركته فيها. ولا أدل على هذا مما حصل بينه وبين ابن خلدون، حين جاء هذا الأخير إلى غرناطة سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م، فاستعمله السلطان محمد الخامس لسفارة بلاده لدى صاحب قشتالة بطره القاسي. فلما نجح في سفارته حظي عند السلطان إلاَّ أنه شَمَّ من ابن الخطيب رائحة الانقباض وأحس بتغير قلبه فرحل عن غرناطة^(٣).

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ١: ٥٩ و ٦٠. و«فتح الطيب...»، ٦: ١٤٧.

(٢) المقرئ: «فتح الطيب...»، ٥: ٥٠ و ١٦٩-١٧٢.

(٣) ابن خلدون: «التعريف...»، ص ٩٦.

ثم إن ابن الخطيب كان قد استأثر، بفضل سلطته، بأموال وعقارات كثيرة. وهناك أقوال تنسب إليه تحريضه سلطان المغرب عبد العزيز على ملك غرناطة^(١). وفي كتاب «لسان الدين بن الخطيب - حياته وتراثه الفكري» لمحمد عبد الله عنان، نجد هذا الأخير يسوق ما أمكنه من الأقوال والأدلة^(٢) ليبرهن على عظم شخصية ابن الخطيب ولكنه لا يلبث أن يقف قليلاً ليستعرض، في ثلاث صفحات من كتابه، «بعض الخصائص البارزة» في خلقه، بل بعض «وجوه الضعف الإنساني التي كانت تتاب هذه الشخصية العظيمة...»، فيذكر أن ابن الخطيب كان «رجلاً كثير الملق»، شغوفاً «باقتناء المال وحب الأبهة والترف»، يتصف «بالكبرياء والاعتداد بالنفس إلى حد الغرور»، ويميل «إلى الاستبداد والسلطان المطلق». هذا إلى ما «تضطرم به نفسه من بالغ الحقد والضعينة على أولئك الخصوم» الذين كانوا بالأمس من أصدقائه.

ومهما يكن من أمر فإن الثابت أن ابن زمرك، حين فرّ ابن الخطيب، حل محله في الوزارة. ثم قام بسفارته إلى المغرب وطلب من السلطان أبي العباس، الذي نفذ وعده باعتقال ابن الخطيب، أن يحاكمه: فجرت جلسة محاكمته على عجل وحكم عليه بالقتل بسبب ما نسب إليه، على زعمهم، من زندقة وإلحاد مبثوثن في بعض كتبه. ثم دخل رجال من حاشية ابن زمرك إلى محبسه فقتلوه خنقاً^(٣).

وعاد ابن زمرك إلى غرناطة بعد «نجاح» سفارته، وخلا له الجو، وأصبح الرجل الثاني في المملكة.

وفي الفترة الفاصلة بين سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م^(٤) وسنة

(١) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٥ : ١٠٤ و ١٠٥.

(٢) الصفحات ١٧١ - ١٧٣.

(٣) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٥ : ١١١.

(٤) وهي سنة مصرع ابن الخطيب وتولي ابن زمرك الوزارة.

١٣٩١هـ/١٣٩١م^(١)، لا تذكر المصادر شيئاً ذا بال عن ابن زمرك، وجل ما نعرف عنه انه استمر في منصبه وزيراً أول للغني بالله، موجب البر والإكرام والإجلال والإعظام وشاعراً للبلاط ينشد قصائده المدحية في المناسبات والأعياد وسفيراً مفوضاً من السلطان في عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين وتجديد معاهدات الصلح والصدقة مع النصاري^(٢)، حتى إذا توفي الغني بالله وخلفه في الحكم ولده أبو الحجاج يوسف الثاني، بدأت طباع صاحبنا ابن زمرك تتغير، فأظهر جراته على أولي الأمر واستخفافه بهم، وقد أدى به هذا الاستخفاف وتلك الجراءة إلى أن أسكنه أبو الحجاج المعتقل بالمرية، وذلك بعد وفاة الغني بالله بفترة قصيرة، قد لا تتعدى شهر صفر من عام وفاته. ولم يُطْلَق سراحه ويُعَدَّه إلى الحضرة إلّا في أول رمضان عام ٧٩٤هـ/٢١ تموز ١٣٩٢م، أي قبل حوالي شهرين من وفاة أبي الحجاج الذي خلفه ولده محمد السابع في ١٦ ذي القعدة سنة ٧٩٤هـ/٣ تشرين الأول سنة ١٣٩٢م^(٣)، فيكون قد قضى في السجن فترة سنة ونصف السنة تقريباً.

استمر ابن زمرك وزيراً للسلطان الجديد أياماً قلائل ثم استبدل به الفقيه أبا بكر بن عاصم^(٤) لمدة من عام، ثم أعاده إلى خطه وقد «دمث بعض أخلاقه وخذت شراسته وحلا بعض مذاقه»^(٥).

(١) وهي سنة وفاة الغني بالله.

(٢) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٧: ١٦٧.

(٣) نفسه، ٧: ١٦٩.

(٤) هو أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي، قاضي الجماعة، (١٢) جمادى الأولى ٧٦٠-١١ شوال ٨٢٩هـ/١١ نيسان ١٣٥٩-١٦ آب ١٤٢٦م). قام على النحو أنتم قيام وجمع بين القياس والسماع، وجلّ في علمي البديع والبيان وتضلع بالقراءات، وتقدم في الأدب نظماً ونثراً، إلى براعة الخط وأحكام الرسم. له تأليف كثيرة منها: أراجيز «تحفة الحكام» و«مهييع الوصول في علم الأصول» و«الموجز في النحو» وكتاب «الحدائق» وفيه أغراض شتى من الآداب والحكايات. كان أهل الأندلس يقولون في حقه: إنه ابن الخطيب الثاني. (المقرئ: «نفح الطيب...»، ٥: ١٩-٢٢).

(٥) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٧: ١٦٩.

وفي الفترة التي عزل فيها من منصبه، قعد بجامع مالقة، ثم بمسجد الحمراء، ملقياً على الكرسي فنوناً جمّة وعلوماً كثيرة. وكان التفسير أغلب عليه لفرط ذكائه وما كان قيده وحصله أيام قراءاته وإقراءه. ويذكر ابن الأحمر أن الناس في مالقة كانوا يتوافدون إليه، كأنهم البحر الطامي، للاستماع إليه والأخذ عنه، كما يذكر أن وليّ الأمر قد سمع مراراً عدة ما كان يلقيه بمسجد الحمراء^(١).

على أن ابن زمرك لم يبق طويلاً في منصبه الذي عاد إليه، فسرعان ما اغتر بمكانته، وغلبت عليه الاحن وعرضت لأفكاره التقلبات وأخذ يتخبط في مراحل الغيظ والتبرم، ويظهر أحقاه، وسيء القول والعمل^(٢). حتى أرسل محمد السابع رجالاً داهموه في بيته وقضوا عليه وعلى ولديه وعلى من كانوا معهم من خدم، وذلك على مرأى من أهله وبناته^(٣)!! وهكذا انتهت حياة آخر كبار الشعراء الأندلسيين، وكأن في قتله، على تلك الصورة، انتقاماً لمصرع ابن الخطيب وثأراً له.

تاريخ وفاته:

أما تاريخ وفاته فلم تحسمه المصادر، ولذلك اختلف الذين ترجموه حول هذا التاريخ اختلافاً كبيراً، بحيث تراوح بين سنتي ٧٩٠ هـ و ٧٩٧ هـ / ١٣٨٨ - ١٣٩٥ م. فقد ورد في «الدرر الكامنة..» أنه «كان في قيد الحياة وذلك قبل التسعين وسبعمائة»^(٣). وجاء في «نيل الابتهاج».. أنه «كان حياً سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة»^(٤). وذكر الزركلي في «الأعلام»^(٥) أنه قتل

(١) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ١٦٨.

(٢) نفسه، ٧: ١٧٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني: «الدرر الكامنة...»، ص ٣١٣.

(٤) التنكي: «نيل الابتهاج...»، ص ٢٨٣.

(٥) «الأعلام»، ٧: ١٥٤.

نحو ٧٩٣هـ/١٣٩٠م. وحدد محمد عبد الله عنان أواخر سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٥م تاريخاً لمقتله^(١). أما بروكلمان فقد أورد تاريخ مصرعه في سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م^(٢). وكذلك ذكرت «دائرة المعارف الإسلامية» أنه «قتل في وقت غير محدد من العام ٧٩٥هـ/١٣٩٣م»^(٣). وقال بلاشير إن مصرعه تم في أواخر سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م^(٤) أو في أوائل سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م^(٥). وذكر غرسيا - غومس أن سنة وفاته هي ٧٩٦هـ/١٣٩٣م^(٦).

على أنه يمكن ترجيح سنة وفاته بصورة قريبة من الجزم حين نستعيد بعض التواريخ التي أوردها السلطان ابن الأحمر في كتابه ونقلها عنه المقرئ في «نفحه». فنحن نعلم مما سبق، أن ابن زمرك خدم أبا الحجاج يوسف الثاني حتى وفاته في أواخر سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م، فلما قام ابنه محمد السابع مقامه بالأمر، استمر الحال أياماً قلائل، ثم قدم للكتابة الفقيه ابن عاصم لمدة من عام أي حتى أواخر سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م، أو أوائل سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م، ثم أعاد ابن زمرك إلى خطته بعد أن تحسنت أخلاقه، واستمر على ذلك وقتاً غير محدد ولكنه، بالتأكيد، غير طويل، حتى هلك مجداً بالسيوف. وقد ختم المقرئ كلامه المنقول عن السلطان ابن الأحمر على مقتل ابن زمرك قائلاً: «وقد فهم من مضمون ما سبق أن قتل ابن زمرك بعد عام خمسة وتسعين وسبعمائة»^(٦).

وهكذا أستطيع القول إن مصرع ابن زمرك قد تم، على الأرجح، في الشهر الأول أو الشهر الثاني على الأكثر من سنة ٧٩٦هـ/ أواخر ١٣٩٣م.

(١) «نهاية الأندلس...»، ص ١٧٦ و ١٧٧.

(٢) «تاريخ الأدب العربي»، ٢: ٣٧٠.

(٣) ٣: ٩٧٢.

(٤) «A.I.E.O.» مجلد ٢، سنة ١٩٣٦، حاشية ص ٣٠١.

(٥) «الشعر الأندلسي»، ص ٧٢.

(٦) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٧: ١٧٠.

ولذا كان هناك من شك قليل حول وفاته بالتاريخ الهجري فإني أستطيع الجزم بأن التاريخ الميلادي صحيح ذلك أنه على فرض مقتل ابن زمرك في أواخر ٧٩٥ هـ يبقى التاريخ الميلادي كما هو ١٣٩٣ م.

وقد حزن السلطان يوسف بن الأحمر عليه وتأثر لمقتله وارتحل عند ذكره في كتابه هذه الأبيات في رثائه:

«هَلْ كَانَ إِلَّا حَيًّا تَحْيَا الْعِبَادُ بِهِ هَلْ كَانَ إِلَّا قَذِيًّا فِي عَيْنِ ذِي عَوْرِ
إِنْ قَالَ قَوْلًا تَرَى الْأَبْصَارَ خَاشِعَةً لِمَا يُخْبِرُ مِنْ وَحْيٍ وَمِنْ أَثَرِ
يَا لَهْفٍ قَلْبِي لَوْ قَدْ كُنْتُ حَاضِرَهُ غَدَاةَ جَرَّعَهُ أَذْهَى مِنَ الصَّبْرِ
لَمَّا تَرَكْتُ لَهُ شِلْوًا بِمَضِيعَةٍ وَلَا تَوَلَّى صَرِيحَ النَّابِ وَالظُّفْرِ
وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظُنُّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْخَبْرِ»^(١).

ولم أعثر على غير هذه الأبيات في رثائه. ولم أعجب لهذا قط. بل كنت أعجب لو وجدت شيئاً من ذلك، لسبب بسيط: هو أن السلطان محمداً السابع هو الذي أمر بقتل ابن زمرك، فأبي شاعر يجرأ، بعد هذا، على رثائه؟؟ حتى لو كان تلميذاً من تلاميذه الكثر. ومن الممكن أن يكون قد نظم فيه بعض المراثي بعد وفاة محمد السابع، ولكن المصادر لا تتضمن، على كل حال، شيئاً من هذا.

تلاميذه:

لم تذكر المصادر أحداً من تلاميذه. لذلك دهشت حين ذكر غومس في كتابه، نقلاً عن بلاشير، أنه من المحتمل أن يكون الشاطبي، المتوفى عام ٧٩٠ هـ/١٣٨٨ م^(٢)، واحداً من تلاميذه، ذلك أن الشاطبي نفسه أطلق في

(١) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ١٦٤.

(٢) «مع شعراء الأندلس...»، ص ٢٠٠ و«A.I.E.O.» مجلد ٢، سنة ١٩٣٦، ص ٢٩٥.

كتابه «الإنشادات والإفادات» على ابن زمرك لقب «صاحبنا»^(١)، ولو كان أستاذه لذكر ذلك صراحة. والواقع أن الشاطبي كان زميلاً لابن زمرك. وهو قد أخذ العلم على شيوخ ابن زمرك أنفسهم. ولئن ذكر في كتابه أنه أفاد منه شيئاً عن علم البيان فليس معنى هذا أنه تتلمذ على يديه، وإنما يعني أن زميلاً أخذ شيئاً عن زميل له يتفوق عليه فيه.

كذلك ذكر غومس أنه كان يوجد بين تلاميذه «كما لاحظ ابن الأحمر، من سيتولى الملك مستقبلاً ويأمر بقتله»، ويقصد، بالطبع، محمداً السابع، وهذا خاطيء تماماً. وليس الخطأ في احتمال كون محمد السابع تلميذاً لابن زمرك، فهذا احتمال جائز لا يستطيع أحد أن يؤكد ولا أن ينفيه، ولكن الخطأ في قول غومس أن ابن الأحمر «لاحظ» هذا! مع أن كل ما قاله ابن الأحمر وبالحرف الواحد: «ومراراً عدة سمع ما يلقيه وليّ الأمر»^(٢)، وكان يتحدث عن ابن زمرك العائد إلى كرسي الأستاذية بمسجد غرناطة بعد أن عزله محمد السابع نفسه من الوزارة سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م!

فما علاقة هذا بالتلمذ؟.

لقد سكنت المصادر، إذأ، عن ذكر تلاميذ ابن زمرك فلا يجوز أن نلجأ إلى التخمين. كل ما يمكن قوله، في هذا الشأن، أنه كان لابن زمرك تلامذة كثير بدليل قول ابن الأحمر أنه كان يحضر دروسه «أمم بمالقة طما منهم البحر»^(٣).

صفاته وأخلاقه ولع من أخباره:

لا نستطيع أن نحيط بصفات ابن زمرك الحقيقية، خَلْقاً وَخُلُقاً، وعلينا

(١) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ٢٧٩.

(٢) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ١٦٨.

استقراء بعضها من شعره، أو استخلاصه، في حال وجوده، مما ألفه لسان الدين ويوسف الثالث ابن الأحمر وإسماعيل بن الأحمر وما قيده علي بن لسان الدين من تعليقات على هامش «الإحاطة...».

وواضح أنه لا يمكن أن يرتاح الدارس إلى أقوال المذكورين جميعاً، ولا أن يطمئن إليها اطمئناناً تاماً، فضلاً عن أن يوليها ثقته الكاملة! ذلك بأن لسان الدين ترجم ابن زمرك في كتابيه «الإحاطة...» و«الكتيبة الكامنة...»، فأتت الترجمتان متناقضتين! وكان علي بن لسان الدين أبعد الناس عن الموضوعية في تعليقاته، لأنه لم يكتبها بسواد المداد بل بسواد الحقد! وللسلطان يوسف الثالث مصلحة أكيدة في تمجيد ابن زمرك وعدم الطعن في أخلاقه، لأنه كان وزير جدّه الغني بالله وكاتبه لمدة طويلة، ولأن الطعن في أخلاق الوزير يعني الطعن في من عيّنه لكون الشئ يوافق طبّقه، وقد ذكر، هو نفسه، ان ابن زمرك كان رئيس كتاب محمد الخامس فقال: «وحسبك بمن ارتضاه مولانا الجد، رحمه الله تعالى، لكتابته»^(١). وإسماعيل بن الأحمر لم يذكر، في ترجمته ابن زمرك، من صفاته الخلقية والخلقية سوى أن «صورته من براعة الحسن جميلة»^(٢) ولعله ذكر هذه الجملة استكمالاً للسجع. هذا بالإضافة إلى كونه فرداً من الأسرة الحاكمة.

أما ما وصف به ابن زمرك نفسه فلا يمكننا الاعتماد عليه. وهذا شيء بدهي: ذلك أن الإنسان لا يعرف نفسه، وهو لا يمكن أن ينسب إلى نفسه إلا الصفات الحميدة، ولا يتحدث عن عيوبه لأنه، غالباً، لا يراها، بل هو يراها حسنات لا عيوباً!!.

وهكذا يتأكد أنه يتعذر رسم صورة كاملة وصحيحة لابن زمرك الإنسان المتصف، بالضرورة، بشكل ظاهر، وأخلاق معينة، وسلوك محدد.

(١) المقرئ: «نفح الطيب...» ٧: ١٦٣.

(٢) ابن الأحمر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٣٢٨.

ولئن كان كمال الصورة سيفوتني فلأحاول، على الأقل، رسم صورة أقرب ما تكون إلى الواقع، ولأستعرض أولاً ما ذكره مترجمو ابن زمرك من صفاته، ولأسترجع في ذهني ملامح سيرته وظروف بيئته، ثم لأستخلص من هذا الاسترجاع وذلك الاستعراض المادة الأساسية لرسم الصور المطلوبة.

ففي «الإحاطة..» يصف ابن الخطيب تلميذه بأنه «فاضل نجيب، هش خلوب، عذب المفاكهة، حلو المجالسة،... خفيف الروح... حاضر الجواب، شعلة من شعل الذكاء... كثير الرقة، فكه غزل مع حياء وحشمة، جواد بما في يده، مشارك لآخوانه... نشأ عفأ طاهراً... ثاقب الذهن، أصيل الحفظ، ظاهر النبل...»^(١). وفي «الكتيبة الكامنة..» ينعتة بأنه «رجيل... مخلوق من مكيدة وحذر، ومفطور اللسان على هذيان وهذر، خبيث، إن شكر خدع ومكرودس في الصفو العكر...» ثم يتحدث بعد ذلك عن نشأته «الشائنة»، ويصفه بالخبث والغدر، وينسب إليه، بكثير من الحذق والمواربة، أشياء تغض من كرامته وإبائه، وتطعن في أخلاقه، حين ألمح إلى أنه كان لديه غلام اسمه فرج يداعبه ويتغزل به^(٢). والتناقض ما بين الوصفين واضح، وهو يعود في حقيقته إلى أن ابن الخطيب انتهى من تأليف «الإحاطة..» سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م أو سنة ٧٧٢هـ/١٣٧١م على أبعد تقدير^(٣)، أي في الوقت الذي كان لا يزال فيه على صلة طيبة بابن زمرك. أما كتابه «الكتيبة..»، فقد ألفه في أواخر سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م بعد تغير وضعه، وتحوله عن غرناطة إلى المغرب، فراراً من نقمة مليكه، وإدراكه غدر أصدقائه القدامى، ولعل الذي دفعه إلى تأليف «الكتيبة..» هو رغبته في «أن يعيد النظر في تقدير الأشخاص الذين تنكروا له مثل القاضي النباهي وابن

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٢١.

(٢) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٨٢ و ٢٨٣.

(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، مقدمة التحقيق ص ٨٢.

فركون وابن زمرك»^(١).

على أن ابن الخطيب، بالرغم من تنكر ابن زمرك له، هذا التنكر الذي دفعه إلى تغيير وصفه وتبديل نعته، لم يتوان عن أن يذكر في «كتيبته» بعض حسنات ابن زمرك، إذ قال: «وانفرد بخفة الروح مع دماثة اليرح... وآدابه مستميلة ومحاضرتة جميلة»^(٢).

وعن كتاب «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك» نقل المقرئ ما تضمنته ترجمة ابن زمرك من وصفه بأنه صاحب «فكاهة ومجالسة أنيقة ممتعة ومحادثة أريضة مزهرة... مع انقياد الطبع، وإرسال الدمعة في سبيل الخشوع والركة... وصون الوجه بجلباب الحياء... على طهارة وبذل وسع وكرم نفس... إلى مبالغة في الهشة... وجنوح إلى حب الصالحين...»^(٣).

ونأتي إلى «نفح الطيب...» المتضمن تعليقات علي بن لسان الدين على هامش ترجمة ابن زمرك في «الإحاطة...» فنجده قد كتب على قول أبيه: «نشأ عفأً طاهراً» ما نصه: «هذا الوغد من شياطين الكتاب... وهو أخس عباد الله تربية وأحقهم صورة وأخلهم شكلاً...».

وكتب على قوله: «يا مصباح» ما نصه: «كان يحب صبيّاً اسمه مصباح!».

وعلى قوله: «الأثمّي في الجود...» ما صورته: «كذبت يا نجس! من أين الفخر لك ولبيتك؟ لست، والله، من الجود في شيء!...».

وعلى قوله: «لقد علم الله أني امرؤ أجرر ذيل العفاف القشيب» ما معناه: «لا والله، فأنت مشهور بكذا، يا قرد، فمن أين العفاف وأنت بالأندلس كذا وكذا»، إلى أن قال «... وأنحسهم بيتاً».

(١) ابن الخطيب: «الكتيبة...»، مقدمة التحقيق ص ١٨.

(٢) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...» ص ٢٨٢ و ٢٨٣.

(٣) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٧: ١٦٦ و ١٦٧.

ثم ينهي المقرئ هذه التعليقات، بتعليقه هو عليها فيقول: «وقد نسبة إلى ما لا يليق، فالله أعلم بحقيقة الأمر»^(١).

أما ما وصف به ابن زمرك نفسه فأستطيع أن أستخرجه من أشعاره. مع التذكير بأن هذا الوصف قد لا يطابق الواقع. فهو يصف نفسه بأنه كتوم للسر:

يَا سَائِلِي عَنْ سِرٍّ مَنْ أَحْبَبْتُهُ السَّرُّ عِنْدِي مَيِّتُ الْإِحْيَاءِ^(٢)

ويتحدث عن شجاعته وخوضه غمار المفاوز:

كَمْ خُضْتُ دُونَكَ مِنْ غِمَارٍ مَفَازَةٍ لَا تَهْتَدِي فِيهَا اللَّيْثُ لِمَجْتَمِ^(٣)

ويقول إنه عفيف يخاف الله:

خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوَاهُ مِنْ غَيْرِ رِقْبَةٍ وَلَكِنْ عَفَافِي لَمْ أَكُنْ عَنْهُ خَالِيًا^(٤)

ويرى نفسه جواداً كريماً:

الْأَيْمَتِي فِي الْجُودِ وَالْجُودُ شِيْمَةٌ جُبِلْتُ عَلَى إِثَارِهَا يَوْمَ مَوْلَدِي^(٥)

يرعى الإلف ولا ينسى العهد:

وَمَا زِلْتُ أَرْعَى الْعَهْدَ فِيمَنْ يُضِيعُهُ وَأَذْكُرُ الْفِي مَا حَيَّتْ وَنَسَانِي^(٦)

ويطلب العلى والمجد بعزم لا يلين:

وَكَمْ بَتُّ أَطْوِي اللَّيْلَ فِي طَلَبِ الْعُلَى كَأَنِّي إِلَى نَجْمِ السَّمَاءِ سَفِيرُ

بِعَزْمٍ إِذَا مَا اللَّيْلُ مَدَّ رِوَاقَهُ يَكُرُّ عَلَى ظَلْمَائِهِ فَيَنْبِرُ^(٧)

(١) المقرئ: «نفع الطيب...» ٧: ١٦١ و ١٦٢.

(٢) نفسه، ٧: ١٨٠.

(٣) نفسه، ٧: ١٨٥.

(٤) نفسه، ٧: ١٨٨.

(٥) نفسه، ٧: ١٥٩.

(٦) نفسه، ٥: ٤٧.

(٧) نفسه، ٦: ٧٩.

ومن أجل هذا يجب السفر والتغرب:

هَذَا عَلَى أَنَّ التَّغْرُبَ مَرْكَبِي وَتَوَلَّجَ الْفَيْحِ الْفِسَاحِ شِعَارِي^(١)

حتى شاب وهو شاب:

بَيْنَا أَنَا وَالشَّبَابُ ضَافٍ وَظِلُّهُ فَوْقَنَا مَدِيدٌ...

إِذْ لَاحَ فِي الْقَوْدِ غَيْرَ خَافٍ صُبْحُ بِهِ نَبَّةَ الْوَلِيدِ^(٢)

بعد هذا العرض السريع الموجز لما وصف به خلق ابن زمرك، يلح علينا السؤال الآتي: ما هو ابن زمرك في الحقيقة؟.

وتمهيداً لتحديد معالم هذه الماهية يجدر بي أن أذكر بأن ابن زمرك كان قد انضوى فترة إلى بعض الفرق الصوفية. وهو، لهذا، يتصف بنزعة صوفية لا شك في أنها أثرت في طباعه وسلوكه فتركت في قلبه خشوعاً، وفي أثوابه عفة وطهارة، فلم يُعرف عنه ما يعيب سلوكه، إلا ما ألصقه به لسان الدين في «كتيبته» وابنه علي في تعليقاته، من حب الغلمان، وإلا قصة غدره بأستاذه لسان الدين والسعي للتخلص منه.

فأما الأمر الثاني فقد تحدثت عن كلفته وظروفه ملياً في ما سبق. وأنا لا أبرئ ابن زمرك من تبعة هذه الجريرة، وإن كنت ألتمس له فيها بعض العذر، لا رغبة مني في تقديسه، فإن اتّصافه بالعيب لا ينقص شيئاً من قيمة أدبه وإن كان يفسره، فأبو نواس الذي كان من أكثر شعراء العصر العباسي فحشاً ومجوناً، عدّ ولا يزال يُعدّ من أكثرهم شاعرية وأكبرهم منزلة، ولكني أفعل هذا رغبة في ذكر ما أراه حقاً، والحق أولى أن يقال فلقد كان ابن زمرك أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يكون وفياً لأستاذه فيقف إلى جانبه ويفقد، بدوره، منصبه وربما حياته، وإما أن يكون وفياً للملكه فينفذ أوامره ويسعى في

(١) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٧: ١٥٢.

(٢) نفسه، ٧: ٢٤٥.

قتل من علمه وأدبه، فيفقد، بهذا، شيمة محبة لدى الإنسان: هي شيمة العرفان بالجميل. ولما كان الإنسان ضعيفاً أمام إغراءات الحياة، فقد اختار ابن زمرك الوقوف إلى جانب مليكه ضد أستاذه. ثم إن الطموح أهم ما يمتاز به ابن زمرك، وقد عرف كيف يستغل الفرص ليصل إلى ما يريد، ولو على حساب شيمة من شيمه. وسبحان من له الكمال وحده.

وأما اتهامه بحب الغلمان فمردود في رأيي، لأسباب كثيرة منها: أن هذا الاتهام ورد في «الكتيبة...»، ولو ورد في «الإحاطة...» لأخذت به وأعلنته، والسبب في هذا أصبح معروفاً.

ومنها أن اتهام لسان الدين وابنه، فضلاً عن أنه نابع من نقمتهما على ابن زمرك، وأنه لم يرد على لسان أحد غيرهما، ظلّ مجرد أقوال خارجة عن نطاق الإثبات. والقاعدة القانونية تقرر أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

ومنها أن ابن زمرك كان جليساً فكهاً، خفيف الظل، يحب المداعبة. ولا أشك في أن تكون قصة فرج الذي اتهمه به لسان الدين من قبيل مداعباته. فقد نظم فيه بيتين ذكرهما ابن الخطيب في «كتيبته» يقول فيهما:

يَا فَرَجاً عَلَّلْتُ نَفْسِي بِهِ وَالْقَالَ مَحْبُوبٌ لِتَعْلِيلِهِ
حَرَّمْتُ إِحْلِيلَكَ هَذَا عَلَى نَفْسِي وَأَفْتَيْتُ بِتَحْلِيلِهِ^(١)

ولو كان ابن زمرك «يحب» غلامه هذا لما نظم فيه هذين البيتين وأذاعهما، إلا أن يكونا من نظم ابن الخطيب، رغبة منه في إثبات التهمة. وجدير بالملاحظة أن هذين البيتين لم يردا إلا في «الكتيبة...».

ومنها أنه كان متزوجاً وله أولاد^(٢). ومع أن المصادر لم تذكر متى تزوج

(١) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٨٣.

(٢) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ١٧٠.

ولا بمن تزوج ولم تحدد عدد أولاده، ذكوراً وإناثاً، غير أن الثابت أنه تزوج وأنجب أولاداً. وهذا الزواج وهذا الإنجاب دليلان آخران لمصلحة الشاعر. فإذا كانا لا يتفیان عنه التهمة، فهما يبعدانها عنه على الأقل.

ومنها أن ابن زمرك كان من كبار رجال الحاشية، وكان يطمح إلى منصب الوزارة، فلا يعقل أن يشين وجه تصرفاته ويهدم بناء سمعته بعمل مناف للأخلاق والدين.

ومنها أن ابن زمرك ظلّ في خدمة الغني بالله مدة تزيد على ثلث قرن، فلو أنه كان، بالفعل، لواطياً لما رضي الغني بالله أن يبقيه في منصبه، إلا إذا كان، هو نفسه أيضاً، يحب الغلمان. وهذا منطوق يجرنا إلى اتهام الغرناطين كلهم جميعاً بهذه الوصمة.

ومنها أن النزعة الصوفية التي اتّصف بها ابن زمرك، قد اتصف بها أيضاً معظم أدباء العصر النصري، حتى لسان الدين اندفع بتأثيرها إلى تأليف «روضة التعريف بالحب الشريف»^(١). وهذه النزعة الصوفية تركت بصماتها واضحة في النتاج الأدبي وأثرها بيناً في السلوك الخلقي فاختفى غزل الغلمان^(٢) كما اختفى اللواط. ولئن كان لكل قاعدة استثناء، كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، وهذا صحيح، فإني أستطيع أن أؤكد، بعد ملازمتي الطويلة لابن زمرك، قراءة وبحثاً وتدقيقاً، أن ابن زمرك كان يرفرف على سلوكه علم القائدة ولم تسر عليه يوماً أحكام الاستثناء البغيض.

فلندع، إذأ، هذا الاتهام الكاذب جانباً ولنقل أن ابن زمرك كان رجلاً طموحاً لا تقفه عقبة في طريق الوصول إلى ما يريد، ولو تمثلت هذه العقبة

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة»، ص ٧٠ و ٧٦.

(٢) الكفراوي، د. محمد عبد العزيز: «تاريخ الشعر العربي»، دار نهضة مصر، الطبعة الأولى، الجزء الرابع، ص ٩٨.

دعامة من دعائم الشرف وحصناً من حصون الوفاء والعرفان. ولقد كان ذكياً، شائق الحديث، حلو المعاشرة، خفيف الروح، إلى خشوع في القلب وطهارة في الثوب، وإلى بشاشة دائمة وحب للمداعبة وتمسك بالنادرة.

ومن «تنديراته» على أبي الحسن المحروق، لميله عنه، أنه قال فيه:

وَلَدُ الْفَقْرِ وَالرِّبَاطِ وَلَكِنْ نَفْسُهُ لِلْسُّلُوكِ ذَاتُ افْتِقَارٍ^(١)

ومن أخباره الطريفة، ما رواه ابن الخطيب في «الكتيبة» وفي «أعمال الأعلام».

ففي «الكتيبة...» ذكر ابن الخطيب أن ابن زمرك مرض، ذات يوم، فعاده الكتاب «والطبيب بين يديه يتخذ له شراباً والنحل تغطيه أسراباً...» وقد ألحت منها واحدة فأخذت تنزل على وجهه مرة وعلى أدوات الكتابة مرة، فقال بعضهم: أجز يا فقيه:

يَا حُسْنَهَا إِذْ أَتَتْ مُغَرَّدَةً عَلَى الْقَضِيبِ النَّجِيبِ مِنْ قَلَمِكَ

فقال الآخر:

قَدْ نَالَتْ اللَّوْنُ مِنْ دَوَاتِكَ وَالْشَّهْدُ الشَّهْيِ الْمَذَاقِ مِنْ شِيمِكَ

وقال الثالث:

كَأَنَّهَا فِي اقْتِرَابِهَا فَرَجَ يُهْدِي إِلَيْكَ الشِّفَاءَ مِنْ أَلَمِكَ

فغضب ابن زمرك وقال: «اخرجوا يا أبناء الفاعلة، جئتم تعودوني (كذا) وتهجونني وتحرفون مزاجي، والله ان زادني زيادة لأدمن عليكم»^(٢). فانصرفوا ضاحكين متملحين^(٣).

(١) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٧: ١٦٧.

(٢) من الملاحظ أن هذه الجملة أقرب إلى العامة منها إلى الفصحى.

(٣) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٤٧ - ٢٨٤.

وفي «أعمال الأعلام» روى لنا ابن الخطيب طرفة أخرى من طرائفه. موجزها أن رجلاً يعرف بابن الحسن طلب من المنصور ابن أبي عامر أن يوليه القضاء بجهته ليتشفى من أكل التين فولّاه. فلما وقف القاضي علي بن الحسن النباهي على هذه الحكاية، ظهر له، بسبب اشتراك اسمه مع ابن الحسن المذكور، أن يكتب من هذه الحكاية نسخاً كثيرة، أفنق عليها ما يضيق عنه ماله وحاله، وراح يهديها أو يبيعها. فسأل ابن الخطيب ابن زمرك رأيه في هذا، وكان ابن زمرك مولعاً بالعبث بالقاضي النباهي وبحفظ نوادره، فقال: «إنه سمع الحديث: تزوجوا فإني مكاثركم الأمم، فقدّر، جارياً على أقيسته الفقهية، أن كل مكثّر لشيء ما فهو مأجور». فلما اجتمع الثلاثة في منزل أحدهم ابن الخطيب، فتح ابن زمرك باباً للحديث، فما كان من القاضي النباهي إلّا أن قال: «يا سيدي هو ذكر جميل، وفيه فخر للولد». فقال ابن الخطيب: «سبحان الله، وعلى فرض أن هذا الرجل المذكور في الحكاية جدك، فأى فخر في من تبيّن أن سبب طلبه القضاء الذي يستعفي عنه أهل الفضل والورع، هو حبّ التين؟!... ولو أدركت هذا الرجل الذي ترغب في الخلاص إليه للقبته بطير العصير (وهو طائر معروف بأكل التين). فقال ابن زمرك: حضرنى أبيات أخاطب بها سيدي الفقيه. ثم أنشد:

أَحَافِدَ عَبْدِ التَّيْنِ يَمْلَأُ بَطْنَهُ مِنْ التَّيْنِ^(١) مِنْ غَيْرِ
لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ فِيكَ مُخَيَّرًا إِلَى أَنْ هُدَيْتُ الْفِكْرَ مِنِّي لِلْسَّيْرِ
فَقَدْ طُبْتُ مِنْ طَيْرِ الْعَصِيرِ بِنَسْبَةٍ فَخَرْتُ بِهَا بَيْنَ الْقَضَاةِ عَلَى الْغَيْرِ
فَأَنْتَ إِذَا مِنْ دَرَقِ جَدِّكَ نَابَتْ كَمَا تَنْبُتُ الْأَشْجَارُ مِنْ دَرَقِ الطَّيْرِ

فحرد القاضي ابن الحسن من هذا وأراد أن يجيب ابن زمرك فأرتج

عليه^(٢).

(١) كلمات غير مفهومة.

(٢) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام...»، ص ٧٨ - ٨٠.

وهنا أترك ابن زمرك يذهب في الدعابة كل مذهب. وأدع ابن الخطيب يعجب بما أتى به ابن زمرك من الشعر «المستظرف في معناه». وأتخلى عن القاضي النباهي، وهو يقف هذا الموقف الصعب، لا يعرف كيف يرد الإهانة الموجهة إليه، والمغلقة بغطاء شفاف مزخرف بالاستهزاء والسخرية الضاحكة. أذر هذا كله لأنهي هذا الباب بالكلام على آثار ابن زمرك.

آثاره:

كان ابن زمرك شاعراً وكاتباً، وكان نتاجه الشعري وفيراً. ويكفي أن نتذكر ما كتبه في رقعة من رقاعه، سبق الإشارة إليها^(١)، حتى نعرف أنه لم يكن مقلداً. فقد نظم ستاً وستين قصيدة في الأعياد والمناسبات، يضاف إليها الموشحات، ومقطعات التهئة والرسائل والأبيات المنقوشة على جدران قصر الحمراء. إلا أن الذي بقي من شعره، يقارب، على الأرجح، نصف نتاجه. وقد جمع السلطان يوسف الثالث ابن الأحمر أشعاره في كتاب سماه «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك»، ولكنه ضاع ولم يصل إلينا. ومعظم ما وجدته أورده المقرئ في كتابيه «أزهار الرياض...» و«نفع الطيب...»^(٢).

فإذا عرفنا أن قصائده المنظومة في الأعياد والمناسبات والباقية حتى اليوم، قد تراوح عدد أبياتها بين ثمانية وستين بيتاً، ومائة وستة وأربعين بيتاً، وإذا أخذنا بالحد الأدنى كمعدل وسطي لعدد أبيات القصائد الست والستين، ثم أضفنا إليها أبيات مقطوعاته في التهئة والشكر والأغراض المختلفة، إذا عرفنا هذا تبين لنا بوضوح أن ديوانه يتعدى خمسة آلاف بيت من الشعر، على الأقل.

وبناءً على هذا سأبدأ بدراسة هذا النتاج، دراسة تحليلية، تكشف عنه الغطاء وتمهد لإصدار حكم عادل على ابن زمرك وإنتاجه.

(١) تراجع ص ١٤ من هذه الدراسة.

(٢) تراجع الجدول الأول في ص ٢٤٣ من هذه الدراسة.

القِسمُ الثَّانِي

الفصل الأول : نشره .

الفصل الثاني : شعره .

المبحث الأول : موشحاته .

المبحث الثاني : شعره المدحي : مولدياته ، غنياته ، مراثيه ، فخره .

المبحث الثالث : وصفه .

المبحث الرابع : غزله .

المبحث الخامس : المسحة الصوفية في شعره .

الفصل الثالث : فنيته .

الفصل الرابع : سقطاته .

الفصل الخامس : تقليده وتجديده .

المبحث الأول : التقليد .

المبحث الثاني : التجديد .

الفصل الأول

نثره

قلت إن ابن زمرك كان شاعراً ووشاحاً وكاتباً. وهذا يعني أن له نتاجاً في فنون الشعر والتوشيح والكتابة. ولئن كان ما بقي من نتاجه الأدبي في الشعر يفوق، كماً وكيفاً، ما بقي منه في النثر، فلا يمنع هذا أن أدرس نثره الذي وصل إلينا منه رسائل ثلاث وقطعتان قصيرتان^(١). وأغلب الظن أن لابن زمرك رسائل كثيرة كتبها بحكم عمله في رئاسة القلم الأعلى وفي أمانة السر التي تستلزم أن يكتب صاحبها عن ملكه كل مخاطباته ومراسيمه. ولعل له أيضاً رسائل إخوانية كثيرة، ولكن لم يصل إلينا من كل ما كتب إلا ما ذكرته أعلاه.

وبسبب قلة نماذج الشاعر النثرية، سوف أبدأ بدراستها لأفرغ بعد ذلك لدراسة شعره وتوشيحه، زاعماً أنها تكفي لإظهار أبرز ما فيها من خصائص عرف بها معظم نثر ذلك العصر. ولو ظهر بعد هذه الدراسة رسائل لابن زمرك، بحيث تغير «الكم» فلعل «الكيف» لا يتغير كثيراً، ذلك أن عناصر الأسلوب النثري في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) كانت متشابهة لدى أدباء غرناطة.

(١) ابن خلدون: «التعريف»، ص ٢٦٨ - ٢٧٤. وابن الخطيب: «الإحاطة...»،

٢: ٢٣٧ - ٢٣٩ و ٢: ٢٣٩ - ٢٤٠. والمقري: «أزهار الرياض...»، ١: ٦٣ - ٦٤، و«نفع

الطب...»، ٧: ١٦٧.

فأما القطعتان القصيرتان فقد أشرت إلى إحداهما أكثر من مرة في ما سبق من متن هذه الدراسة، وهي عبارة عن رقعة وقف عليها السلطان يوسف الثالث ابن الأحمر وضمها إلى كتابه «البقية والمدرک...». وهي مؤلفة من ثمانية أسطر كتبها ابن زمرك، بالتأكيد، بعد وفاة الغني بالله،^(١) وهو يذكر فيها أنه خدم الغني بالله سبعة وثلاثين سنة، أنشده فيها ستاً وستين قصيدة، وأن كل ما نقش في القباب والطاقات هو من نظمه، وأنه عقد الصلح مع النصراني مرات تسعاً بتفويض من الغني بالله. ثم ينهي هذه الرقعة باستفهام إنكاري يظهر وكأنه رد على اتهام ودفاع عن النفس إذ قال: «الْحِسَّةُ فَوْضَ إِلَى ذَلِكَ؟!».

ومن الواضح أن هذه القطعة، لا قيمة فنية لها، لا لأنها خلت من العنصر الأول والأبرز في نثر ذلك العصر، وأعني به السجع، فالسجع، كما هو معلوم، ليس عنصراً من عناصر الأدب، بل لأنها لا تحمل، أصلاً، الطابع الأدبي، فهي مجرد كلمات وأعداد رصفها ابن زمرك رصفاً فبدت وكأنها لائحة دفاع قدمها محام إلى محكمة الاستملاك!!.

أما القطعة الثانية فهي مختلفة تماماً عن القطعة الأولى، إذ كتبها ابن زمرك حين توجه الغرناطيون للدفاع عن مرج غرناطة، في وقت غير محدد، ذلك أن المقرئ الذي أورد هذه القطعة في «أزهاره»^(٢) لم يذكر تاريخها، وكل ما قاله، في معرض ذكره كثرة ما صدر عن العلماء والكتّاب والوزراء من كتب يحرّكون بها «حميات ذوي البصائر والأبصار ويستنهضون عزماتهم من كل الأمصار»: «فمن ذلك ما كتب به الكاتب الرئيس أبو عبد الله ابن زمرك، رحمه الله، لما نزل المسلمون بآخر مرج غرناطة»^(٣)، هذا المرج الشهير الذي

(١) أي بعد سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ١: ٦٣ و ٦٤.

تواصلت على مسرحه معارك المسلمين والنصارى لمدة تزيد على قرنين. وأغلب الظن أنه كتبها في الفترة الواقعة بين تعيينه أميناً للسر وتنصيبه وزيراً، وهذا ما يوحى به، بالضبط، لقب الكاتب الرئيس.

والقطعة مؤلفة من عشرة أسطر، ومن المحتمل أن تكون مجتزأة من رسالة كاملة، غير أني أميل إلى عدّها قطعة مستقلة، لأن غرضها حث المسلمين على الجهاد، وبيع نفوسهم من الرحمن في موقف الدفاع عن الوطن ورد العدوان. وهو موقف يستدعي الاختصار في الكلام، والاقتصار على ما يناسب المقام. وقد بدأها بالجملة الآتية: «اعلموا أنا نذكر لكم ما لا يغيب عن أديانكم وأحسابكم...»، ثم أخذ يحض فيها الغرناطين على الجهاد ويرغبهم فيه للفوز برحمة الله ومحبه، ويذكرهم بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾^(١). ثم ختمها بقوله: «فينبغي فيه الاستغفار من سالف الذنوب، وتطهير السرائر والقلوب، واجتماع الأيدي والكلمة في مرضاة علام الغيوب».

وأبرز ما يلاحظ في هذه القطعة تسجيع فواصلها وسهولة ألفاظها، وبعد هذه الألفاظ عن التقعر والتعقيد. فهي مسجعة بكاملها، حتى الآية الكريمة المنتهية بكلمة «مرصوص» كانت مسبوقة بجملة تنتهي بكلمة النصوص. على أن السجع، في هذه القطعة، وإن كان مصنّعاً، لا يبدو متصنعاً.

أما الرسائل الثلاث فاثنتان منها موجهتان إلى لسان الدين بن الخطيب والثالثة إلى ابن خلدون. وهذه الأخيرة مؤرخة في العشرين من محرم سنة ٧٨٩هـ، وهي واردة في كتاب «العبر...»^(٢) وفي «التعريف...»^(٣). ولقد صدرها بقصيدة مدحية من ستة وسبعين بيتاً مطلعها:

(١) «الصف» ٤/٦١.

(٢) ٧: ٤٥٨ - ٤٦٠.

(٣) ص ٢٩٠ - ٢٩٨.

«سَلُّوا الْبَارِقَ النَّجْدِيَّ مِنْ عِلْمِي نَجْدٍ تَبَسَّمَ فَاسْتَبَكَنِي جُفُونِي مِنَ الْوَجْدِ»

ثم وصل هذه القصيدة بنثر بلغ الذي أورده ابن خلدون في كتابه منه بضع صفحات. وهو يفتح كلامه الثري مخاطباً ابن خلدون بألقاب التبجيل والتعظيم - في سبعة أسطر - ثم يلقي عليه السلام - في ثمانية أسطر - ثم يسأله عن حاله ويذكر فضله ويعود إلى تمجيده فيسرف فيه - في خمسة عشر سطرًا - . إلى هنا يكثر السجع ويتواصل، ثم يبدأ ابن زمرك، بعد ذلك، بإرسال الكلام إرسالاً: فيذكر أنه وجه إلى ابن خلدون جملة من الكتب والقصائد، منها القصيدة «الفريدة» التي نظمها إثر علمه بغرق أسرة ابن خلدون في البحر، ثم يتساءل إن كانت قد وصلت إليه أم غالها الضياع، ويذكر أنه لم يصل إليه من ابن خلدون أية كتب مع علمه بضياع اثنين منها.

وهنا يقطع ابن خلدون كلام ابن زمرك ليقول بأسلوبه أن في الكتاب إشارة إلى أنه بعث قصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مصر، وطلب منه أن يرفعها إلى السلطان، فنسخها بالفعل ورفع النسخة والأصل إلى السلطان فقرأها كاتب سره عليه، غير أن ابن خلدون نسي أن يحتفظ بنسخة منها لنفسه، فضاعت من يديه، وإن في الكتاب فصلاً عرّفه فيه بشأن الوزير مسعود بن رحو المستبد بأمر المغرب، وما جاء به من الانتقاض عليهم، فيسرد قطعة من هذا الفصل ثم يذكر أن بعد هذا الفصل فصلاً آخر يطلب فيه كتباً من مصر يجب أن يضيفها إلى كتبه التي عدد قسماً منها، كالسفر الأول من تفسير أبي حيان وملخص إعرابه وكتاب المغني لابن هشام...

ويذكر ابن خلدون في النهاية أن في الكتاب فصلاً أخرى في أغراض متعددة، لم يجد حاجة إلى ذكرها ويقول إنه ختم كتابه بالسلام وأرخه وكتب اسمه: محمد بن يوسف الصريحي.

وهكذا نرى أن ابن زمرك لجأ إلى التسجيع في مقدمة الرسالة، حين

خاطب ابن خلدون باللقاب كثيرة، مجده فيها وعظمه، ولكن سرعان ما ترك السجع إلى الترسل، حين أراد التعبير عن حاجاته ومطالبه. على أن السجع في هذه الرسالة لا يصدر كله عن صنعة متقنة بل هو يتكلف تكلفاً:

«أبقاكم الله بقاءً جيلاً يعقد لواء الفخر... ويوضح معالم السيادة ويرسل أشعة السعادة... بأي التحيات أفاتحك... إن قلت تحية كسرى في الثناء وتبع فأترك لا يقتضى ولا يتبع... وهذه جهالة جهلاء لا ينطبق على حروفها الاستعلاء، قد محا رسومها الخفاء، وعلى آثار دمنتها العفاء...».

ألا نرى أنها جمل مرصوفة بعناء كبير؟ ألا نراها مكتوبة بحبر التصنع؟ وأنها مجرد حشو لا فائدة فيه ولا طائل وراءه؟.

ولقد حاول ابن زمرك أن يقلد أستاذه ابن الخطيب بإدخال التسجيع المزدوج وأعني به تضمين الجملتين سجعتين داخليتين - وهذا شيء قريب من الترصيع - إلا أنه لم يوفق:

«وإن كانت التحيات طالما أوجف بها الركبان وقعقع البريد ولكن أين يقعان مما أريد؟».

وكأنه شعر بالاخفاق فلم يعد إلى تكرار مثل هذا في كل ما وصل إلينا من رسائله.

وقد تضمنت رسالته شطري بيتين من الشعر ذهب كل منهما مثلاً:

«عَلَى آثَارِ دِمْنَتِهَا الْعَفَاءُ»

و «الشَّمْسُ تَكْبُرُ عَنْ حُلِّيٍّ وَعَنْ حُلَلٍ»

ويلاحظ بعد هذا كله، أن ابن زمرك لم يأت بأية لفظة غريبة في رسالته كلها، وأنه ضمن مقدمتها المسجعة ستاً وعشرين استعارة، ولا شيء سوى

الاستعارات: (أشعة السعادة، السنة المحامد، غمام الرحمة، في أي بحر من ثنائك يسبح القلم...).

وأكثر هذه الإستعارات لا يحمل من الطرافة شيئاً ذا بال، غير أنه يجب التنويه باستعارة جميلة موفقة جاءت في قوله: «أترك عذبة اللسان تلعب بهاريح الأشواق وأسلة البراع تخضب مفارق الطروس بنجيع الحبر المراق». أفلا ننظر إلى تلك الأشواق كيف انقلبت، فجأة، رياحاً عاتية، وراحت تلعب بلسان الشاعر الذي تحول بقدرة خيال واسع إلى طرف غصن، أو خيط ميزان، أو علاقة سوط، فراح يتحرك بفعل الرياح، فيصدر عن حركاته صوت ملؤه المودة والحنين!!.

وفي رسالته لابن الخطيب، جواباً عن رسالة خاطب بها لسان الدين أولاده وهم مع الغني بالله في «المنكب»، امتزج نثر ابن زمرك بنظمه، إذ صَدَّر تلك الرسالة بقصيدة من اثني عشر بيتاً، زعم المقرئ أنها موشحة^(١)، وهو زعم خاطيء، لأنها، في الواقع، قصيدة منظومة على مشطور مخلع البسيط ومطلعتها:

«مَالِي بِحَمَلِ الْهَوَى يَدَانِ»

وهذه الرسالة مؤرخة في الخامس عشر من جمادى الأولى عام تسعة وستين وسبعمائة، وهي مجتزأة على الأرجح، إذ لم يتجاوز ما بقي منها صفحتين اثنتين، جل مضمونها تعظيم وتمجيد للسان الدين، وإظهار للشوق والمحبة، ووصف لإعجاز رسالته وإحكام رصفها وعذوبة ألفاظها وفراة معانيها وإبداعها، بحيث يستحيل تقليدها، ثم دعاء له بحفظ مراتبه، وإعلاء درجته في الدارين، وذكر فضله، وتوجيه السلام إليه. وقد كتبت «في الخامس عشر لجمادى الأولى عام تسعة وستين وستمائة»^(١)، وواضح أن التاريخ غير

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠ و ١١، و«نفع الطيب...»، ٧: ٣٣٩.

صحيح وأن الخطأ كامن في لفظة ستمائة والصحيح سبعمائة.

وقد أتت الرسالة كلها مسجعة الفواصل، امتزج فيها السجع اللطيف المصنوع^(١) بالسجع المتكلف^(٢)، كما ضمنها شطراً من بيت:

«أَشْكُو إِلَى اللَّهِ لَا أَشْكُو إِلَى أَحَدٍ»

ومثلاً معروفاً: «يداوي الناس وهو عليل».

أما محسناتها البلاغية فقد تنوعت هذه المرة، بين وجوه بيانية^(٣) ووجوه بديعية^(٤).

وأما تعابيرها فواضحة لا تعقيد فيها وأما ألفاظها فسهلة ليس فيها من الغريب شيء.

الرسالة الثالثة موجهة أيضاً إلى لسان الدين، وقد اقتطف منها هذا الأخير صفحة واحدة أودعها كتابه «الإحاطة...»^(٥) وقَدَّم لها بقوله:

«وخاطبني أيضاً لذلك، وهو من الكلام المرسل...».

وقد تضمنت هذه الصفحة اثنتين وعشرين جملة مسجعة كلها تمجيد للسان الدين وذكر لفضله، وخمس عشرة جملة مرسلة يعلمه فيها بوصوله مع

(١) «استغفر الله يا سيدي الذي يوقد أفكاري حلوله لقائه، وأنسم أرواح القبول من تلقائه، وأسأل الله أن يديم آمالي بدوام بقاءه».

(٢) «وولى فضله من ولى، وصرف هواه إلى رضى المولى، لعلمه أن صور السعادة... تجلى وثمرة فكره... تجلى، شكر الله له عن نعمه التي هي أولى وحفظ عليه مراتب الكمال التي هو الأحق بها والأولى».

(٣) ١٩ استعارة (ابتسام البرق، ظمأ الشوق)، ٦ كنايات (جانحة الأصيل، نار الخليل)، تشبيهان بليغان (أخلاقه نور)، مجاز عقلي (يوقد أفكاري)، مجاز مرسل (قربت منها يداه).

(٤) ٩ طباقات (ضحكت فابكت، الرائع والغادي، جناس تام (نجاد ونجاد)، ١٢ جناساً ناقصاً (المذهب والمذهب، تبتسم وترتسم).

(٥) ٢: ٢٣٩، و ٢٤٠.

الغني بالله إلى المنكب بخير، واستقر الجميع بمحل القصة، ودعاء بتقريب اللقاء واللقاء السلام...

وقد جاء في هذه القطعة بيت من الشعر لشاعر لم أستطع تحديد اسمه:

«خَلِيلِي هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا بِأَكْرَمِ مَنْ تَمْشِي إِلَيْهَا عَبِيدُهَا»

كما جاء في مطلع الرسالة: «أبو معارفي ومفيدها وولي نعمتي ومعيدها»، وسرعان ما لفتني رفع كلمة «أبو»، وظننت، في البدء، أن في هذا خطأ مطبعياً لكون الرسالة خطاباً يحسن فيه أن تنصب كلمة «أبو» بصفتها منادى منصوب بحرف نداء محذوف، ولكني حين انتهيت من قراءة الرسالة أدركت سبب الرفع، فقد ورد في آخرها قوله: «ورفعنا مخاطبة المالك على الابتداء».. وإذاً، فابن زمرك تعمد أن يأتي بالكلمة الأولى مرفوعة، وفي هذا مهارة وحذق غير خافين، ذلك أن هناك فرقاً كبيراً بين الجملة الإنشائية (يا أبا معارفي) التي تدل على مجرد نداء يقصد منه استحضار الذهن ولفت الانتباه إلى ما يليه، وبين الجملة الخبرية (أبو معارفي أنت) التي تتضمن تقريراً واعترافاً بواقع الحال!!

وفي ما يتعلق بالمحسنات البيانية والبديعية، فإن القطعة تتضمن شيئاً قليلاً منها^(١).

وهكذا نرى أن ابن زمرك قد مزج في رسائله مرسل الكلام بمسجعه ولئن كان أكثر مسجعه متكلفاً، فإنه في مرسله بعيد عن التكلف يكتب على سجيته.

وتجدر الإشارة، بهذه المناسبة، إلى أنه كان يأتي بالسجع في مقدمات

(١) مجازاً مرسلأ (أياديه)، وكنائين (أنخنا المطية)، وخس استعارات (ظَهَرُ الشكر)، وسبعة جناسات ناقصة (تعددت وتجددت، تقديم وتقويم).

رسائله، بغرض التمجيد والتعظيم، حتى إذا أراد أن يعبر عن حاجاته ورغباته، ويحدث عن أخباره، تراح يرسل الكلام إرسالاً. وهذا شيء طبعي يحمد عليه. ذلك «أن السجع، لما كان زينة للكلام، فقد يدعو إلى التكلف، فرأيي ألا يستعمل في جملة الكلام وألا يخلى الكلام بالجملة منه أيضاً... (و) لا يحسن في الكلام جميعاً أن يكون مستمراً على غلط واحد، لما فيه من التكلف، ولما في الطبع من الملل عليه، ولأن الافتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد...»^(١).

على أن أهم الملاحظات التي يمكن استخلاصها مما سبق عرضه، أن ابن زمرك لا يلجأ إلى استعمال الغريب من الألفاظ، فألفاظ رسائله سهلة لا تعقيد فيها ولا غرابة، ولا تستوجب، البتة، البحث في بطون المعاجم وأحشاء القواميس، وهذه خاصة يتصف بها في كل نتاجه الأدبي، وتميزه عن كثير من الكتاب الذين جروا على إدخال الغريب من الألفاظ في رسائلهم. ثم إنه كان يضمن كتاباته وجوهاً بيانية أكثرها استعارات، وجوهاً بديعية أكثرها جناس ناقص. ولقد كانت جملة، في أكثرها، غير متساوية، إذ لم يكن يهتم للمزاوجة بين الجمل، ولكنه، بالمقابل، كان يصوغ الكلام صياغة قوية، ويعبر عن أفكاره في تراكيب سلسلة سليمة لا تجد فيها أمثاً ولا شذوذاً. وهو، كعادة كتاب عصره، كان كثيراً ما يضمّن رسائله من الأمثال أقوالاً سائرة، ومن الشعر أبياتاً أو أشطراً من أبيات، كما أنه كثيراً ما يبدأ رسائله بمقطعات من شعره.

وإذا كان لا بدّ من تصنيفه في مدرسة من مدارس النثر فهو أقرب إلى مدرسة التصنيع من مدرسة التصنع، في الوقت الذي كان فيه كتاب عصر الانحطاط يغوصون حتى أعناقهم في مستنقعات المزدول من الكلام المتكلف.

(١) حازم القرطاجني: «مناهج البلغاء وسراج الأدباء»، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس،

الفصل الثاني

شعره

ذكرت في فصل سابق أني جمعت لابن زمرك ألفين وستمائة وأربعة عشر بيتاً من الشعر. وقلت إن هذه الأبيات تبلغ ما يقارب نصف إنتاجه الشعري. ولقد قمت، بعد قراءة هذه الأبيات قراءة متأنية، بإجراء إحصاء يتعلق بأغراض ابن زمرك في شعره. فوجدت أن المدح الصرف تجاوز نصف ما بقي لدينا من شعره، وأن الوصف بلغ الخمس، والنسيب قارب العشر.

هذا بالنسبة إلى الأغراض الصرفة، أما بالنسبة إلى عدد القصائد والمقطعات، بغض النظر عن تنوع الأغراض في القصيدة الواحدة، فقد قمت، أيضاً، بإحصاء دقيق لها، تبين لي بنتيجته أن ما جمعته لابن زمرك من شعر يتضمن اثنتين وخمسين قصيدة (من سبعة أبيات فما فوق) وستين مقطعة (من بيت واحد إلى ستة أبيات)، خص منها الغني بالله بثمان وثلاثين قصيدة وتسع وعشرين مقطعة، منها تسع على الأقل، منقوشة على جدران الحمراء، وخص منها ملوكاً آخرين (كأبي الحجاج يوسف الثاني ومحمد السابع ملكي غرناطة بعد الغني بالله، وأبي سالم إبراهيم وأبي فارس عبد العزيز وأبي العباس أحمد ملوك المغرب) بخمس قصائد وخمس مقطعات. وفي مدح الوزراء والكتّاب (كلسان الدين وابن خلدون والشريف الحسني وابن مرزوق، وكتّاب السلطان أبي العباس أحمد) كان بينها ست قصائد وإحدى عشرة مقطعة. وقد

استقلت منها قصيدة وأربع مقطعات بالوصف، كما استقلت مقطعتان بالغزل. أما سائر الأغراض من فخر ومداعبة وسخرية وغير ذلك فقد نظم فيها ابن زمرك ثمانى مقطعات مجموع أبياتها عشرون. وقد جعلت هذه الأبيات الأخيرة خارج مرمى الدراسة، لأنها لا تشكل شيئاً ذا بال، لا كمّاً ولا كيفاً، ولا تستحق، بالتالي، أن يقف الدارس عندها.

فإذا ما جمعنا، بعد هذا، ما نظمه ابن زمرك في غرض المدح، وما يتصل به من تهنئة وشكر، وجدناه بالغاً ستاً وأربعين قصيدة وواحدة وأربعين قطعة أي ما مجموعه ألفان وثلاثمائة وستة وثلاثون بيتاً - أي ما نسبته تسعون بالمئة، تقريباً، من مجموع الأبيات. هذا مع التذكير بأن قصائد المدح لا تقتصر، بالطبع، على المدح الصرف، وإنما تتضمن أيضاً، أحياناً كثيرة في الوصف والنسيب، تتجاوز ربع مجموع الأبيات بقليل.

فإذا أضفنا إلى هذا أن الرثاء، إنما هو، في حقيقته، غرض مدحي استطعنا، بالتالي، أن نتبين أن أغراض شعره، تكاد تنحصر في غرض واحد رئيس هو المدح. ذلك أن الوصف والنسيب، وإن كانا يشكلان ربع الأبيات إلا أن الشاعر لم يقصدهما لذاتهما، وإنما جاء بهما في استهلالات قصائده، فكانا مجرد إطار للغرض الرئيس وأعني به المدح.

ثم إذا تذكرنا أن أكثر هذا المدح إنما قيل في الغني بالله عرفنا إلى أي مدى وصل الشاعر بوصفه شاعراً مداحاً. فقد يخيل إليّ أن ابن زمرك لم يكن يشعر ليعبر عن نفثات صدره ولا حركات قلبه، فالشعر، بالنسبة إليه، وسيلة لا غاية، وسيلة للاحتفاظ برضاء مولاه الملك، لأن استمرار رضاه يعني استمرار جاهه ورفاهيته هو. فشعره، بهذا المعنى، ليس أدباً صرفاً بقدر ما هو طريق إلى النفوذ السياسي، بل قل هو سياسة بكل ما في هذه الكلمة من معنى حديث.

وهذا الكلام، لا يطعن، بالطبع، في شاعرية صاحبنا ابن زمرك، ذلك أن الشعر فن وصنعة: فالصنعة تستلزم معرفة وثيقة بقواعد اللغة وطرق التعبير وعلوم البلاغة والعروض وإطلاعاً واسعاً على التراث، ولقد كان ابن زمرك يملك هذه المستلزمات بغير أدنى شك، والفن يستلزم، إلى جانب المخزون الثقافي، ذوقاً أدبياً رفيعاً وعاطفة قوية صادقة. فأما الذوق الأدبي فقد ثَمَّاه ابن زمرك بحفظه، منذ صغره، كثيراً من الأشعار والقصائد لكبار الشعراء. وأما العاطفة فنوعان: عاطفة نحو ذاته وعاطفة نحو غيره. فإذا كانت العاطفة الأخيرة لا تظهر بقوة ووضوح في كل أشعاره فلأن عاطفته الأولى هي التي تطفئ على كل شيء. ومن يستطيع أن ينكر أن ابن زمرك كان مدفوعاً بعاطفته الذاتية (وتجسد في طلبه الجاه والسمو الدائمين) إلى نظم القصائد المدحية التي كان يستوجبها إرضاء السلطان الدائم؟؟.

وجرياً على عادتي في وضع الجداول الإحصائية، بدأت دراستي لشعر ابن زمرك بوضع جداول أحصيت فيها المحسنات البلاغية على أنواعها والألفاظ والتعابير المكررة، والسقطات اللغوية والمعنوية والجوازات الشعرية المستحسنة والمستبعدة، لاعتقادي أن هذه الجداول ستمدني بأشياء كثيرة تستلزمها الدراسة الرصينة.

وفي أول الطريق، يحسن بي أن أذكر الخط الذي أود أتباعه في دراستي شعر ابن زمرك: سأبدأ بالكلام على موشحاته، ذلك أنها لا تخرج على كونها شعراً بالتأكيد، ومع أنها لا تختلف اختلافاً ذا بال عن قصائده، لأسباب سأتبناها بعد قليل، فقد خصصت مضمونها بدراسة مستقلة قصيرة. ثم لما كان المدح أهم أغراضه وكانت المولديات أهم أمداحه، فإني سأحدث بالترتيب عن مولدياته وأمداحه وراثته وفخره ثم أخصص فصلاً للحديث عن وصفه وغزله، وعن النزعة الصوفية في شعره.

المبحث الأول: موشحاته

سبقت الإشارة إلى أن لابن زمرك خمس عشرة موشحة ذكرها المقرئ في كتابيه «أزهار الرياض...» و«نفع الطيب...» مع أنه لم يذكر غيره أكثر من ست موشحات وذكر للسان الدين أربعاً^(١). ومع أني لا أشك في أن لسان الدين كان أمهر من ابن زمرك في الشعر والموشحات^(٢) إلا أن من الظاهر اكتساب ابن زمرك شهرة خاصة في فن التوشيح. وذلك أني لم أقرأ كتاباً في هذا الفن إلا وقرأت فيه اسم شاعرنا بين كبار أصحاب الموشحات. وأذكر على سبيل المثال ما جاء في كتاب «الموشح في الأندلس وفي المشرق»^(٣).

«وقد لا نخطيء إذا لاحظنا أن ابن سهل الإسرائيلي ولسان الدين بن الخطيب وابن زمرك هم من أكبر وشاحي الأندلس... فأرى أن اقتصر على إيراد مثل من موشحات ابن زمرك التي يخيل إلّي إنها من أجمل موشحات الأندلس إيقاعاً وألفها موسيقى ووزناً وقافية...»^(٣).

وتقسم موشحات ابن زمرك من حيث الوزن إلى أربعة أقسام: ثمان منها منظومة على بحر مخلع البسيط، وأربع على السريع، واثنان على مجزوء الرمل، وواحدة على مجزوء الرجز^(٤). أما من حيث عدد الأبيات، فهناك ثمان ألفت كل منها من خمسة أبيات، وخمس كل منها من سبعة أبيات، واثنان كل منهما من تسعة أبيات^(٥). وأما أغراضها فهي أغراض ابن زمرك

(١) يراجع فهرست الموشحات في «نفع الطيب...» الصفحات ٤٥٣ و ٤٥٤ و ٤٥٥ و ٤٥٦ من المجلد الثامن.

(٢) يكفي أن نذكر، في هذا المجال، موشحة لسان الدين «جداك الغيث» التي يعارض فيها موشحة ابن سهل.

(٣) ص ٢٧.

(٤) يذكر غرسيا - غومس ان لابن زمرك ١٤ موشحة والحقيقة أن له ١٥. ثم يرجع أن أحداها نظمت على المنسرح مع أنه لا أثر لهذا البحر في كل أشعار ابن زمرك. (مع شعراء الأندلس...، ص ٢١٦ و ٢٦٢).

(٥) المقصود بالبيت هنا الأسطار الموجودة بين قفلين مهما يكن عددها.

نفسها في قصائده. والواقع أن موشحات ابن زمرك هي أقرب إلى القصائد منها إلى الموشحات. فأغراضها، باستثناء المولدية، وصف وغزل وحنين وخرجات، وهي أغراض شديدة الصلة بالغناء والموسيقى، ولكنها أغراض ضمّنها الشاعر قصائده.

وإذا كان لا يعني هنا، أن أتحدث عن نشأة الموشحة وأصلها^(١)، فأني معني، حتماً، بالحديث عن موسيقاها ولغتها وتركيبها وتسمية أجزائها حتى أستطيع بعد ذلك، أن أؤكد زعمي القائل إن موشحات ابن زمرك لا تختلف عن قصائده إلا من حيث تعدد القوافي وسهولة التعبير، وما تركته هذه السهولة وذلك التعدد من إيقاع موسيقي لا نجده في قصائده. أما الأغراض وأما البحور فكلها متشابهة كما ذكرت، سواء كان ذلك في القصيدة أم في الموشحة.

على أن أخص الأشياء المتصلة بالموشحة، لم يتبعها ابن زمرك. فقد وجد في عصر لم يعد للتوشيح فيه قيمة، وهذا ما أكده لسان الدين حين قال:

«ومما قلته من الموشحات التي انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها...»^(٢).

ولا بدّ، هنا، من وقفة عند هذه النقطة: إذ لم يعد يخامر أحداً شك في أن الموشح قد ازدهر في القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين). وليس صحيحاً أن هذا الفن بلغ ذروته في القرنين

(١) ثار حول هذا الموضوع جدال عنيف وخلافات كثيرة لم نحسم حتى اليوم، وذلك في ما ورد من أقوال وآراء في الكتب الكثيرة التي ألفت للكلام على هذا الفن، ولعل أحدثها وأشملها كتاب: «الموشحات الأندلسية» للدكتور محمد زكريا عثاني، صدر في سلسلة عالم المعرفة، وقد فند فيه جميع الآراء والمزاعم فنفي بعضها ومال إلى تأييد بعضها الآخر بالاستناد إلى ما جاء في أمات المصادر من أقوال تتصل بالتوشيح: نشأته وأصله.

(٢) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٧: ٦٥.

السابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين)، بدليل ما جاء في قول ابن الخطيب المذكور أعلاه. والسبب في أن رسم الموشح قد طمس يكمن في أحوال نفسية وظروف حياتية معينة: فالمعروف أن الهجمات الاسبانية كانت تتوالى، وأن مصير غرناطة كان، كما ذكرت سابقاً، على كف عفريت، وفي هذه الحالة، يكون سلطان الدين أقوى من أي سلطان آخر، ويكون سلطان الفقهاء، بالتالي، أقوى من سلطان الحكام. ولما كان الفقهاء في طليعة المحافظين، في كل عصر، فقد كان على الشعراء ألا يخرجوا عن تقاليد الشعر الذي يرضى عنه الدين وترضى عنه الأصول العربية المحافظة التي تعد كل خروج على هذه التقاليد خروجاً على الأخلاق والدين. فما قولك بالموشحات وأكثرها خارج عن دائرة البحور الخليلية؟ ومن أجل هذا استنكف كثير من المؤلفين القدامى عن ذكر الموشحات في مؤلفاتهم!

لهذا كله، كانت موشحات القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، على أتسام بعضها بالرونق والجمال والابداع، قريبة من القصائد، غير معدودة في جملة الموشحات الحقيقية لخروجها على كثير من صفات الموشحة وتقاليدها. ومنها أن تكون الخرجة - وهي القفل الأخير من الموشح - «حجاجية من قبل السخف، قرمانية من قبل اللحن، حارة محرقة، حادة منضجة، من ألفاظ العامة، ولغات الداصة، فإن كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدمها من الأبيات والأقوال، خرج الموشح من أن يكون موشحاً، اللهم إلا إن كان موشح مدح وذكر اسم الممدوح في الخرجة فإنه يحسن أن تكون الخرجة معربة»^(١).

وقد تكون الخرجة معربة وإن لم يكن فيها اسم الممدوح ولكن «بشرط أن تكون ألفاظها غزلة حادة هزاة سحارة خلاصة، بينها وبين الصبابة قرابة،

(١) ابن سناء الملك: «دار الطراز في عمل الموشحات»، حققه د. جودت الركابي، دمشق،

وهذا معجز معوز^(١)، وربما كانت الخرجة عجمية اللفظ «بشرط أن يكون لفظها أيضاً في العجمي سفسافاً نفطياً ورمادياً زطياً»^(١).

ويتحدث ابن سناء الملك في كتابه «دار الطراز..» حديثاً مستفيضاً عن الخرجة، فيذكر، بالإضافة إلى ما ذكر، أن الخرجة ملح الموشح وسكره ومسكه وعنبره، ويقول إن من المتأخرين من يجد مشقة في تأليف خرجة تجتمع لها كل هذه الصفات، فهو يبني موشحة على خرجة ألفها غيره، وهو يرى أن هذا العمل أفضل من الوقوع في التكلف الذي قد يتعرض له المتأخر في سعيه لوضع خرجة من تأليفه^(٢). ويلاحظ أن الشطر الذي يسبق الخرجة، يجب أن يتضمن كلمة تحمل معنى القول كقال وغنى وأنشد... ويستحسن في الموشح أيضاً أن يخرج وزنه عن الأوزان الخليلية. وقد هاجم ابن سناء الملك الموشحات التي ينظمها صاحبها على أوزان تقليدية^(٣)، ووصفها بالمخمسات. على أن الموشح، إذا نظم على بحر خليلي، كان من الأفضل أن تنوع فيه القوافي، شرط أن يتألف، في الأكثر، من خمسة أبيات وستة أفعال، من ضمنها المطلع والخرجة^(٣).

وتمتاز الموشحة عن القصيدة، أيضاً، برقة ألفاظها وعذوبتها وصفائها وسهولتها وذلك لأنها نظمت، في الأصل، لكي تغنى، فلا يمكن بعد هذا أن تتضمن ألفاظاً تستعصي على الفهم، أو تركيباً فيه لون من ألوان التعقيد.

فإذا دققنا في ما سبق قوله، ثم عدنا إلى موشحات ابن زمرك وقرأناها قراءة جديدة واعية، وجدناها لا تنطبق على مفهوم الموشحة الذي ساد في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وخاصة في ما يتعلق

(١) ابن سناء الملك: «دار الطراز في عمل الموشحات»، حققه د. جودت الركابي، دمشق، ١٣٦٨ هـ.

/ ١٩٤٩ م، ص ٣٠ - ٣٢.

(٢) نفسه، ص ٣٣ وما بعدها.

(٣) نفسه، ص ٣٧ وما بعدها.

بالخرجة، فابن زمرك لا يأتي بخرجة عامية إلا في موشحة واحدة، ثم إن هذه العامية التي ليس فيها شيء من الحرارة ولا السخف ولا العجمة، يتضمنها الشطر الأخير من الخرجة فقط:

يَا مُلْهِمَ الْقَلْبِ لِلْغُيُوبِ وَمُطْعِمَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ
أَسْمَعَكَ اللَّهَ عَنْ قَرِيبٍ «عَلَى السَّلَامَةِ مِنَ السَّفَرِ»^(١)

ثم إن موشحاته تتضمن أقفاً مؤلفة من أربعة أشطر، وأحياناً مؤلفة من ستة أشطر:

قَدْ نَظِمَ الشَّمْلُ أَتَمَّ انْتِظَامٍ وَاعْتَنَمَ الْأَحْبَابُ قُرْبَ الْحَبِيبِ
وَاسْتَضْحَكَ الرُّوضُ تُغُورَ الْغَمَامِ عَنْ مَبْسِمِ الزَّهْرِ الْبُرُودِ الشَّنِيبِ
وَعَمَّمَ النُّورُ رُؤُوسَ الرُّبَى وَجَلَّلَ النُّورُ صُدُورَ الْبِطَاحِ
وَصَافَحَ الْقُضْبَ نَسِيمُ الصَّبَا فَالزَّهْرُ يَزْنُو عَنْ عُيُونٍ وَقَاحِ
وَعَاوَدَ النَّهْرُ زَمَانَ الصَّبَا فَقُلْدَ الزَّهْرِ مَكَانَ الْوَشَاحِ
وَأَطْلَعَ الْقَصْرُ بُرُودَ التَّمَامِ فِي طَالِعِ الْفَتْحِ الْقَرِيبِ الْغَرِيبِ
خُدُودُهَا قَامَتْ مُقَامَ الْغَمَامِ فَلَا اسْتَكَى مِنْ بَعْدِهَا بِالْمَغِيبِ^(٢)

ما عدا واحدة كان قفلها من شطرين اثنين ومطلعها:

وَجْهٌ هَذَا الْيَوْمِ بِاسِمٍ وَشَذَا الْأَزْهَارِ نَاسِمٍ^(٣)

وقد ضمن ابن زمرك خرجة إحدى موشحاته شعراً لابن وكيع:

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٩. و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٤٢.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٩٧. و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٥٨ و٢٥٩.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢٠٠. و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٦١.

«غَرَدَ الطَّيْرُ فَنَبَّهَ مَنْ نَعَسَ» يَا مُدِيرَ الرَّاحِ
«وَتَعَرَّى الْفَجْرُ عَنْ ثَوْبِ الْغَلَسِ» وَانْجَلَى الْإِصْبَاحُ^(١)

وبنى موشحة أخرى على مطلع موشحة لابن الخطيب، ذكره بتمامه في
الخرجة:

أَنْجَزَ لِي وَعَذَكَ الْقُبُولُ فَلَمْ أَقْلَ مِثْلَ مَنْ يَقُولُ
«يَا سَرَحَةَ الْحَيِّ يَا مَطُولُ شَرُحُ الَّذِي بَيْنَنَا يَطُولُ»^(٢)

كما بنى موشحة ثالثة على مطلع موشحة لابن سهل، وجعله، هو
نفسه، خرجتها فقال:

خُذْهَا عَلَى دَعْوَى تُزْرِى عَلَى الرَّوْضِ الْوَسِيمِ
جَاءَتْ كَمَا تَهْوَى أَرْقَ مِنْ لَذَنِ النَّسِيمِ
قَدْ طَارَحَتْ شَكْوَى مَنْ قَالَ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ
«لَيْلُ الْهَوَى يَقْظَانُ وَالْحُبُّ يَرْبُ السَّهَرِ»
«وَالصَّبْرُ لِي خَوَّانُ وَالنُّوْمُ مِنْ عَيْنِي بَرِي»^(٣)

وتجدر الإشارة إلى أن لابن زمرك موشحة، خرجتها هي مطلعها نفسه،
لم يغير فيه شيئاً:

رَبِّحَانَةُ الْفَجْرِ قَدْ أَظَلَّتْ خَضِرَاءَ بِالزَّهْرِ تَزْهَرُ
وَرَايَةُ الصُّبْحِ قَدْ أَظَلَّتْ فِي مَرْقَبِ الشَّرْقِ تُنْشَرُ^(٤)

وهكذا نرى أن موشحات ابن زمرك، بعدم تضمينها شروط التوشيح
التي حددها ابن سناء الملك في كتابه «دار الطراز...»، لا تمتاز عن قصائده

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢٩٤ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٥٥.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٨١ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٤٤.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٨٦ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٤٩.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٨٩ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٥١.

إلا بقدر كاف من العذوية والموسيقى النابعتين من سلاسة التركيب وسهولة الألفاظ وتصريح الأجزاء وتعدد القوافي. ولهذا فإني اكتفي بهذا القدر من الحديث عن موشحات شاعرنا، لأن الفصول اللاحقة سوف تتضمن تقويماً عاماً لشعره، بما فيه موشحاته.

المبحث الثاني: شعره المدحي

مولدياته:

يطلق اسم المولدية على القصيدة التي ينظمها الشاعر بمناسبة مولد رسول الله، ﷺ، يشيد فيها بذكره ويشير إلى بعض معجزاته. إنها، باختصار، قصيدة مدح لا تختلف كثيراً عن قصائد المدح العادية، إلا من حيث دفع العاطفة وقوتها.

ولقد كان يحتفل بهذه الذكرى ليلة الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام، فيجلس الغني بالله في صدر الايوان ويجتمع حوله عليه القوم ومن بينهم الشعراء الذين نظموا قصائدهم المولدية لإلقائها في البلاط.

ولم يكن هذا الاحتفال سائداً قبل القرن السادس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وقد اختلف حول تاريخ البدء به. وفي الوقت الذي عدّه بعض العلماء بدعة غير مستحبة، انبرى علماء آخرون لتأييده وتحبيذه. وقد ألف السيوطي كتاباً بعنوان: «حسن المقصد في أعمال المولد» لخص فيه تاريخ هذه الذكرى وفصل آراء الفريقين المتناقضة حول شرعية الاحتفال أو عدمها، وخلص في النهاية إلى عدّ المولد ذكرى تستحق الاحتفال. ومع أنه أيد قول القائلين إن هذا الاحتفال بدعة، إلا أنه وصفها بالبدعة الحسنة^(١).

ثم إن المسلمين أجمعوا بعد ذلك على وجوب الاحتفال بهذه الذكرى

(١) يراجع بحث أحمد سلمي في مجلة «ايسبيريس»، العدد ٤٣، سنة ١٩٥٦، ص ٣٤٣-٣٨٨.

بشرط عدم القيام بأي شيء يسيء إلى صاحبها، وذلك بالابتعاد عن المظاهر التزيينية والاكتفاء بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم ثم بسرد سيرة المولد والانتهاه بالاستغفار والدعاء، والصلاة على النبي المختار.

كانت غرناطة إذاً، تحتفل بهذه الذكرى في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وفي عهد الغني بالله على الأخص. وكان الشعراء الذين يحضرون الاحتفال يلقون قصائدهم أمام السلطان محمد الخامس وأكابر الدولة، وكانوا يجزون أحسن الجزاء. وعلى كثرة المولدات التي أُلقيت في ذلك البلاط، فإن المصادر لم تحتفظ منها إلا بإحدى عشرة مولدية^(١).

ولا بدّ، هنا من إبداء ملاحظتين اثنتين: الأولى هي أن المصادر لم تحتفظ من مولديات لسان الدين إلا اثنتين^(٢)، ولم تأت على ذكر مولدياته التي ألّفها بين يدي الغني بالله، وهذا شيء غريب حقاً. الثانية هي أن ابن زمرك، لحسن الحظ، صاحب أكبر عدد من المولدات الباقية^(٣).

(١) منها ستة لابن زمرك (من بينها موشحة)، ومولدية لابن خلدون في سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، ومولدية لابن يشت (وهو أبو سلطان عبد العزيز بن علي... بن يشت، من غرناطة، كتب في ديوان الأعمال وترقى إلى الكتابة السلطانية ولازم الشيخ أبا بكر عتيق بن مقدم من مشيخة الصوفية. يراجع المقرئ: «نفح الطيب...»، ٦: ١١٥)، وأخرى لعطية المحاربي (وهو القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى... ابن عطية المحاربي، ولد في وادي آش آخر عام ٧٠٩هـ/١٣١٠م، وتولى الخطابة والإمامة بها عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧ - ١٣٣٨م. ثم ولي القضاء بها وبأعمالها عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢ - ١٣٤٣م، ثم انتقل إلى غرناطة آخر رجب عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، وولي الخطابة بالجامع الأعظم وعمل رئيساً للكتاب تحت يد لسان الدين. يراجع المقرئ: «نفح الطيب...»، ٧: ٢٨٢ - ٢٨٥)، واثنتان لعبد الله بن لسان الدين في سنتي ٧٦٤هـ/١٣٦٢م و٧٦٥هـ/١٣٦٣م.

(٢) ألقاهما في بلاط السلطان المغربي أبي سالم سنتي ٧٦١هـ/١٣٦٠م و٧٦٣هـ/١٣٦١م.

(٣) إذا استثنينا من مولدياته الموشحة والقصيدة التي لم يبق منها إلا مطلعها:

تأمل اطلال الهوى فتألم	وسميا الجوى والسقم منها تعلم
أخو زفرة هاجت له نار ذكرة	فأنجد في شعب الغرام وأتمها

=

على أن هذه المولديات لا تختص بمدح الرسول وحسب، بل تضمنت إلى جانب هذا المدح قسمين آخرين على الأقل: إذ كان ابن زمرك، كغيره من شعراء عصره، يبدأ المولدية بمقدمة غزلية رحلية ليبر منها إلى مدح الرسول، ثم لا ينسى بعد ذلك أن يمدح الغني بالله ويختتم مولديته ببيت على الأقل يفتخر فيه بشاعريته وروعة قصيدته. وهو لا يخرج على هذا التقليد إلا نادراً. فقد يلجأ، في بعض الأحيان، إلى تضمين مولديته، بعد مدح سلطانه، وصفاً للمشور (النونية) أو ذكراً للقباب المنصوبة قبيل المعركة ولتهيؤ الفرسان للقتال (اللامية). غير أن ابن زمرك، بناء على طلب الغني بالله، أفرد حائيته لمدح الرسول، ولم يخص سلطانه منها إلا بثلاثة أبيات مدحية وحسب.

ولئن جرى الشعراء الأندلسيون، بصورة عامة، على تقليد المشاركة، بمختلف أغراضهم كما سنرى، فلقد حرصوا، بصورة خاصة، على تقليدهم في ما يتعلق بمدح الرسول. ولئن كانت قصيدة «بانت سعاد» لا تزال عالقة في أذهاننا حتى اليوم، فأحرّ بالأندلسيين أن يكونوا حفظوها وتعلقوا بها.

على أنه تجدر الإشارة، هنا، إلى التمييز بين المولدية وقصيدة مدح الرسول. فمع أن القصيدتين تشتركان في أنها تتضمنان مقدمة غزلية ومدحاً للرسول، إلا أنها تختلفان في أن المولدية تنظم مرة في العام بمناسبة خاصة، وتلقى من قبل شاعر البلاط عادة، في حين أن قصيدة المدح النبوي، لا

= استطعنا أن نضع الجدول الآتي في سائر مولدياته:

المولدية	عدد الأبيات	البحر	الروى	مولد سنة
الأولى	٧٧	الطويل	النون	١٣٦٣هـ/١٣٦٣م
الثانية	٧٦	الكامل	الهمزة	١٣٦٧هـ/١٣٦٥م
الثالثة	٧٧	البسيط	الحاء	١٣٦٦هـ/١٣٦٦م
الرابعة	١١٠	الكامل	اللام	١٣٦٩هـ أو ١٣٧٠هـ؟
				(١٣٦٧ أو ١٣٦٨م؟)

مناسبة خاصة لها سوى تعلق صاحبها بحب رسول الله، ولا تلقى، بالضرورة، في بلاط معين.

بعد هذا التمهيد القصير، أعرج على مولديات ابن زمرك فأختار منها اللامية لدراستها دراسة مفصلة. لم يحدد المقرئ في «أزهاره» السنة الهجرية التي أُلقيت فيها هذه المولدية، وإن كان قد ذكر، نقلاً عن السلطان يوسف الثالث، أن «من بدائع المنيفة عيدية ميلادية وافقتها وجهة من غزوات مولانا الجد»^(١). وعلى الرغم من هذا، لعلني أستطيع أن أرجح أن ابن زمرك نظم لاميته هذه في سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م أو سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م. ذلك أن الغني بالله قام في هذه الفترة نفسها، بغزوات كثيرة داخل أراضي قشتالة، فصلها ابن الخطيب في رسالته لابن خلدون^(٢).

وقد بدأ ابن زمرك مولديته بالمطلع الغزلي التالي:

لَوْ كُنْتُ أُعْطِي مِنْ لِقَائِكَ سُؤلاً لَمْ أَتَّخِذْ بَرَقَ الْغَمَامِ رَسُولاً^(٣)

ثم انطلق في هذه المقدمة متحدثاً عن شكواه إلى الرياح التي لم تستطع أن تخفف من لوعته. ذلك أنه تذكر منزل حبيته وأيامه التي قضاها هناك، ينعم بقرها ويتنشي بتعاطيها الهوى معاً، حتى إذا عاد، اليوم، إلى منزل الحبيب، رآه ظللاً مهجوراً، فأنكره في البدء، ثم تعرف إليه من آثاره الباقية، فلم يستطع أن يحبس دمه، فبكى وبكى حتى استنفد دموعه، وأحس بفقدان صبره بعد رحيل الحبيب، وأدرك أنه لن يستطيع تحمل الفراق، لشدة ما يحمل في صدره من حب عظيم لا يماثله حب قيس ولا حب جميل. وخطر له أن يلوم قلبه على ما أوقعه فيه، ثم تذكر أنه لم يخرج على عادة قومه في الحب والصبابة، فليُلم، إذاً، حبيته الحسناء التي لو تركته يروي ظمأه من

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٦.

(٢) ابن خلدون: «التعريف...»، ص ١٩١ - ٢٢٤.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٦، ٩٧.

حسنها وجمالها، لما اضطر إلى سفح «نيل» دموعه!.

ثم راح يعلل فؤاده ببلقائها، ومعني نفسه بالقرب منها، فإذا بشجو حديثه يصل إلى العندليب فيعديه ويروح يهدل بحزن، ويصل إلى الشمس فتأثر به ويشحب لونها وتبدأ بالمغيب. ويختم هذه المقدمة الغزلية بقوله:

وَسَرَيْتُ فِي طَيِّ النَّسِيمِ لَعَلَّنِي أَحْتَلُ حَيًّا بِالْعَقِيقِ حُلُولًا^(١)

وتذكره كلمة العقيق - وهو مكان قريب من المدينة المنورة - بالقافلة الذاهبة إلى المدينة، فيشعر بشوق إلى زيارتها، شبيه بشوقه إلى المحبوبة، وسرعان ما ينتقل إلى وصف القافلة بعد أن يقول:

هَذَا وَوَجْدِي مِثْلُ وَجْدِي عِنْدَمَا اسْدَ تَشَعَّرْتُ مِنْ رَكْبِ الْحِجَازِ رَجِيلًا^(٢)

فيصف كيف سارت النوق متتابعة، قد أثرت فيها مشاق الطريق حتى أضنتها وحتى راح ركابها يترنحون من خمر النصب، غير خائفين من أن يضلوا الطريق إلى المدينة، لأن تشوقهم إلى رؤية قبر الرسول سيكون دليلهم إليها. ولما كان الشاعر يعرف هؤلاء المسافرين، فهو لا يلبث أن يناديهم: أيها الراحلون بقلوب ملؤها الحب والحنين، أناشدكم، بما بيننا من مودة ووفاء، أن تقوموا عني بلثم ثرى القبر الشريف حين تصلون إليه. ثم يحس الشاعر أن هذا لا يكفي فيحدث نفسه قائلاً: عليّ أن أزور المدينة بنفسي، وأرجو أن تتاح لي الفرصة للقيام بهذه الرحلة يوماً، عليّ أشاهد شامة وطفيل:

وَأَحْطُ فِي مَثْوَى الرَّسُولِ رَكَائِي وَأَبِيتُ لِلْحَرَمِ الشَّرِيفِ نَزِيلًا^(٣)

وهنا يصل الشاعر إلى غرضه الرئيس فيبدأ بوصف المدينة، دار الهجرة، حيث حل النبي، وحيث فصلت أحكام الرسالة من تحليل وتحريم،

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٦ و ٩٧.

ورست أركان الشريعة، فكان الهدى وكان الحق الذي: «مَحَقَّ الضَّلَالَ
وَأَذْهَبَ التَّضْلِيلَ»^(١).

ثم يندفع الشاعر إلى مدح الرسول وتعداد بعض معجزاته من انهمار
المطر بعد انحباسه، استجابة لدعائه، وارتداد الشمس بعد غروبها، وملازمة
الغمامة له لتظلمه من حر الشمس... ويتابع الشاعر مديحه النبوي قائلاً:
هو علة خلق الكون، فلولاه لم يكن، ولا لاحت النجوم، ولا بدت
الشمس، ولولاه لما عُبد الله سبحانه. لقد أرسله الله، تعالى، رحمة للعالمين،
وحجة على الناس، ذلك أنه أنزل عليه الذكر الحكيم مفصل الآيات، ليبشر
الناس وينذرهم.

ثم يخاطب الرسول الكريم فيقول له: لقد أثنى عليك الله في القرآن
والانجيل والتوراة، فماذا عسى أن يقول البليغ في الثناء عليك؟ لا شك في
أنه سيجد نفسه مفلول اللسان مضيع الجهد. يا شفيع الناس يوم الحساب،
تشفع لي فقد غدت ذنوبي كثيرة، إذ ضيعت عمري في الهوى وجمحت بي
البطالة حتى تعثرت بجهلي، فهلا أقلت عثاري يا من اختاره الله أمين
وحيه!، إلاً تَرْضَ عني فليس لي وسيلة للخلاص!، وإذا لم يكن لي زاد من
الأعمال الصالحة فإن ما يشفع لي لديك حبي لك.

ثم يختم الشاعر هذا المديح النبوي، كعادته في مولدياته، بالصلاة على
الرسول:

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مَا رَكَّبَ سَرَى فَأَجَدَّ وَخَدَّاً فِي الْمَفَارَةِ مَيْلاً^(١)
وينطلق بعد هذا البيت، مباشرة ودون تمهيد أو حسن تخلص، إلى

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٩٦٠٢، ٩٧٠.

مدح سلطانه الغني بالله، فيتحدث عن جهاده وعزمه وجوده ونسبه وفضائله، وفتوحاته وغزواته وتحطيمه جيوش أعدائه وتدمير ضياعهم، ويذكر إحياء عيد المولد هذا وهو يتأهب للجهاد من جديد، فيصف القباب المنصوبة ومواقد النيران، والخيول وفرسانها الأبطال الذين يكبرون تمهيداً لدخول المعركة الآتية. إنها ليلة تساوي عمراً بكامله ولو خير الشاعر بينها وبين العودة إلى الشباب لما تردد في اختيارها! :

وَاللَّهِ لَوْ عَوَّضْتُ عَنْكَ شَيْبَتِي مَا كُنْتُ أَرْضَى بِالشَّبَابِ بَدِيلًا^(١)
ثم يتوجه في آخر قصيدته إلى الغني بالله فيخاطبه قائلاً: يا ملكاً نصر الإسلام، جهز جيوشك للجهاد، وقم بغاراتك في عمق أراضي العدو، فإن الله سيشملك بالنصر والتوفيق. ثم ينهي هذه المولدية، كعادته، بيتين يفتخر فيهما بشاعريته :

وإِلَيْكَ مِنْ سُمْرِ الْجَهَادِ غَرِيبَةٌ جَاءَتْ تَقَرُّطُكَ النَّشَاءَ جَمِيلًا
وَأَطْلُتُ لِكِنِّي أَطْبْتُ وَعَادَتِي أَلْفَى مُطِيبًا فِي الْمَدِيحِ مُطِيلًا^(٢)

ويختم القصيدة، أخيراً، بالبيت المدحي الآتي:

لَا زَالَ نَصْرُكَ كُلَّمَا اسْتَنْجَدْتَهُ لِمُهُمَّ دِينِكَ عَائِدًا مَوْصُولًا^(٣)
وهكذا نرى كيف مزج ابن زمرك، في قصيدته هذه، النسب والمدح النبوي والمدح السلطاني والفخر بالشاعرية، ولو عدنا إلى مولدياته لألفيناها تشترك بهذه الأشياء جميعاً. بل إن هذا الاشتراك وصل، في أحيان كثيرة، إلى حد التشابه الجزئي. فقد عمد إلى ترديد كلمة حيث وما بعدها في الهمزية^(٢) والحائية^(٣) واللامية^(٤). وذكر معجزة رد الشمس في ثلاث من مولدياته :

(١) المَقْرِي: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٦ و ٩٧.

(٢) حيث النبوة... حيث الرسالة... حيث الضريح ضريح أكرم مرسل..

(٣) حيث الربوع... حيث الرسالة... حيث النبوة... حيث الضريح بما قد ضم من كرم..

(٤) حيث النبوة... حيث الرسالة... حيث الشريعة... حيث الضريح يضم أكرم مرسل..

وَكَفَاكَ رُدُّ الشَّمْسِ بَعْدَ مَغِيبِهَا وَكَفَاكَ مَا قَدْ جَاءَ فِي الْإِسْرَاءِ (١)
 إِنَّ رُدَّتِ الشَّمْسُ مِنْ بَعْدِ الْغُرُوبِ لَهُ قَدْ ظَلَّلَتْهُ غَمَامُ الْجَوْحِ حَيْثُ نَحَا (٢)
 وَالشَّمْسُ قَدْ رُدَّتْ لَهُ وَلَطَالَمَا قَدْ ظَلَّلَتْهُ سَحَابُهَا تَظْلِيلًا (٣)

كما كرر معنى ثناء القرآن عليه وعدم قدرة البلغاء أن يصلوا إلى مرتبة

هذا الثناء:

وَمَاذَا عَسَى يُثْنِي الْبَلِغُ وَقَدْ أَتَى ثَنَّاؤُكَ فِي وَحْيٍ كَرِيمٍ وَقُرْآنٍ (٤)
 أَثْنَى عَلَيْكَ كِتَابُ اللَّهِ مُتَدَحِّيًا فَأَيْنَ يُلْغُ فِي عَلَيْكَ مَنْ مَدَحَا (٢)
 أَثْنَى عَلَيْكَ بِكِتَابِهِ مَنْ أَنْزَلَ الْ قُرْآنَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
 فَإِذَا الْبَلِغُ يَرُومُ مَدْحَكَ جَاهِدًا أَضْحَى حُسَامَ لِسَانِهِ مَقْلُولًا (٣)

وفي معنى اختتام المدح النبوي بالصلاة على الرسول نراه يقول:

فَصَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مَا أَنْسَكَبَ الْحَيَا وَمَا سَجَّعَتْ وَرَقَاءُ فِي غُصْنِ الْبَانِ (٤)
 صَلَّى إِلَهِهُ عَلَى الْمُخْتَارِ صَفْوَتِهِ مَا الْعَارِضُ أَنْهَلَ أَوْ مَا الْبَارِقُ التَّمَحَا (٢)
 صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مَا رَكَّبُ سَرَى فَأَجَدَّ وَخَدَأَ فِي الْمَفَازَةِ مَيْلًا (٣)

كذلك نجد الشاعر، في سياق مدحه الغني بالله، قد كرر صفات بعينها كالكرم والشجاعة والعزم. وإذا كان تخلصه من المدح النبوي إلى المدح السلطاني مقبولا فليس في تخلصه من غرض النسيب إلى المدح النبوي أية براعة تذكر.

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٨ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٨١.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥٤ و٥٥.

(٣) نفسه، ٢: ٩٩ و١٠٠.

(٤) نفسه، ٢: ٤٤ و٤٥.

غنياته:

كان أبو عبد الله بن زمرك حريصاً كل الحرص على أن يرضي مليكه ويظفر بمودته. فهو شاعر بلاطه وأمين سره في البدء، ثم شاعر بلاطه ووزيره إلى النهاية. ولقد كان الغني بالله حريصاً أيضاً على صحبته، فكان يدعو إلى مرافقته كلما نوى السفر وأعمل الرحلة إلى مدن مملكته كالمنكب وألمرية... وكان يملك من العلم والأدب ما يمكنه من تذوق شعر شاعره ويُرغِّبه في المزيد منه. وكان ابن زمرك حاضراً في كل المناسبات: فلا يدع عيداً يمر ولا حفلة تقام ولا احتفالاً يجري إلّا وينشده الشعر في مدحه. بالإضافة إلى المناسبات الصغيرة التي كان يستغلها ليشكر له هدية منه أو يدعو له بالشفاء من مرض ألم به ويهنئه بالإبلال منه.

وهكذا لزم الشاعر باب مليكه ثلث قرن ويزيد، أنشده فيه ستاً وستين قصيدة وكثيراً من المقطعات. وبهذا شكلت «الغنيات» معظم شعره.

ولقد كنت أبغي في دراستي هذه، أن أرتب هذه «الغنيات» وفق تاريخ إنشادها، لأطلع على سير تطورها، ولكني انصرفت عما أبغيه من تصنيف وترتيب، لانعدام تأريخها في المصادر التي أوردتها. ثم إني نظرت فيها فوجدتها متشابهة من حيث الأسلوب والمعاني، حتى خيل إليّ أنها نظمت في عام واحد. وهذا يرجح كونَ شاعرنا يتخذ الشعر وسيلة أكثر من اتخاذه غاية وكونَ همه منصرفاً إلى الخطوة والجاء لا إلى الفن والجمال. والذي يقوّي هذا الترجيح هو أن الشاعر اكتفى بالمحافظة على رسوم المدح القديم ليرضي سلطانه، ذلك بأن ذوق العصر - وذوق الحكام بصورة خاصة - كان يقتضي السير على خطى المتقدمين، ولم يكن للشاعر أن يخرج على مقتضيات البيئة حتى لا يكون مغرداً خارج سربه، وحتى يحافظ على مركزه الاجتماعي في الدرجة الأولى. ولهذا نظم في المدح مئات الأبيات، وكلها تصيب الهدف وتصب في مرمى الذوق العام.

. ولما كانت «الغنيات» كثيرة، فحسبي، في هذه الأطروحة، أن أقف عند نماذج مختارة منها اختياراً يغني عما أهمله من شعره وخاصة من مقطعاته. لأن هذه المقطعات، بالذات، لا تمثل الخط العام لفن الشاعر، ولا تحمل في ثناياها قيمة ذات بال.

وتنقسم هذه «الغنيات» المختارة قسمين: الأول يبدأه الشاعر بالمدح مباشرة وهو قليل، والثاني يمهد له بمطلع غزلي وصفي، وهو يشكل أكثر قصائده. وبهذا لا تخرج غنياته، من حيث النهج، عن أسلوب مولدياته. فأبو عبد الله بن زمرك يتبع، بعامة، النهج القديم في المدح، فيخضع أمداحه لنظام القصيدة العربية التي سار عليها الشعراء السلفيون وحافظوا على تقاليدها من التمهيد للمدح بمقدمة غزلية طلمية وصفية.

ومع أنه يفترض، في قصيدة المدح المنظومة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، أن يتحدث فيها الشاعر عن المدوح وحسب، إلا أن ابن زمرك بعث فيها رسوم المدح القديم وظواهره الأسلوبية. فهو يلتفت دائماً إلى القصيدة التقليدية وإلى القصيدة التقليدية - المحدثه، ويستعير منها ما شاء من المعاني وأشكال التعبير محاولاً محاكاتها. ولئن انعتق ظاهراً من استعمال الألفاظ الغريبة في قصيدته، فقد حافظ فيها على جزالة التركيب وقوته، ولذلك فهو قد اقترب من الصدق حين قال:

وَمَا ضَرُّهَا أَنْ قَدْ تَأَخَّرَ عَهْدُهَا إِذَا طَالَ مَبْنَاهَا الَّذِينَ تَقَدَّمُوا^(١)

وإذا كان وصف الرحلة عنده لا يتعدى وصف الركاب وانضاء الرواحل في أبيات قليلة، فقد ظلت الرحلة موضوعاً يتحدث عنه فلا يتقصاه ولا يسبر غوره، بل يقتصد في الكلام عليه، فضلاً عن أنه يسقط منه قصص الحيوان المألوف لدى القدماء، ويعرض عنه ويغفله تماماً.

وقد يخرج، أحياناً، على هذا التقليد إلى... تقليد آخر حين يستهل

(١) المقري: «أزهار الرياض»، ٢: ١٤٨.

قصيدته بوصف الخمر والنديم أو بوصف الطبيعة الغرناطية الساحرة، أو بوصف مزدوج للطبيعة والخمر، يمتزج بدوره بشيء من النسب^(١).

وقد تراوحت مطالع قصائده بين سبعة أبيات وستة وثلاثين بيتاً، كان ينتقل بعدها إلى المدح دون حسن تخلص في أغلب الأحيان، ثم ينطلق في تعداد فضائل الغني بالله ووصف مزاياه الكثيرة فلا يترك سجية حسنة إلا وينسبها إليه، سواء أتعلمت بشكله الظاهر أم بجوهره وحقيقته.

وقبل أن نختم القصيدة، عادة بالفخر بشعره، كان كثيراً ما يتحدث عن جهاد الغني بالله وقيامه بالغزو، فيصف خوضه المعركة كما يصف الفرسان والقباب والخيام وآلة القتال ويشدد على مضاء سلاح الغني بالله فيصف حسامه ورمحه، ويمتد الوصف في كثير من قصائده ليطال سباق الخيل وميدان الطراد والخيول المتنوعة وألعاب البهلوان والمباني والقصور والنوافير، ويتحدث عن شهر الصوم وإهلال عيده، وقد يضمّن قصيدته تعريضاً بأعداء الغني بالله (كلسان الدين وزيره السابق وابن الكاس وزير المغرب).

ويحسن، هنا، بعد هذا العرض السريع لمضمون «غنياته»، تقديم عرض سريع آخر لمضمون رائية له، هي، في الواقع، نموذج مثالي لما كانت عليه تلك «الغنيات».

وهذه القصيدة مؤلفة من أربعة وسبعين بيتاً^(٢) ومطلعها:

حَيَّاكَ يَا دَارَ الْهَوَى مِنْ دَارِ نَوَى السَّمَكِ بِدِيمَةِ مِذْرَارِ^(٣)

يبدأها الشاعر بالنسب^(٣) فيتذكر دار الهوى والصبابة، تذكراً يستهويه

(١) تراجع هذا الشأن رائيته وهائيته لدى المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢١ و ٣٥ و ١٧٠ و «نفح الطيب...»، ٥: ١٧٧ و ٧: ١٥١ و ١٧١. وابن الخطيب «الإحاطة...»، ٢: ٢٢٧.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٣ و «نفح الطيب...»، ٧: ١٥٤. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٠.

(٣) في خمسة وعشرين بيتاً.

ويجعلها منتشياً انتشاء شارب الخمر، ثم يتحدث عن الاطعان السائرة إلى نجد فيحملها رسالة الشوق والحنين إلى حبيبته لمياء المستوطنة خيام العقيق، ويذكر فيها وفاء لها وهجرانها له، ويطلبها، وهي الغنية بالجمال، بتسديد ما عليها من ديون للشاعر، هذه الديون المكونة من نظرات التأمل وهنياهات اللقاء والوصل:

عَارَ بِقَوْمِكَ يَا ابْنَةَ الْحَيِّينَ أَنْ تَلْوِي الدُّيُونَ وَأَنْتِ ذَاتِ يَسَارٍ^(١)

ثم يذكر شدة هيامه، ويتحدث عن عدم وصول أخبار الحبيبة إليه، ويتساءل عما إذا كانت لا تزال، كعهده بها، جميلة تفتك بلحاظها، شأنها في هذا شأن سائر الأطباء الأنسات. وهنا يقفز الشاعر إلى المدح قفزاً بلا تمهيد ولا حسن تخلص:

لَكِنَّ يَوْمَ النَّفْرِ جُذِنَ لَنَا بِمَا عَوَّدَنَّا مِنْ جَفْوَةٍ وَنِفَارٍ
يَا ابْنَ الْأَلَى قَدْ أَخْرَزُوا خَصْلَ الْعُلَا وَسَمَوْا بِطِيبِ أُرُومَةٍ وَنُجَارٍ^(٢)

ويعدد صفات الغني بالله، فيتحدث عن كرمه ونسبه وإشراق وجهه وعزمه وجهاده^(٣)، وينتقل، ضمن إطار المدح، إلى الحديث عن ميدان الطراد ومستنفراته من المهاديات والوحوش، وعن لحاق الغني بالله بـ«عبل الشوى» وطعنه وإردائه، وعن الخيول المشتركة في الطراد وألوانها:

مِنْ كُلِّ مُنْحَفِرٍ بِلَمْحَةٍ بَارِقٍ فَاتَتْ خُطَاهُ مَدَارِكَ الْأَبْصَارِ
سُودٌ وَبَيْضٌ فِي الطَّرَادِ تَتَابَعَتْ كَاللَّيْلِ طَارِدُهُ بَيَاضُ نَهَارٍ^(٤)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٥. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣١.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٤ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٥. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣١.

(٣) في أربعة عشر بيتاً.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٦ و١٠٧ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٧ و١٥٨. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٢ و٢٣٣.

وعن الطرائد المصيدة وأشكالها:

مِنْ كُلِّ مَوْشِيٍّ الْأَدِيمِ مُقَوِّفٍ رَقَمْتَ بَدَائِعَهُ يَدُ الْأَقْدَارِ
سَرَحْتَ بِمُخَضَّرِ الْجَوَانِبِ يَانِعٍ تَسَابُ فِيهِ أَرَاقُمُ الْأَنْهَارِ^(١)

ثم يعود إلى مدح مليكه^(٢)، فيذكر حسد الشمس إياه ورفع له الفخر عالياً، ثم يختم القصيدة بيت يفتخر فيه بجمال قصيدته:

وإِلَيْكَهَا مِنْ رَوْضِ فِكْرِي نَفْحَةٌ شَفَّ الشَّاءُ بِهَا عَلَى الْأَزْهَارِ^(٣)

وهكذا سار ابن زمرك في غنياته، مقلداً، تابعاً، لم يأت فيها إلا بجديد قليل سوف يطاله البحث في فصل لاحق.

على أنه يجدر الوقوف، هنا، ولو لبرهة قصيرة، عند موضوع الجهاد الذي أكثر الشاعر من ذكره، بحيث لا تخلو «غنية» من وصف الغني بالله بالمجاهد الذي يدافع عن الدين. ذلك بأن الجهاد يكاد يكون، في نظر الإسلام، ركنه السادس، لأنه ركيزة من الركائز التي قام عليها الإسلام وعمود من أعمدته. أضف إلى هذا، أن الجهاد كان على رأس ما يدعو إليه المتصوفة في غرناطة، خوفاً من ضياع آخر المعادل الإسلامية في الأندلس. ولما كان ابن زمرك قد تأثر، ولو قليلاً، بمواقف بعض الفرق الصوفية، فإنه كان يرى من الواجب أن يتغنى بمآثر الغني بالله الجهادية في شعره، شأنه في هذا شأن سائر شعراء البلاط.

ولقد استخرجت الأبيات التي يتحدث فيها عن الجهاد فإذا هي خمسة وستون بيتاً موزعة على سبع عشرة قصيدة. وقد تراوحت بين بيت وعشرة

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٦ و ١٠٧ و «نفع الطيب...»، ٧: ١٥٧ و ١٥٨..

وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٢ و ٢٣٣.

(٢) في ستة أبيات.

أبيات في القصيدة الواحدة. وانصب مجملها على الحديث عن تلاحم الكتائب المتقاتلة:

حَيْثُ الْكَتَائِبُ قَدْ تَلَاَحَمَ مَوْجُهَاً وَتَدَفَّقَتْ فِيهَا الْخِيُولُ سُيُولاً^(١)

وعن تجهيزه الجيوش للقتال وغاراته في أرض العدو:

جَهَّزَ جُيُوشَكَ لِلْجِهَادِ مُوَفَّقاً وَكَفَى بِرَبِّكَ كَافِياً وَكَفَيْلَا
وَلْتَبْعِدِ الْغَارَاتُ فِي أَرْضِ الْعِدَا وَاللَّهُ حَسْبُكَ نَاصِراً وَوَكَيْلَا^(٢)

وقوله هذه الجيوش من بيت المال:

وَكَمْ بَيْتِ مَالٍ فِي الْجِهَادِ بَذَلْتُهُ وَأَقْرَضْتَ مِنْهُ اللَّهُ مَا اللَّهُ يَعْلَمُ
إِذَا أَنْتَ جَهَّزْتَ الْجِيَادَ لِغَارَةٍ فَإِنَّ صَبَاحَ الْحَيِّ أَغْبَرُ أَقْتَمُ^(٣)

وعن تفتيحه الممالك وتجديده المنابر:

وَفَتَحَ بِالسَّيْفِ الْمَمَالِكَ عُثُوءً وَمَدَّتْ لَهُ أُمْلَاكُهَا كَفَّ مُجْتَدٍ
وَطَهَّرَ مِحْرَاباً وَجَدَّدَ مِنْبَراً وَأَعْلَنَ ذِكْرَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ^(٤)

وعن تدميره القرى وإذلال مترفيها:

كَمْ بَلَدَةٍ لِلْكَفْرِ قَدْ عَوَّضَتْ مِنْ نَاقُوسِهَا التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَا
لَمَّا أَحْطَتْ بِهَا وَحَانَ دِمَارُهَا أَخْرَجَتْ مُتْرَفَهَا الْأَعَزَّ ذَلِيلَا^(٥)

وعن تشميره الدائم للقتال لنصرة الإسلام:

يَا نَاصِرَ الْإِسْلَامِ يَا مَلِكَ الْعُلَا اللَّهُ يُؤْتِيكَ الْجَزَاءَ جَزِيلَا^(٥)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٢.

(٢) نفسه، ٢: ١٤٦ و ١٤٧.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٥٣ و «نفع الطيب...»، ٧: ٢٣٦.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠١ و ١٠٢.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠١ و ١٠٢.

كذلك تجب الإشارة إلى ما تضمنه بعض أمداحه من أبيات نظمها
للهنئة بأعذار أولاد الغني بالله. قال:

أَقَمْتُ بِهِ مِنْ فِطْرَةِ الدِّينِ سُنَّةً وَجَدَّدْتُ مِنْ رَسْمِ الْهَدَايَةِ عَافِيَا
فِيَا عَازِرًا مَا كَانَ أَجْرًا مِثْلَهُ فَمِثْلُكَ لَا يُذِمِّي الْأَسْوَدَ الصُّوَارِيَا
فَوَاللَّهِ لَوْلَا سُنَّةُ نَبَوِيَّةٍ عَهْدُنَاهُ مَهْدِيًّا إِلَيْهَا وَهَادِيَا
وَعُذْرٌ مِنَ الْإِعْذَارِ قَرَّرَ حُكْمَهُ مِنَ الشَّرْعِ أَخْبَارٌ رُفِعْنَ عَوَالِيَا
لَرَأَعْتُ بِهَا لِلْحَرْبِ أَهْوَالَ مَوْقِفٍ تُشِيبُ بِمُبْيَضِّ النُّصُولِ الْعَوَالِيَا^(١)

وقد كرر هذه المعاني في كل قصيدة ورد فيها ذكر الأعذار.

وهنا، لا بدّ من الوقوف عند قضية التكرار هذه، فهي قضية بارزة لا
يجوز أن تغفل أو تهمل، ذلك بأنها أبرز خاصية يمتاز بها مضمون الشعر
الزمركي كله. وهو لم يكن يكتفي بتكرار المعنى، ولكنه يتجاوز هذا إلى تكرار
الألفاظ والتعابير ذاتها. ولعل رائياته أظهر مثل على هذا التكرار. فلا بد من
أربع رائيات على بحر الكامل وروى الرءاء المكسورة، أحصيت ما فيها من
تكرار فملأت به تسع صفحات!! فإذا قرأناها، لفنتا ما فيها من أشطر كاملة
مكررة بالفاظها مرتين على الأقل^(٢)، بل إننا نجد، أحيانا، أبياتا كاملة معادة
بتمامها، كالأبيات التالية:

أَوْ أَشْعَلِ رَاقِيَ الْعُيُونِ كَأَنَّهُ غَلَسَ يُخَالِطُ سُدْفَةً بِنَهَارٍ^(٣)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٧٣ و٧٤.

(٢) كالأعجاز التالية: «غرر تلوح بأوجه الأعصار»، «مستمع الأسماع والأبصار»، «رَوْضٌ تَفْتَحُ عَنْ
شَقِيقِ بَهَارٍ»، «وَكَفَى بِسَعْدِكَ حَامِيًا لِلذَّمَارِ»، «جَذْلَانِ يَزُقْلُ فِي حُلَى اسْتِيشَارٍ»، «مُتَعَتٌ
بِالْحُسْنَى وَعُقْبَى الدَّارِ»، «أَغْرَتْ جُفُونُ الْمُزْنِ بِاسْتِغْبَارٍ»، «تَنَسَّابٌ فِيهِ أَرَاقِمُ الْأَنْهَارِ»،
«بِالْمَشْرِيقَةِ وَالْقَنَا الْخَطَارِ»، «يَتَعَلَّلُونَ بِهِ عَلَى الْأَكْوَارِ»، «مَا شِئْتُ مِنْ نَصْرِ وَمِنْ أَنْصَارِ»...

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٢ و«نفح الطيب...»، ٥: ١٧٥. وابن الخطيب:
«الإحاطة...»، ٢: ٢٢٩.

إِنْ مَسَّهُمْ لَفْحُ الْهَجِيرِ أَبْلَهُمْ مِنْهُ نَسِيمُ ثَنَائِكَ الْمِعْطَارِ^(١)
 أَصْبَحَتْ وَارِثَ مَجْدِهِمْ وَفَخَّارِهِمْ وَمُشْرِفَ الْأَعْصَارِ وَالْأَمْصَارِ^(٢)
 عَلِمْتُ مُلُوكَ الْأَرْضِ أَنَّكَ فَخْرُهَا فَتَسَابَقْتُ لِرِضَاكَ فِي مِضْمَارِ^(٣)
 فَارْفَعِ لِيَوَاءَ الْفَخْرِ غَيْرَ مُدَافِعٍ وَاسْحَبْ ذُبُولَ الْعَسْكَرِ الْجَرَّارِ^(٤)
 وَتُمِيلُ مَنْ أَضْغَى لَهَا فَكَأَنَّنِي عَاطِيَتُهُ مِنْهَا كُؤُوسَ عُقَارِ^(٥)

هذا بالإضافة إلى ستين كلمة مشتركة بين قوافي هذه الرثائيات جميعها.

ولقد درس كل من بلاشير وغومس موضوع هذا التكرار. ففي حين نسبه بلاشير إلى التهاون والإهمال وسرعة النظم^(٦)، أورد غومس رأي بلاشير وذكر أن له تفسيراً آخر شرحه وخلص في نهايته إلى أن الشاعر، ربما لم يكن، في تكراره، منزلقاً نحو تعبير شائع، وإنما كان يعتقد أنه عثر على عبارة سعيدة^(٧).

والواقع أن ما ذكره غومس قريب جداً من الحقيقة. فابن زمرك كان يجذّ، أحياناً، وراء المعنى الجديد، حتى إذا ظن أنه وقع على معنى طريف، أعجب به وكرره في عدة قصائد إما بلفظه ومعناه وإما بمعناه دون لفظه، ليلمس إحسانه ويُعرف تفوقه، فتكرار الأشياء الحسنة، في نظره، حسن:

-
- (١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٤ و«نفع الطيب...»، ٥: ١٧٦.
 (٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٤ و١٧١ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٢ و١٥٥. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٢٨ و٢٣١.
 (٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٤ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٣٣.
 (٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٦ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٧. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٣.
 (٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٤. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٠.
 (٦) «ابن زمرك الوزير الشاعر...»، «A.I.E.O.»، ص ٣٠٩ و٣١٠.
 (٧) «مع شعراء الأندلس...»، ص ٢٢٢ - ٢٢٤.

فَأَفْضَتْ فِينَا مِنْ نَدَاكَ مَوَاهِباً حَسُنْتَ مَوَاقِعُهَا عَلَى التَّكَرَّارِ^(١)

على أن الإنصاف يدعونا إلى إضافة سبب آخر إلى ما ذكر، وهو أن وحدة الغرض في القصائد، وتشابه البحر والروى فيها، يدفعان الشاعر، من حيث يدري أو لا يدري، إلى ترداد بعض المعاني وتكرار بعض القوالب التعبيرية كلياً أو جزئياً. مع الاعتراف، أيضاً، بأن ما ذهب إليه بلاشير - من أن ابن زمرك كان سريع النظم، متبعاً قانون الجهد الأقل - صحيح. فقارئ شعر صاحبنا يلمس بوضوح هذه الخاصة. وهو، بهذا، شاعر ينظم على سجيته دون عناء كبير، الأمر الذي يبرر أيضاً سقطاته التي سوف أتحدث عنها في فصل لاحق، فضلاً عن أن هناك سبباً آخر يبرر هذه السقطات ألا وهو أن أكثرها وقع فيه في مبتدأ نظمه، ورائيته في مدح لسان الدين أكبر دليل على ذلك.

يبقى أخيراً، أن أتناول مدائحه الأخرى لغير الغني بالله. فلقد نظم ابن زمرك دالية في مدح ابن خلدون^(٢) ورائيتين في مدح لسان الدين^(٣)، فضلاً عن بضع مقطعات مدح بها بعض أساتذته وبعض الملوك.

فأما رائيته في مدح ابن الخطيب فلا يحسن الحديث عنها لأنها مجتزأتان ولا تسلسل في أبياتهما. وأما داليتيه في مدح ابن خلدون فقد سار فيها على نهج غنياته إذ يبدأها بالنسيب^(٤) وينتقل إلى مدح أبي زيد^(٥) فيتحدث عن فضله وحياته وإشراق محياه:

مُحْيَاكَ أَجَلِي فِي الْعُيُونِ مِنَ الضُّحَى وَذِكْرُكَ أَحْلَى فِي الشُّفَاهِ مِنَ الشَّهْدِ

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٥ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٦.

(٢) من ستة وسبعين بيتاً.

(٣) بقي من الأولى ثلاثة وثلاثون بيتاً ومن الثانية خمسة وعشرون بيتاً.

(٤) في ثلاثة وثلاثين بيتاً.

(٥) في تسعة وعشرين بيتاً.

وَمَا أَنْتَ إِلَّا الشَّمْسُ فِي عُلُوِّ أَفْقِهَا نُفَذَيْكَ مِنْ قُرْبٍ وَتُلَحَّظُ مِنْ بَعْدِ^(١)

ويذكر تلك الأيام التي قضياها معاً، ثم يعود إلى الحديث عن خلقه المحمود وجوده، ثم ينتقل إلى مدح الغني بالله^(٢) ويفتخر بتفوقه في النظم^(٣) وينهي القصيدة بمدح ابن خلدون^(٤)

مراثيه:

لما كان الرثاء في حقيقته، مدحاً للميت، فقد أدرجت الحديث عنه في شعر ابن زمرك المدحي.

نظم شاعرنا مرثي أربعاً: ثلاثاً منها في الغني بالله وواحدة في الشريف الحسيني. وهذه المرثي لا تختلف عن أمداحه إلا بشيئين: أولها خلوها من الغزل ومباشرة المدح منذ المطلع، وثانيهما بروز العاطفة فيها وجلالها وقوتها.

وإذا كان الرثاء قد أخذ عند العرب ألواناً ثلاثة، هي الندب والتأبين والعزاء فإن مرثي صاحبنا أبي عبدالله تتضمن ندباً وتأبيناً، ولا أثر للعزاء إلا في أبيات ثلاثة منها، ذكرها في هائيته: يقول فيها مخاطباً أبا الحجاج يوسف ولد الغني بالله وخليفته في الملك:

عَزَاءُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهَا مَقَادِيرُ رَبِّ الْخَلْقِ فِي الْخَلْقِ يُجْرِيهَا
هُوَ الْمَوْتُ وَرَدُّ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا أَوَاخِرُهَا تَقْفُو سَبِيلُ أَوَالِيهَا
وَمَا بَيْنَنَا حَيٌّ وَمَا بَيْنَ آدَمَ إِلَّا هَكَذَا سَوَى الْبَرِيَّةِ بَارِيهَا^(٥)

فأما قَافِيَتُهُ في رثاء الشريف الحسيني^(٦) فمطلعها:

(١) ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٤٥٧ والتعريف...، ص ٢٦٥.

(٢) في سبعة أبيات.

(٣) في بيت واحد.

(٤) في ستة أبيات.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٥٥.

(٦) عدد أبياتها سبعة وخمسون.

أَغْرَى سَرَاةَ الْحَيِّ بِالْإِطْرَاقِ نَبَأُ أَصَمِّ مَسَامِعِ الْآفَاقِ

وهي مجرد تأيين يكيل فيه الثناء على المرثي ويشيد به وبمنزلة العلمية، ويعبر فيه عن حزن الجماعة لا حزنه وحده، فيعدد فضائله ويذكر سجاياه:

فَجَعَ الْجَمِيعُ بِوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ شَتَى الْعُلَا وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ
وَاحْسَرْنَا لِلْعِلْمِ أَقْفَرَ رَبْعُهُ وَالْعَدْلُ جُرَدٌ أَجْمَلُ الْأَطْوَاقِ
أَغْلَيْتَ يَا رُزُّهُ التَّصَبُّرَ مِثْلَمَا أَرْخَصْتَ دُرَّ الدَّمْعِ فِي الْآمَاقِ
إِنْ يُخْلِفِ الْأَرْضَ الْغَمَامُ فَإِنِّي أَسْقِي الضَّرِيحَ بِدَمْعِي الْمُهْرَاقِ^(١)

ودالته في رثاء الغني بالله^(٢) استهلها بقوله:

ضَرِيحُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدٍ يَخْصُكَ رَبِّي بِالسَّلَامِ الْمُرْدَدِ^(٣)

وفيها مدح مباشر للمرثي: يعدد فيه صفاته المعتادة وينهي القصيدة بمدح يوسف الثاني وتوجيه السلام إلى الغني بالله ويختتمها بالصلاة على الرسول المختار.

أما فائتيه في رثاء الغني بالله أيضاً^(٤) فمطلعها:

عَزَاءٌ فَإِنَّ الشُّجُوَ قَدْ كَانَ يُسْرِفُ وَيُشْرَى بِهَا الدَّاعِي عَلَى الْغَوْرِ يُشْرِفُ^(٥)

وفيها مدح يوسف الثاني ووالده^(٦)، ثم مدح الغني بالله وحده^(٧)، ثم أنهى القصيدة بمدح يوسف الثاني^(٨).

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٠، و«نفح الطيب...»، ٥: ١٩٤.

(٢) عدد أبياتها تسعة وثلاثون.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٥٢ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٣٥.

(٤) عدد أبياتها أربعة وخمسون.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٩.

(٦) في عشرة أبيات.

(٧) في ثمانية وعشرين بيتاً.

(٨) في ستة عشر بيتاً.

وأما هائيته التي رثى بها مليكه فقد بدأها بقوله :

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا جَمِيعاً وَمَا فِيهَا غَدَاةٌ نَعَتْ شَمْسُ الْخِلَافَةِ مَنْ فِيهَا^(١)

وهي أفضل مراثيه، ولعلها أولى مراثيه في الغني بالله، إذ نلمح الشاعر فيها متوجعاً يئن ويتفجع وكأنه يندب نفسه، بل هو يكاد يصيح من هول المصاب وفقدان الصبر:

أَمْوَلَايَ لَوْ كَانَ الْفِدَاءُ مُسَوَّغاً فَدَيْنَاكَ بِالدُّنْيَا جَمِيعاً وَمَا فِيهَا
أَمْوَلَايَ خَلَفْتَ الْعَبِيدَ إِلَى الْأَسَى يُنَاجِيكَ مِنْ فَرْطِ الشُّجُونِ مُنَاجِيَهَا
وَقَدْ مَاتَ مِنَّا الصَّبْرُ إِلَّا صُبَابَةً بِذِكْرِكَ فِي جُنْحِ الدُّجْنَةِ نُحْيِيهَا
أَمْوَلَايَ يَا مَوْلَايَ هَلْ أَنْتَ سَامِعِي أَبُوكَ مَا يُشْجِي الْقُلُوبَ وَيُدْمِيهَا
تَحَفَّيْتُ بِي حَتَّى نَضَوْتُ شَيْبَتِي عَزِيزاً وَجِيهاً حَيْثُمَا رُمْتُ تَوَجِيهاً
وَقَدْ كَانَ ظَنِّي أَنْ تَكُونَ جِنَازَتِي يُشَيِّعُهَا مِنْكَ الرِّضَا وَيُؤَارِيها
وَقَدْ عِشْتُ حَتَّى ذُقْتُ فَقْدَكَ قَلَمًا تُبْلَغُ نَفْسٌ مَا تُرِيدُ أَمَانِيها^(٢)

على أنه لا يستطيع أن يحبس دمه، فينهار باكياً، فهو لم يخسر في الغني بالله ملكاً وحسب، ولكنه خسر فيه صديقاً رافقه طيلة ثلث قرن. وربما أحس، أيضاً، أنه قد يخسر مركزه بعد مجيء ولي العهد فيقرر أنه سيبكيه دائماً:

سَابِكِيهِ مَا دَامَ الْحَمَامُ مُطَوَّقاً وَمَا سَجَعْتَ تَبْكِي الْهَدِيلَ قَمَارِيها^(٣)

وبهذه العاطفة الصادقة تفوق غرض الرثاء على سائر الأغراض الأخرى. ولا شك في أنها السبب المباشر الذي دفع النقاد لعدّ المراثي الأندلسية من أحسن الأشعار الأندلسية التقليدية^(٤).

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٥٤ - ١٥٧.

(٢) كراتشكوفسكي: «الشعر العربي في الأندلس»، تعريب: د. محمد منير مرسي، تقديم: د.

أحمد هيكل، عالم الكتب بالقاهرة، ١٩٧١م، ص ٢٢.

فخره:

غرض الفخر غرض غنائي قديم قدم الشعر ذاته. نظم فيه كثير من الشعراء، فأسبغوا على أنفسهم الصفات الحسنة والمزايا الفاضلة نفسها التي كانوا يسبغونها على مدوحيههم. وقد تراوح هذا الفخر بين القصيدة والمقطعة والبيت الواحد، يأتي به الشاعر مستقلاً أو ضمن أبيات نظمها في غرض آخر.

ولقد كان تأثر الشعراء الأندلسيين بأبي الطيب المتنبي أكبر من تأثرهم بغيره من الشعراء المشاركة. ولا نعجب لهذا معرفتنا بمنزلة المتنبي ولكونه شاعر الفخر بلا منازع، إذ رافقه الفخر أنى حلّ وحيثما رحل، فقصادته كلها:

«تفخيم بشعائر المجد وفخر بالهمة التي تدفعه إلى تسنمه والمقام الذي كان يحل نفسه فيه. فأما فخره فظاهر فيه هذا النزوع، وأما مدحه فما هو إلا فخر بكاف الخطاب... وأما هجاؤه فهو فخر مقلوب... فيصح أن يقال أن شعر المتنبي كله من باب واحد هو باب الفخر...»^(١).

ونحن نرى ذلك التأثر واضحاً في شعر ابن خفاجة ولسان الدين الخطيب وابن زمرك نفسه. فكل هؤلاء كانوا يضمّنون قصائدهم المدحية فخراً، وإن كان أكثره يقوم على ذكر الشاعرية والتباهي بقوة العارضة واللسن.

فابن زمرك كان يختم قصيدته المدحية بيت على الأقل، يخصصه للفخر بشاعريته والتنويه بجمال قصيدته تلك^(٢).

(١) العقاد، عباس محمود: «مطالعات في الكتب والحياة»، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص ١٩١ و ١٩٢.

(٢) أحصيت أبيات فخره فوجدتها بالغة اثنين وخمسين بيتاً (أي ما تقارب نسبه ٢٪)، وهي واردة في أربع عشرة قصيدة وثلاث موشحات ومقطعتين.

وباستثناء ما ورد في بعض مقطعاته من فخر بالعفاف والطهارة:

لَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي أَمْرُؤٌ أَجْرُرٌ ذَيْلُ الْعَفَافِ الْقَشِيبِ^(١)

وما جاء في أخرى من فخر بالجود والكرم:

الْأَيْمَتِي بِالْجُودِ وَالْجُودُ شِيْمَةٌ جُبِلْتُ عَلَى إِثَارِهَا يَوْمَ مَوْلَدِي^(٢)

فقد تغنى شاعرنا، في سائر أبياته الفخرية، بشاعريته وقوة قصائده وبلاغتها وحسن نظمها:

نَظَّمْتُ لَهُ حَرَ الْكَلَامِ تَمَائِمًا جَعَلْتُ مَكَانَ الدَّرِّ فِيهَا الْقَوَافِيَا

لَا لِبِهَاتَبَايَ الْمُلُوكِ نَفَاسَةً وَجَلْتُ لَعَمْرِي أَنْ تَكُونَ لَالِيَا^(٣)

كما تغنى بما تتضمنه من غريب الوصف وشارد الكلم:

طَارَدْتُ فِيهَا وَصَفَ كُلِّ غَرِيْبَةٍ فَنَظَّمْتُ شَارِدَهُ الَّذِي لَمْ يُنْظَمْ

وَدَعَوْتُ أَرْبَابَ الْبَيَانِ أَرِيْهِمْ كَمْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ^(٤)

وأكد على أن من يسمع قصيدته سيضطرب ويتشتي وكأنه تعاطى كؤوس

الخمير:

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٩.

(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٢. والتنبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ٢٨٣. المقرئ:

«أزهار الرياض...»، ٢: ١٠ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٩.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٠ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥١.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٥ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٨.

إن عجز البيت الثاني هو صدر بيت لعترة يقول فيه:

«هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفَتِ الدَّارُ بَعْدَ تَوْهْمٍ»

(يراجع) «شرح القصائد العشر» للتبريزي، ص ٢٦٢).

وسبق للسان الدين أن افتخر بشعره وضمن إحدى قصائده شطراً من هذا البيت فقال:

«أَوْفَرُ غَتْرَةٍ عَلَيْهَا لَمْ يَقُلْ هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ»

(يراجع ديوان «الصَّيْبِ وَالْجُهَامِ وَالْمَاضِي وَالْكَهَامِ»، لابن الخطيب، ص ١٩٤).

وَتَمِيلُ مَنْ أَصْغَى لَهَا فَكَأَنِّي عَاطِيَتُهُ مِنْهَا كُؤُوسَ عُقَارٍ^(١)

كما أكد على أنه يفوق أبا العلاء وقسا الأيادي وسحبان وائل:

وَدُونَكَ مِنْ نَظْمِي جَوَاهِرَ حِكْمَةٍ يُفَاخِرُ مِنْهَا السَّحَرُ بِالشَّعْرِ بَابِلُ
فَتَتَلَّى عَلَى الْأَسْمَاعِ مِنْهَا بَدَائِعُ وَتُجَلَّى عَلَى الْأَبْصَارِ مِنْهَا عَقَائِلُ
وَلَوْ أَنِّي أَدْرَكْتُ أَعْصَارَ مَنْ مَضَى لَمَّا قَالَ فِيهَا الشَّاعِرُ الْمُتَخَايِلُ
«وَأِنِّي، وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ، لَا بَإِذَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ»
وَلَا افْتَخَرْتُ قَدَمًا إِذَا بِقِسْمِهَا وَلَا اسْتَصْحَبْتُ سَحْبَانَ فِي الْفَخْرِ وَائِلُ^(٢)

بل إنه يرى نفسه شاعراً كبيراً، ما أتى الدهر ولن يأتي بمثله:

وَدُونَكَ مِنْ بَحْرِ الْبَيَانِ جَوَاهِرًا كَرُمَنْ فَمَا يُشْرِينَ إِلَّا غَوَالِيَا
وَطَارَدْتُ فِيهَا وَصَفَ كُلِّ غَرِيْبَةٍ فَأَعْجَزْتُ مَنْ يَأْتِي وَمَنْ كَانَ مَاضِيَا^(٣)

المبحث الثالث: وصفه

لقد كان ابن زمرك شاعراً مبدعاً في الوصف، ولا عجب في هذا، إذ اشتهر الشعراء الأندلسيون بهذا الغرض. والسبب بسيط معروف: فقد عرف الأندلس بحياتها الحضرية الناعمة وطبيعتها الجميلة بما فيها من أنهار وجداول ورياض وخمائل تبتسم فيها الأزهار على اختلاف أنواعها وألوانها، ويستضحك النوار عابقاً بالطر والشذا. الأمر الذي جعل الشعراء يهيمون ببلادهم ويعتدونها جنة الله على أرضه، ولهذا كان وصف الطبيعة، بل الوصف بعامة، من أوسع أغراضهم، فأكثرنا منه وتفننوا فيه حتى بدا شعرهم يمتاز بالركة والجمال، وتنوع الصور وسعة الخيال.

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٥٤.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٨١.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٧٤ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٩٥.

ثم إن الطبيعة قد اتصل وصفها أو كاد بأكثر الأغراض الشعرية في الأندلس، فقد أيقظت قريحة الشاعر الأندلسي، وأطلقت شيطان شعره من قمقمه، وألهمته الشيء الكثير. وقد ذكر الحجاري في «المسهب» كلاماً كثيراً عن الأندلس وطبيعتها، أورد المقرئ بعضه في نفحه. ومن جملة هذا الكلام تأكيد الحجاري على أن الأندلسيين أشعر الناس في ما كثره، سبحانه، في بلادهم من الأشجار والأنهار والطيور بحيث أصبحوا لا يُجَارُونَ ولا يلحقون^(١). ولئن كان في كلام الحجاري شيء من الغلو فلا شك في أن بعض الشعراء الأندلسيين برعوا في الوصف براعة ملحوظة.

ولقد كان ابن زمرك من أولئك الذين برعوا في الوصف. فقد نظم فيه كثيراً من الأبيات^(٢). وأبرز ما نجده في هذا الوصف: رهافة حس الشاعر ورقة تعبيره. لكأن بالزعة الصوفية قد تركت فيه أثراً لا يمحي، فأضفت على عواطفه حرارة، وأوسعت شعوره رقة، بحيث استجابت نفسه للجمال، واهتزت أوتار قلبه للطبيعة، واستطاع، بالتالي، أن يؤثر فينا.

ولم يستقل الوصف، عنده، في قصائد مطولة، بل استقل في مقطعات قصيرة. على أن أجمل أبياته الوصفية هي التي نراها في موشحاته وقصائده المدحية. والواقع أن موشحاته هي مظنة الوصف، فقد وصل فيها الفن الوصفي إلى قنة الجمال وقلة الإبداع.

ولم يترك ابن زمرك شيئاً إلا وصفه. فقد وصف غرناطة وقصورها ومبانيها وطبيعتها ورياضها وحدائقها ونوافيرها وأزهارها وخاصة القرنفل، ووصف الصباح والليل والنجوم والأفلاك والرياح والمطر والسماء والقمر، ووصف المعارك والخيول والبغال وآلة الحرب من سيوف وأسنة، ووصف

(١) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٣: ١٥٥.

(٢) بلغت، بالتحديد، خمسمائة وخمسة وعشرين بيتاً.

الزرافة والبهلولان والمصباح والخمر والنديم، ووصف الشيب وقصوره والشباب ومرحه: كل هذا بتعبير جميل ونغم عذب، يحملنا فيه على أجنحة الخيال إلى عالم الأحلام والنشوة والحبور.

فإذا صَوَّرَ الشباب المتدفق شَبَّهَ نشاطه بنشاط المهر الجموح:

أَخْتَالُ كَالْمَهْرِ فِي الْجَمَاحِ نَشْوَانٌ فِي رَوْضَةِ الشَّبَابِ^(١)

وإذا هفا إلى الصباح بعد الليل جَسَمَ النور والظلام فجعلها طائرين:

وَارْتَاَعَ مِنْ بَازِي الصَّبَاحِ غُرَابُهُ لَمَّا أَطْلَ فَطَارَ كُلُّ مَطَارٍ^(٢)

أو جعلها حصاناً وغرته:

وَاللَّيْلُ مُرَبِّدُ الْجَوَانِحِ قَدْ بَدَأَ فِيهِ الصَّبَاحُ كَغُرَّةٍ فِي أَذْهِمِ^(٣)

أما قصر الحمراء فقد وقف على وصفه جزءاً هاماً من شعره، فكان له مصوراً، ولقباه رساماً، ولجدرانه مزيئاً:

وَاهُنَا بِمَبْنَاكَ السَّعِيدِ فَإِنَّهُ كَهَفٌ لِيَوْمٍ مَشُورَةٍ وَعَظَاءٍ
لِلَّهِ مِنْهُ هَالَةٌ قَدْ أَصْبَحَتْ حَرَمَ الْعُقَاةِ وَمَضْرَعِ الْأَعْدَاءِ
تَتَنَابَهَا طَيْرُ الرَّجَاءِ فَتَجْتَنِي ثَمَرَ الْمُنَى مِنْ دَوْحَةِ الْأَلَاءِ
لِلَّهِ مِنْهُ قُبَّةٌ مَرْفُوعَةٌ دُونَ السَّمَاءِ تَفُوتُ لِحَظِّ الرَّائِي
رَاقَتْ بَدَائِعُ وَشِيهَا فَكَانَتْهَا وَشِي الرِّبْعِ بِمَسْقَطِ الْأَنْدَاءِ^(٤)

وهو يفوق المباني بجماله، لما فيه من متزهات الأبصار، حتى أن

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٨٢ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٤٤.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧١ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٣.

وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٢٨.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٢ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٥.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥٠ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٣.

النجوم أصبحت لا تحمد مكانها من السماء، وهي تفضل أن تكون حبيسة في سماءها على أن تجري حرة في سماءها:

وَتَهْوَى النُّجُومُ الزُّهْرَ لَوْ ثَبَّتَ بِهِ وَلَمْ تَكُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ جَوَارِيَا^(١)

وأما غرناطة فهي موطنه، فيها ولد ونشأ، وهو يحبها بكل ما فيها ويجب طبيعتها، وإذا غاب عنها حزن إليها لأنها حبيبته، وهو لا ينسى ما فيها من جنان، فهذه هي السبيكة:

عَرُوسَةٌ تَاجُهَا السَّبِيكَةُ وَزَهْرُهَا الْحَلِيّ وَالْحُلَلُ^(٢)

وتلك هي جنة العريف تزهو بزهرها وطيرها:

كُرْسِيَّهَا جَنَّةُ الْعَرِيفِ مِرَاتُهَا صَفْحَةُ الْغَدِيرِ
وَجَوْهَرُ الطَّلِّ عَنْ شُئُوفِ تَحْكُمُهَا صَنْعَةُ الْقَدِيرِ
وَالْأَنْسُ فِيهَا عَلَى صُنُوفِ فَمِنْ هَدِيدٍ وَمِنْ هَدِيرِ
كَمْ خَرَقَ الزُّهْرُ مِنْ جُيُوبِ وَكَلَّلَ الْقُضْبُ بِالْدُرَرِ
فَالْبَعْضُ كَالْكَاعِبِ اللَّعُوبِ وَالطَّيْرُ تَشْدُو بِلا وَتَرُ^(٣)
أما نسيمها فبرء العليل:

نَسِيمُ غَرْنَاطَةِ عَلِيلٍ لَكِنَّهُ يُبْرِئُ الْعَلِيلِ
رَوْضُهَا زَهْرُهُ بَلِيلٌ وَرَشْفُهُ يَنْقَعُ الْغَلِيلِ^(٤)

أما زهرها فنجوم، وأما نهرها شليل فيفضل نهر النيل ألف مرة:

لِلزُّهْرِ فِي عِطْفِهَا رُقُومٌ تَلُوحُ لِلْعَيْنِ كَالنُّجُومِ

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٩ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٩١.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٨ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٤١.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٨ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٤٢.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٩ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٤٣.

وَلِلنَّدَى بَيْنَهَا رُسُومٌ عِقْدُ النَّدَى فَوْقَهُ نَظِيمٌ
وَكُلُّ وَادٍ بِهَا يَهِيمٌ وَلَمْ يَزَلْ حَوْلَهَا يَحُومٌ
شَنِيلُهَا مَدٌّ مِنْهُ نِيلٌ وَالشَّيْنُ أَلْفٌ لِمُسْتَنِيلٍ
وَعَيْنٌ وَادٍ بِهِ تَسِيلٌ مِنْ فَوْقِ خَدٍّ لَهُ أُسَيْلٌ^(١)

وقد وفق ابن زمرك إلى رسم هذه اللوحة الطبيعية الرائعة:

وَكَسَا الْأَدْوَاخَ وَشَيْئاً مُذْهَبَاً يَبْهَرُ الشَّمْسَا
عَسَجَدُ قَدْ حَلَّ مِنْ فَوْقِ الرُّبَى يُبْهِجُ النَّفْسَا
فَاتَّخِذْ لِلَّهِوِ فِيهِ مَرْكَبَا تَلْحَقِ الْأَنْسَا
مِنْبَرُ الْغُضَنِ عَلَيْهِ قَدْ جَلَسَ سَاجِعُ الْأَدْوَاخِ
حُلَلُ السُّنْدُسِ خُضْرًا قَدْ لَبَسَ عِظْفُهُ الْمُؤْتَرَاخُ^(٢)

وقد أتى بأبداع من هذه حين قال:

رِيحَانَةُ الْفَجْرِ قَدْ أَطْلَتْ خَضِرَاءَ بِالزَّهْرِ تُزْهِرُ
وَرَايَةُ الصُّبْحِ قَدْ أَطْلَتْ فِي مَرْقَبِ الشَّرْقِ تُنْشَرُ
فَالشُّهْبُ مِنْ غَارَةِ الصَّبَاحِ تُرْعَدُ خَوْفًا وَتَخْفُقُ
وَأَذْهَمُ اللَّيْلِ فِي جِمَاحِ أَعْنَةَ الْبَرْقِ يُطْلِقُ
وَالْأَفَقُ فِي مُلْتَقَى الرِّيَّاحِ بِأَذْمَعِ الْغَيْثِ يَشْرُقُ
وَالسُّحُبُ بِالْجَوْهَرِ اسْتَهَلَّتْ فَالْبَرْقُ سَيْفٌ مُجَوَّهَرُ
صَفَاحُهُ الْمُذْهَبَاتُ حَلَّتْ فِي رَاحَةِ الْجَوِّ تُشْهَرُ^(٣)

وهي، لعمرى، لوحة بديعة تستحق أن تدرج في جديد ابن زمرك!!.

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٨٠ و ١٨١ و «دفع الطيب...»، ٧: ٢٤٣ و ٢٤٤.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٩٢ و «دفع الطيب...»، ٧: ٢٥٤.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٨٦ و ١٨٧ و «دفع الطيب...»، ٧: ٢٤٩.

ومالقة كان لها، أيضاً، نصيب في شعر صاحبنا، قال يصفها ويمدح

الغني بالله :

وَأَعْيُنُ الزَّهْرِ لَا تَنَامُ تَسْتَعِذُّبُ السُّهْدَ وَالسَّهْرُ
تَنْفُثُ مِنْ تَحْتِهَا الْغَمَامُ تَرْقِيكَ مِنْ أَعْيُنِ الزَّهْرِ
عَرُوسَةٌ أَنْتِ يَا عَقِيلَةَ تُجَلِّي عَلَى مَظْهَرِ الْكَمَالِ
مَدَّتْ لَكَ الْكَفَّ مُسْتَقِيلَةَ تَمْسَحُ أَغْطَافِكَ الشَّمَالِ
وَالْبَحْرُ مِرَاتِكِ الصَّقِيلَةَ تَشِفُّ عَنْ ذَلِكَ الْجَمَالَ^(١)

أما الخيل فقد أفرد حيزاً لوصفها في سبع قصائد، وقد ركز في وصفه إياها على ألوانها وسرعتها، فوصف أشهبها وأحمرها وأشقرها وأدهمها وأصفرها، وكرر هذا الوصف بأشكال متشابهة، كعادته في تكرار المعاني التي يعجب بها ويظنها طريفة. وأجمل وصف لها جاء في لاسيته التي يمدح فيها الغني بالله، وذلك في معرض وصفه سباق الخيل الذي حضره الملك :

وَأَجْرِيَتْ سَرَعَانَ الْجِيَادِ بِمَلْعَبٍ تَذَكَّرَ فِيهِ مَوْقِفَ الْجِدِّ هَازِلُ
فَأَشْهَبَ كَالْإِصْبَاحِ رَاقٍ أَدِيمُهُ وَغَالَتْ بِهِ شُهْبُ السَّمَاءِ الْغَوَائِلُ
وَأَحْمَرُ زَانَ الْوَرْدُ مِنْهُ خَمِيلَةٌ يَحْفُ بِه نَهْرٌ مِنَ السَّيْفِ سَائِلُ
جَرَتْ لَوْنُهُ مِنْ فَوْقِهِ مُهْجُ الْعِدَا فَلِلَّهِ مِنْهُ الْجَامِدُ الْمُتَسَائِلُ
إِذَا قَبَسَتْ بِالرَّكُضِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى تُبِيرُ بِهَا لَيْلَ الْقَتَامِ مَشَاعِلُ
وَأَشْقَرُ مَهْمَا حَاوَلَ الْبَرْقَ فِي مَدَى يَقُوتُ جَوَادَ الْبَرْقِ مِنْهَا الْمُحَاوِلُ
تَحَلَّى بِمَحْلُولِ النَّضَارِ أَدِيمُهُ فَكُلُّ مُحَلَّى دُونَهُ فَهَوَ عَاطِلُ
وَأَدْهَمُ فِي مِسْحِ الدَّجَى مُتَلَفَعٌ وَقَدْ خَاضَ مِنْهُ فِي الصَّبَاحِ الْأَسَافِلُ
يُكَلِّلُ بِالْجَوَرَاءِ حَلْيَ لِحَامِهِ قَدَّرُ الدَّرَارِي مِنْ حُلَاهُ عَوَاطِلُ

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٩٦ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٥٧.

وَلَمْ يُرْضِهِ سَرَجُ الْهَلَالِ مُقَضَّضًا فَأَعْرَضَ عَنْهَا لِإِلَهَلَةٍ نَاعِلُ
وَأَصْفَرُ فِي ثَوْبِ الْأَصِيلِ قَدْ ارْتَدَى وَرُبَّتَمَا وَدَّتْ حُلَاهُ الْأَصَائِلُ
وَقَدْ قُدَّ مِنْ بُرْدِ الْعَشِيِّ جِلَالُهُ وَفِي ذَيْلِهِ صُبْحُ مِنَ اللَّيْلِ حَائِلُ^(١)

ويصف ابن زمرك «الحيوان الغريب المسمى بالزرافة»^(٢) والذي أتى به وفد الأحابيش هدية للسلطان أبي سالم، وقد أمر من يعاني الشعر من الكتاب بالنظم في ذلك الغرض، فقال «وهي من بدائع»^(٣):

وَأَتَتْكَ يَا مَلِكَ الزَّمَانِ غَرِيبَةً قَيْدُ النَّوَاطِرِ نُزْهَةُ الْأَبْصَارِ
مَوْشِيَّةُ الْأَعْطَافِ رَائِقَةُ الْحُلَى رَقَمَتْ بَدَائِعَهَا يَدُ الْأَقْدَارِ
رَاقِ الْعُيُونِ أَدِيمُهَا فَكَأَنَّهُ رَوْضٌ تَفْتَحُ عَنْ شَقِيقِ بَهَارِ
مَا بَيْنَ مُبْيَضٍ وَأَصْفَرٍ فَاقِعٍ سَالَ اللَّجَيْنُ بِهِ خِلَالَ نُضَارِ
يَحْكِي حَدَائِقَ نَرْجَسٍ فِي شَاهِقٍ تَنْسَابُ فِيهِ أَرَاقِمُ الْأَنْهَارِ
تَجْدُو قَوَائِمُ كَالْجُدُوعِ وَفَوْقَهَا جَبَلٌ أَشْمُ بِنُورِهِ مُتَوَارِ
وَسَمَتْ بِجِيدٍ مِثْلَ جَذَعٍ مَائِلٍ سَهْلٌ التَّعْطُفِ لَيْنٌ خَوَارِ
تَسْتَشْرِفُ الْجُذُرَانِ مِنْهُ تَرَائِبًا فَكَأَنَّمَا هُوَ قَائِمٌ بِمَنَارِ
تَاهَتْ بِكُلْكُلِهَا وَأَتْلَعَ جِيدُهَا وَمَشَى بِهَا الْإِعْجَابُ مَشْيَ وَقَارِ^(٣)

وكما وصف ابن زمرك حفلات الأعدار، وصف كذلك حفلات الترفيه التي كان يقدم فيها البهلوان عرضاً بهلوانياً، فقال يصفه:

وَمُنَوَّعِ الْحَرَكَاتِ قَدْ رَكِبَ الْهَوَا يَمْشِي عَلَى خَطٍّ بِهِ مُتَوَهَّمِ

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٧٦.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٠ - ١٧٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥١ - ١٥٤. وابن الخطيب: الإحاطة...، ٢: ٢٢٧ - ٢٣٠.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٠ - ١٧٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥١ - ١٥٤. وابن الخطيب: الإحاطة...، ٢: ٢٢٧ - ٢٣٠.

فَإِذَا هَوَى مِنْ جَوِّهِ ثُمَّ اسْتَوَى أَبْصَرْتَ طَيْرًا حَلَّ صُورَةَ آدَمِ
يَمْشِي عَلَى فَنَنِ الرِّشَاءِ كَأَنَّهُ فِيهِ مُسَاوِرُ ذَابِلٍ أَوْ أَرْقَمٍ^(١)

ومع أنه لم يكن يشرب الخمر، كما يقرر هو في بعض أبياته^(٢)، فقد وصفها ووصف النديم فقال:

قُمْ هَاتِيهَا وَالْجَوُّ أَزْهَرُ بِاسِمٍ شَمْسًا تَحُلُّ مِنَ الرُّجَاجَةِ فِي قَمَرٍ
إِنْ شَجَّهَا بِالْمَاءِ كَفُ مَدِيرِهَا تَرْمِيهِ مِنْ شُهْبِ الْحَبَابِ بِهَا شَرٌّ
نَارِيَّةٌ نُورِيَّةٌ مِنْ ضَوْئِهَا يَقْدُ السَّرَاجُ لَنَا إِذَا اللَّيْلُ اغْتَكَرَ
لَمْ يَبْقَ مِنْهَا الدَّهْرُ إِلَّا صَبْغَةٌ قَدْ أَرَعَشْتَ فِي الْكَأْسِ مِنْ ضَعْفِ الْكِبَرِ
مِنْ كَفِّ شَفَافٍ تَجَسَّدَ نُورُهُ مِنْ جَوْهَرٍ لَأَعْلَاءَ بَهْجَتِهِ بَهْرُ
قَدْ خَطَّ نُونَ عِذَارِهِ فِي خَدِّهِ قَلَمَانٍ مِنْ آسٍ هُنَاكَ وَمِنْ شَعْرِ
وَالَى عَلَيْكَ بِهَا الْكُؤُوسَ وَرُبَّمَا يَسْقِيكَ مِنْ كَأْسِ الْفُتُورِ إِذَا فَتَرَ^(٣)

وأكتفي، أخيراً، بذكر وصفه المصباح الذي رافقه في ليل كثيف الظلام، فراحا يتطارحان الجوى وكان كلاً منهما عاشق مغرم، يشكو إلى صاحبه لوعة الحب:

لَقَدْ زَادَنِي وَجْداً وَأَغْرَى بِي الْجَوَى ذُبَالُ بِأَذْيَالِ الظَّلَامِ قَدِ انْفَا
تُشِيرُ وَرَاءَ اللَّيْلِ مِنْهُ بَنَانَةٌ مُخَضَّبَةٌ وَاللَّيْلُ قَدْ حَجَبَ الْكَفَا
تَلُوحُ سِنَانًا حِينَ لَا تَتَفَحُّ الصَّبَا وَتُبْدِي سَوَاراً حِينَ تُثْنِي لَهُ الْعِطْفَا
قَطَعْتُ بِهِ لَيْلًا يُطَارِحُنِي الْجَوَى فَاوْنَةٌ يَبْدُو وَآوْنَةٌ يَخْفَى
إِذَا قُلْتُ لَا يَبْدُو أَشَالُ لِسَانَهُ وَإِنْ قُلْتُ لَا يَخْبُو الضِّيَاءُ بِهِ كَفَا

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٥ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٧ و١٨٨.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٠ و١٣٨ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٧٨.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٥ و٣٦ و«نفع الطيب...»، ٥: ١٧٧ و١٧٨.

إِلَى أَنْ أَفَاقَ الصُّبْحُ مِنْ غَمْرَةِ الدُّجَى وَأَهْدَى نَسِيمُ الرُّوْضِ مِنْ طَيْبِهِ عَرْفَاً
لَكَ اللَّهُ يَامِصْبَاحٍ أَشْبَهَتْ مُهْجَتِي وَقَدْ شَفَّهَا مِنْ لَوْعَةِ الْحُبِّ مَا شَفَّاً^(١)

المبحث الرابع : غزله

على الرغم من أن الغزل يشكل نصف ديوان الشعر العربي، وعلى الرغم من أنه غرض وجداني صميم، فيه نغم الحب وحكاية القلب، وفيه يتحدث الشاعر عن مشاعره وعواطفه، ويرسم حنينه ووجده، ويصور جمال الحبيبة وحسنها، ويذكر أسى الفراق وحرقته، ونعيم اللقاء وحلاوته، على الرغم من هذا كله، لا نجد لابن زمرك قصيدة واحدة مستقلة بالغزل.

ولئن أورد لسان الدين لابن زمرك قصيدة ميمية في كتاب «الإحاطة...»^(٢)، وزعم أنها في غرض النسيب، فالواقع أنها ليست كذلك. بل هي قصيدة مدحية استهلها الشاعر بالنسيب كعادته. وإلا فما معنى قوله:

وَوَاللَّهِ مَا فِي الْحَيِّ حَيٌّ وَلَمْ يَنْلِ رِضَاكَ وَعَمَّتْهُ أَيَادٍ وَأَنْعَمُ
وَمِنْ قَبْلِ مَا طَوَّقْتَنِي كُلَّ نِعْمَةٍ كَأَنِّي وَإِيَّاهَا سِوَارٌ وَمِعْصَمٌ؟^(٣)

وإذا كان علينا أن نعلل خلو شعره من قصيدة غزلية مستقلة، فالأمر جدٌ يسير، إذ يسهل القول إن شاعرنا لم يقع في الحب مطلقاً! فهل هذا صحيح؟! الواقع أننا لا نعرف شيئاً عن أسرار ابن زمرك الغرامية، فالمصادر تسكت تماماً عن ذلك. على أن الشاعر حريص، هو أيضاً، على الكتمان:

يَا سَائِلِي عَنْ سِرٍّ مَنْ أَحْبَبْتُهُ السَّرُّ عِنْدِي مَيِّتُ الْإِحْيَاءِ^(٣)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٩ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٥٨. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٥.

(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٤.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٧ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٨٠.

والنسيب، عنده، يقع دائماً في مطالع قصائده المدحية. فإذا استقرأنا ما نظمه، في هذا الشأن، لم نجد فيه من العاطفة المشبوبة ما يثبت لنا أنه أحب! ذلك بأن هذا النسيب غير مقصود لذاته وإنما هو غرض ثانوي يمهّد به للمدح.

ولئن كنا نعرف من الشعراء القدامى من انفرد بحبيبة واحدة. يتغزل بها بحيث التصق اسمها باسمه كقيس ليلي وجميل بثينة وعباس فوز. . . فإن لابن زمرك حبيبات كثيرات، وهميات بالطبع، ذكر أسماءهن وكنية إحداهن. ففي إحدى قصائده تغزل بليلى :

فَهَلْ عِنْدَ لَيْلَى نَعَمَ اللَّهُ لَيْلَهَا بَأَنَّ جُفُونِي مَا تُلِمُّ مِنَ السُّهْدِ^(١)
وفي ثانية ذكر لمياء :

بِاللَّهِ يَا لَمَيَاءَ مَا مَنَعَ الصَّبَا أَنْ لَا تَهَبَّ بِعَرَفِكَ الْمِعْطَارِ^(٢)
وفي ثالثة شبب بأسماء :

يُذَكِّرُنِي ثَغْرًا لِأَسْمَاءَ أَشْنَبَا إِذَا ابْتَسَمْتَ تَجْلُو مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبًا^(٣)
وفي رابعة تحدث عن أم مالك :

وَبِالْخَيْفِ يَوْمَ النَّفْرِ يَا أُمَّ مَالِكٍ تَخَلَّفَتْ قَلْبِي فِي حَبَالِكَ عَائِنَا^(٤)

وهو في هذا الغزل، لا يأتي بشيء جديد، إنما يكرر ويقلد معاني من سبقوه، بل إن شعره الغزلي أكثر تقليدية من كل أشعاره. وهذا شيء

(١) ابن خلدون: «العبر...»، ٧ : ٤٥٦ و«التعريف...»، ص ٢٦٤.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢ : ١٠٤ و«نفح الطيب...»، ٧ : ١٥٥، وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢ : ٢٣١.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢ : ٨٣ و«نفح الطيب...»، ٧ : ١٩٧.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢ : ٥٦ و«نفح الطيب...»، ٧ : ١٤٨، وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢ : ٢٢٤.

بدهي، لأن الغزل، ككل غرض يوجب المعاناة، قد استنفدت معانيه واستهلكته، وقل أن يأتي الشاعر فيه بجديد ما لم يكن محباً صادق الحب منفعلاً به، تماماً كالخمر التي استنفدت أيضاً معانيها بحيث يصعب على الشاعر التجديد فيها إلا من خلال ما تركه فيه من أثر بعد معاقبتها.

ولما كان شاعرنا بعيداً عن الانفعال بالحب والمعاناة فيه، فلا يمكن له أن يأتي بجديد ذي قيمة في هذا الغرض. فهو إن تحدث عن الحب فإن حديثه مجرد تقليد واتباع، شأنه في هذا شأن معشر الشعراء:

أَتَبَعْتُ فِي دِينِ الصَّبَابَةِ أُمَّةً مَا بَدَّلْتُ فِي حُبِّهَا تَبْدِيلًا^(١)

ويكفي أن يستعرض القارئ أشعاره الغزلية حتى يتأكد من هذه الاتباعية. فاسمعه وهو يقول من قصيدة دالية:

وَكَمْ صَارِمٍ قَدْ سُلِّ مِنْ لَحْظٍ أُخْوِرِ وَكَمْ ذَابِلٍ قَدْ هُزَّ مِنْ نَاعِمٍ الْقَدِّ
سِهَامُ جُفُونٍ مِنْ قِسِيٍّ حَوَاجِبِ يُصَابُ بِهَا قَلْبُ الْبَرِيِّ عَلَى عُمْدِ
وَرَوْضُ جَمَالٍ ضَاعَ عَرَفُ نَسِيمِهِ وَمَا ضَاعَ غَيْرُ الْوَرْدِ فِي صَفْحَةِ الْخَدِّ
وَنَرَجِسُ لَحْظٍ أُرْسِلَ الدَّمْعُ لَوْلُؤَا فَوْشَى بِمَاءِ الْوَرْدِ رَوْضًا مِنَ الْوَرْدِ^(٢)

وانظر إلى قوله من رائية له:

عَجَبًا لِلَّيْلِ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهِ وَالْوَجْهَ يُسْفِرُ عَنْ صَبَاحٍ قَدْ سَفَرِ
عَجَبًا لِعَقْدِ الثَّغْرِ مِنْهُ مُنْظَمًا وَالْعَقْدُ مِنْ دَمْعِي عَلَيْهِ قَدْ انْتَشَرَ
مَا زُمْتُ أَنْ أَجْنِي الْأَقَاحَ بِثَغْرِهِ إِلَّا وَقَدْ سَلَ السُّيُوفُ مِنَ الْحَوْرِ^(٣)

ألا نرى إلى هذه الأبيات الخالية من العاطفة، يتكئ فيها الشاعر على

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٧.

(٢) ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٤٥٦ و«التعريف...»، ص ٢٦٣ و ٢٦٤.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٢٢ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢١٦.

المعاني التقليدية، فيصوغها ببراعة قد تعجبنا ولكنها لا تترك في نفوسنا أي أثر. قس على هذا كل الغزل الزمركي.

ولقد أتى شاعرنا في مطلع قصائده المدحية بمائتين وأربعة وثلاثين بيتاً من النسيب^(١). وقليلة هي القصائد التي لم يبدأها بالنسب، منها قصائد الرثاء بالطبع، وبعض القصائد الجهادية^(٢).

أما كيف عالج ابن زمرك هذا الموضوع؟ وما المعاني الغزلية التي ضمنها نسيبه؟ وهل رافق هذا النسب غرض آخر؟ فهذه أسئلة يمكن الإجابة عنها بالقول إن الشاعر قد كان له من الحب، كغرض فني، مواقف مختلفة، فيينا نراه يميل إلى الحب العذري العفيف في أكثر نسيبه فيقول:

هِيَ شِيْمَةٌ عُذْرِيَّةٌ عَوَّدَتْهَا قَلْبًا شَعَاعًا مَا يُرَى بِالسَّالِي^(٣)
وَلَيْسَ سِوَى لَحْظٍ خَفِيٍّ نُجِيلُهُ وَشَكْوَى كَمَا ارْقَضَ الْجُمَانُ مِنَ الْعِقْدِ^(٤)
خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوَاهُ مِنْ غَيْرِ رِقْبَةٍ وَلَكِنْ عَفَافِي لَمْ أَكُنْ عَنْهُ خَالِيًا^(٥)

نجده أحياناً قد خرج عن مذهبه هذا وابتعد عن العفة والطهارة:

وَلَيْلَةٌ بَاتَ الْبَدْرُ فِيهَا مُضَاجِعِي وَبَاتَتْ عُيُونُ الشُّهْبِ نَحْوِي رَوَانِيَا
كَرَعْتُ بِهَا بَيْنَ الْعَذِيبِ وَبَارِقِي بِمُورِدِ ثَغْرِ بَاتَ بِالْدُرِّ حَالِيَا
رَشَفْتُ بِهِ شَهْدَ الرُّضَابِ سُلَاقَةً وَقَبْلْتُ فِي مَاءِ النَّعِيمِ الْأَقَاحِيَا
فِيَا بَرْدَ ذَاكَ الثَّغْرِ رَوَيْتُ غُلَّتِي وَيَا حَرَّ أَنْفَاسِي أَذْبَتُ فُوَادِيَا^(٦)

(١) أي ما نسبته ٩٪.

(٢) تراجع رائيته (المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢٨ و«نفع الطيب...»، ٥: ١٧٢) ولاياته (المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١١ و١١٦ و٧٤ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٠٦ و٢١٠) وميميته (المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٦).

(٣) المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٨.

(٤) ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٤٥٧ و«التعريف...»، ص ٢٦٥.

(٥) المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦١ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٤.

(٦) المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٦ و٦٧ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٩.

وفي حين يجبرنا أنه لا يزال يحب على الرغم مما لحقه من شيب:

أَدْرَهَا ثَلَاثًا مِنْ لِحَاطِكَ وَاحْبِسِ فَقَدْ غَالَ مِنْهَا السُّكْرُ أَبْنَاءَ مَجْلِسِ
إِذَا مَا نَهَانِي الشَّيْبُ عَنْ أَكْثُوسِ الطَّلَا تَدِيرُ عَلَيَّ الْخَمْرَ مِنْهَا بِأَكْثُوسِ^(١)

يعود إلى التصريح بأنه ترك حب الحسان حين ولّى شبابه:

هَذَا عَلَى أَنِّي نَزَعْتُ عَنِ الصَّبَا وَصَرَمْتُ مِنْ حُبِّ الْحِسَانِ جِبَالِي^(٢)

ولعل هذه المواقف المترددة والآراء المختلفة تؤكد لنا، من جديد، أن الشاعر لم يعانِ الحب حقيقة على الرغم من قوله:

تَجَاوَزْتُ حَدَّ الْعَاشِقِينَ الْأَلَى مَضَوْا وَأَصْبَحْتُ فِي دِينِ الْهَوَى أُمَةً وَخَدِي^(٣)

ومن قوله كذلك:

كَيْفَ التَّجَمُّلُ بَعْدَهُمْ وَأَنَا الَّذِي أَنْسَيْتُ قَيْسًا فِي الْهَوَى وَجَمِيلًا^(٤)

ولقد أكثر ابن زمرك من التعابير التقليدية في نسيبه، فتغنى بسلطان الجمال، وتحدث عن غنج اللحاظ ونرجسها وخرها، وعن سلافة الرضاب وشهده وعذوبته، وذكر قسي الحواجب وسهام الجفون وأقاح الثغر وورد الخد وناعم القد وغصن القوام، وأشار إلى نار الصبابة وزند الشوق وخفوق القلب وضرم الأحشاء، ولم يترك مفردة من قاموس الحب والغزل إلا أتى على ذكرها: فالطيف والخيال والأرق والسهر والسهد والجفوة والنفار والعشق والوصل واللقاء والرقيب والعاذل والسلوان والصبر... كل هذا نجده في نسيبه.

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٠ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٧٨.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٩.

(٣) ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٤٥٧ و«التعريف...»، ص ٢٦٥.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٧.

ثم إن الشاعر لم يكتفِ بهذا حتى قرن بالنسيب الوقوف على طلل
المنازل ورسومها الدارسة، فقال:

وَلَقَدْ أَجَدَّ جَوَايَ لَمَّا زُرْتُهُ رَسْمًا كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ مُجِيلًا -
قَدْ أَنْكَرْتُهُ الْعَيْنُ إِلَّا لَمَحَةً عَرَفَتْ بِهِ آثَارَهُ تَخْيِيلًا
وَإِذَا الطُّلُولُ تَعَرَّضَتْ لِمُتِمِّ غَادِرُنْ دَمَعَ جُفُونُهُ مَطْلُولًا^(١)
وقال أيضاً:

وَلَقَدْ أَجَدَّ هَوَايَ رَسْمُ دَارِسُ قَدْ كَادَ يَخْفَى عَنْ خَفِيٍّ تَوْهَمِ^(٢)
وقال كذلك:

مَا لِلْحُمُولِ تَحْنٌ لِلْأَطْلَالِ وَيَشْوُقُهَا ذِكْرُ الزَّمَانِ الْخَالِي
يُنْثِي أَرْمَةً هَيْمَهَا شَوْقٌ إِلَى ظِلِّ الْأَرَاكِ وَأَزْرَقِ سَلْسَالِ
دَعْنِي أَطَارِحْهَا الْحَنِينَ فَإِنِّي لَا أَنْثِي لِمَقَالَةِ الْعُدَالِ
وَهِيَ الْمَنَازِلُ أَشْبَهَتْ سُكَّانَهَا أَعْمَارَهَا تُفْضِي إِلَى الْأَجَالِ
بَلَيْتٌ مَحَاسِنُهَا وَخَفَّ أَنْيُسُهَا وَالشَّوْقُ وَالتَّذْكَارُ لَيْسَ بِيَالِ^(٣)

وكأنني بابين زمرك عاد إلى الوراء قروناً وعصوراً ونسي حداثق الحمراء
وقصورها.

والخلاصة أن الغزل الزمركي يصدر عن فن الشاعر لا عن قلبه، وعن
رغبته في السير على خطى المتقدمين لا عن رغبة في التعبير عما يجيش في صدره
من عاطفة صادقة سامية. وإن كان في هذا الغزل من تجديد فهو نادر،
سأحدث عنه في فصل لاحق.

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...» ٩٧: ٢.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...» ٦١: ٢، و«نفع الطيب...» ١٨٤: ٧.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...» ١٠٧ و ١٠٨.

المبحث الخامس: المسحة الصوفية في شعره

نشأ التصوف في الأندلس، كما نشأ في المشرق، في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، واستمر بين ضعف وازدهار، ولكنه لم ينقطع أبداً، إذ لم يكن عصر من العصور الأندلسية يخلو من التصوف^(١).

وفي مملكة غرناطة ذاتها كان التصوف منتشرأً بين الخاصة والعامة. وكان فيها كثير من الفرق الصوفية. وقد عرفنا أن ابن زمرك قد انضوى إلى بعضها، إلا أنه لم يتأثر كثيراً بما تنطوي عليه طرائقها من تعاليم. ولهذا السبب لا نرى في نتاج ابن زمرك شعراً صوفياً. ولكننا نجد فيه مسحة صوفية تتمثل في هائيته التي يذكر فيها الله ويمجده، وفي مولدياته التي يثني فيها على الرسول، وفي تأثره بالآيات القرآنية، وفي تركيزه على وصف جهاد الغني بالله. ولئن كان الجهاد لا يشكل إلاّ لوناً باهتاً من ألوان التصوف الزاهية، فقد كان له في القرن الهجري الثامن (الرابع عشر الميلادي) أهمية كبيرة لدى المتصوفة. إذ كان للحركة الصوفية في غرناطة دوران أساسيان هما الإرفاق والجهاد^(٢). ولما كانت أهم الحركات الجهادية قد حصلت في عهد الغني بالله إذ بلغت غزواته ذروتها في الفترة ما بين عام ٧٦٧هـ وعام ٧٧١هـ (١٣٦٦ - ١٣٧٠م)، فقد برز الجهاد كغرض فني في تلك الفترة، وأصبح لزماً على شعراء البلاط، ومنهم ابن زمرك، أن يتغنوا بجهاد الغني بالله في مدائحهم.

فأما مديحه النبوي ووصفه الجهادي فقد سبق الكلام عليهما^(٣). وأما قصيدته الهائية فهي قصيدة عيدية لم تورد المصادر منها سوى ثلاثة وخمسين

(١) أمين، أحمد: «ظهر الإسلام»، ٣: ٨٠ و٨١.

(٢) يراجع البحث القيم: «مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي» لمحمد مفتاح، عالم الفكر، العدد الأول من المجلد ١٢، ص ١٧١ - ٢٠٠. يقصد بالارفاق: الايثار.

(٣) في ص ١٣٢ و ١٤٤ من هذا الكتاب.

بيتاً، يهنيء فيها ابن زمرك سلطانه الغني بالله ويمدحه. وقد استهلها بمطلع طويل^(١) توجه فيه الشاعر إلى الله، سبحانه وتعالى، فتحدث عن عظمته وجلاله ونوره الذي أضاء الكون وإيجاده الأشياء من عدم، وذكر نعمه وعطاياه التي لا تعد ولا تحصى ثم سأله اللطف به والإحسان إليه والعفو عنه:

مَا أَقْبَحَ الْعَبْدَ أَنْ يَنْسَى وَتَذْكُرُهُ وَأَنْتَ بِاللُّطْفِ وَالْإِحْسَانِ تَرْعَاهُ
غُفْرَانَكَ اللَّهُ مِنْ جَهْلٍ بُلِيْتُ بِهِ فَمَنْ أَفَادَ وَجُودِي كَيْفَ أَنْسَاهُ^(٢)

ثم انطلق، بعد هذا، إلى مدح رسول الله، ﷺ، في عشرة أبيات ختمها بالصلاة عليه:

صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ أَنْتَ صَفْوَتُهُ مَا طُيِّتَ بِلَذِيذِ الذِّكْرِ أَفْوَاهُ^(٣)

ثم انتقل بعد ذلك إلى مدح الغني بالله في سائر أبيات القصيدة.

وأما تأثره بالقرآن الكريم فواضح في شعره. ونحن نعلم أن ابن زمرك كان يحفظ كثيراً من الآيات القرآنية في الوقت الذي لم يكن فيه يتجاوز السابعة من عمره^(٤). وقد ذكر في شعره أسماء بعض السور كسورة الأنعام^(٥) وسورة الناس^(٦) وسورة العاديات^(٧)، كما اقتبس من معاني القرآن الشيء

(١) بلغ ستة وعشرين بيتاً.

(٢) المَقْرِي: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٤ و«نفح الطيب...»، ٥: ١٧١.

(٣) المَقْرِي: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٤ و«نفح الطيب...»، ٥: ١٧٢.

(٤) المَقْرِي: «أزهار الرياض...»، ٥: ٣٤٠ و٣٤١.

(٥) هي السورة السادسة في القرآن. (يراجع المَقْرِي: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٢ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٣١).

(٦) هي السورة ١١٤. (يراجع المَقْرِي: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٣٣ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٢٥ و٢٣٨).

(٧) هي السورة ١٠٠. (يراجع المَقْرِي: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١٩ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢١٣).

الكثير وأدخله في شعره. ويكفي، هنا، أن أذكر أبرز الأبيات التي ظهر فيها التأثير بالقرآن واضحاً.

قال ابن زمرك:

نَاشَدْتُكُمْ عَهْدَ الْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا وَالْعَهْدُ فِينَا لَمْ يَزَلْ مَسْؤُولًا^(١)

وأخذ معنى العجز من الآية الكريمة: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا»^(٢). وقال:

وَأَتَيْتَ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ مُبَيَّنًا قَدْ فَصَّلْتَ آيَاتِهِ تَفْصِيلًا^(٣)

وأخذ هذا من الآية الكريمة: «كِتَابٌ فَصَّلْتَ آيَاتُهُ»^(٤). وقال:

أَنْتَ الْمُشَفِّعُ وَالْأَبْصَارُ شَاخِصَةٌ أَنْتَ الْغِيَاثُ وَهَوْلُ الْخَطْبِ قَدْ فَدَحَا^(٥)

وأخذ معنى الصدر من الآية الكريمة: «إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ»^(٦).

وأخذ معنى العجز التالي:

بَحْرُ الْوُجُودِ وَفُلُكُ الْكَوْنِ جَارِيَةٌ وَبِاسْمِكَ اللَّهُ مَجْرَاهُ وَمُرْسَاهُ^(٧)

من الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾^(٨).

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٨.

(٢) «الإسراء» ١٧/٣٤.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٩.

(٤) «فصلت» ٣/٤١.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥٥.

(٦) «إبراهيم»، ١٤/٤٢.

(٧) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٣ و«نفع الطيب...»، ٥: ١٧١.

(٨) «هود»، ١١/٤١.

وقال:

وَكُلُّهَا نِعْمٌ لِلْخَلْقِ شَامِلَةٌ تَبَارَكَ اللَّهُ لَا تُحْصَى عَطَايَاهُ^(١)

وهو مأخوذ من: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٢).

وصدر بيته القائل:

يَا فَاتِقَ الرَّتِقِ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ كَمَا فِي سَابِقِ الْعِلْمِ قَدْ خُطَّتْ قَضَايَاهُ^(٣)

مأخوذ من الآية الكريمة: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...﴾^(٤).

وقال:

أَفِيضُوا عَلَيْنَا وَانْظُرُونَا بِفَضْلِكُمْ لِنَقْبَسَ نُورًا لَا يَخِيبُ وَلَا يَخْبُو^(٥)

وهو مأخوذ من الآيتين الكريمتين: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾^(٦) و﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾^(٧).

وقوله:

وَلِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ الْقَدَرِ قَدْ غَدَتْ عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فِي الثَّوَابِ تَقْدَمُ^(٨)

مأخوذ من: ﴿لَيْلَةُ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(٩).

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٤.

(٢) «إبراهيم»، ٣٤/١٤. و«النحل» ١٨/١٦.

(٣) «الأنبياء» ٣٠/٢١.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٤.

(٥) «الحديد» ١٣/٥٧.

(٦) «الأعراف» ٥٠/٧.

(٧) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٨.

(٨) «القدر» ٣/٩٧.

وقوله في العجز:

فَأَفْسَحَ لَهَا أَكْنَافَ صَفْحِكَ إِنَّهَا بِكَرَأْتِ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ^(١)

مأخوذ من: ﴿فَجَاءَتْ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾^(٢).

وقوله:

أَرَادَ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ وَهُوَ مُنْعٍ وَأَصْفَى لِأَخْبَارِ السَّمَاءِ يَتَسَمَّعُ
فَاتَّبَعَهُ مِنْهَا ذَوَابِلُ شُرْعٍ^(٣)

مأخوذ من: ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾^(٤).

وصدر بيته القائل:

نُورٌ عَلَى نُورٍ بِأَبْهَى مَنْظَرٍ فِي حُسْنِهِ لِمُؤْمَلٍ مَا يَأْمُلُ^(٥)
مأخوذ من: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٦).

وفي بيته القائل:

ثَلَاثُتُهَا فِي الذِّكْرِ جَاءَتْ مُبَيَّنَّةٌ مِنَ اللَّاءِ سَمَاهَا لَنَا اللَّهُ زِينَةٌ^(٧)

إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا
وَزِينَةً﴾^(٨).

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥١ و«دفع الطيب...»، ٧: ١٨٣.

(٢) «القصص» ٢٥/٢٨.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٠ و«دفع الطيب...»، ٧: ٢٠٤.

(٤) «الحجر» ١٨/١٥.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١٢ و«دفع الطيب...»، ٧: ٢٠٧.

(٦) «النور» ٣٥/٢٤.

(٧) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩١ و«دفع الطيب...»، ٧: ٢٠٥.

(٨) «النحل» ٨/١٦.

وقال:

يَتْلُو عَلَيْكَ الدَّهْرُ فِي كُلِّ عَامٍ «نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ»^(١)
يَتْلُو عَلَيْكَ الدَّهْرُ بَعْدَ السَّلَامِ «نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ»^(٢)
وَيَكْتُبُ الْفَالُ عَلَى كُلِّ بَابٍ «نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ»^(٣)

والعجز المكرر في الأبيات الثلاثة هو آية كريمة: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾^(٤).

وقوله في الصدر:

مَنْ تَحْسُدُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ عَلَاءَهُ عَالُوا عَلَيْهِ مِنَ الثَّرَى بِطَبَاقٍ^(٥)
ماخوذ من: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾^(٦).

وفي بيته القائل:

أَنْتَى عَلَيْكَ كِتَابُ اللَّهِ مُمْتَدِحًا فَأَيْنَ يَبْلُغُ فِي عِلْيَاكَ مَنْ مَدَحَا^(٧)
إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٨).

وفي بيته:

وَأَكْرِمَ بَايَاتٍ تَحَدَّثَيْنَا بِهَا وَلَا مِثْلَ آيَاتٍ لِمُحْكَمِ فُرْقَانٍ^(٩)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٩٨ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٦٠.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢٠٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٦٤.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢٠٤ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٦٥.

(٤) «الصف» ١٣/٦١.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٠ و«نفع الطيب...»، ٥: ١٩٥.

(٦) «نوح» ١٥/٧١.

(٧) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥٤.

(٨) «القلم» ٤/٦٨.

(٩) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٥ و«نفع الطيب...»، ٥: ٤٩.

إشارة أيضاً إلى الآيات البينات :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ (١).

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴾ (٢).

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ ﴾ (٣).

(١) «البقرة» ٢/٢٣ .

(٢) «يونس» ١٠/٣٨ .

(٣) «هود» ١١/١٣ .

الفصل الثالث فنيته

فنية الشاعر هي الطريقة التي يعبر بوساطتها عن مشاعره، بل هي الكيفية التي يظهر فيها أحاسيسه ومشاعره إلى الوجود. وهذه الكيفية تتجسد تجسداً حياً في لغة الشاعر. وقد ترتبط هذه الفنية بفنية شعراء سابقين له، ممهدين لنموذج فني صادف من نفسه قبلاً، ولاقى استحساناً، فسار فيه إلى أبعد مدى. وقد يكون قبله بكل حسناته وسيئاته، وقد يكون فيه عالة على أساتذته له سبقوه، كان قد رأى فيهم المثال الذي يحتذى.

ولقد ورد في «نفح الطيب...»، على لسان ابن الخطيب قوله: «وشعره (أي شعر ابن زمرك) مترام إلى هدف الإجادة، خفاجي النزعة، كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة، غزير المادة»^(١). فابن الخطيب يؤكد، إذاً، على أن ابن زمرك كان خفاجي النزعة. وقد أخذ غرسياً - غومس هذا التعبير فصاغه بشكل آخر حين قال في كتابه «الشعر الأندلسي»: «ولقد كان ابن زمرك آخر وتر رجع أنغام ابن خفاجة، وأشبهه كذلك في أن ديوان أشعاره نشر في آفاق ثوب وأفخره: لقد زينت جدران الحمراء بأشعاره ونقشت أبياته فيها حول الكوى وعلى أحواض النوافير»^(٢).

(١) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٧: ١٤٧ و ٦: ٧٥.

(٢) «الشعر الأندلسي»، ص ٧٢.

وليؤكد غرسيا - غومس على هذا التشابه، لجأ في كتابه «مع شعراء الأندلس...» إلى الموازنة بين طرديتين: إحداهما لابن خفاجة والثانية لابن زمرك. والذي يقرأ هذه الموازنة قد لا يشك في أن ابن زمرك كان يقتدي في نظمه بابن خفاجة، وأن هذا الأخير إنما كان أستاذه الروحي ينهل من مدرسته ومن طريقته ما يشاء!. فقد ذكر غرسيا - غومس أن الموازنة بين الشاعرين ذات طرافة بالغة، «وهي تكشف لنا عن حقائق جوهرية لأنها تدعم الاتهام الذي رمى به في وجه ابن زمرك معاصروه، وتؤكد في نفس الوقت التأثير الهائل للشعر الرائع ذي الاتجاه المجدد المحافظ الذي عرفته الأندلس على امتداد القرن الحادي عشر الميلادي والنصف الأول من القرن التالي. وكان ابن خفاجة واحداً من خيرة ممثليه، وتأثيره ليس واضحاً جلياً في شعر ابن زمرك وحده وإنما أثر بالتالي أيضاً وتبعاً، في شعر أستاذه لسان الدين بن الخطيب...»^(١).

والواقع أنه إذا كان هناك من تشابه بين الطرديتين من حيث الوزن (الكامل) والروى (الراء) وبعض كلمات القافية فإن هذا النوع من التشابه لا يعد تأثراً بمذهب ولا تقليداً لفنية، لأننا لو فعلنا هذا لاستطعنا أن نعد كل قصيدة على بحر الكامل وروى الراء مشابهة لقصيدة ابن خفاجة، وهذا لا يقبله منطق! ذلك أن عناصر التشابه المذكورة ليست رئيسة ولا أساسية، فهناك الصياغة والألفاظ المختارة والوجوه البلاغية والأخيلة والموسيقى... وكلها عناصر تختلف باختلاف الشاعر واختلاف الغرض على الرغم من توافق البحر والروى. وقد ذكر غرسيا - غومس نفسه، في الصفحة نفسها التي تحدث فيها عن التشابه، أن موسيقى ابن خفاجة أبلغ رقة، وهذا صحيح، ولكنه لم يتحدث عن سائر العناصر.

ويستطيع دارس الطرديتين أن يجد بينهما فروقاً كثيرة تجعل وجوه

(١) «مع شعراء الأندلس...»، ص ٢٢٠ و٢٢١.

الاختلاف بينهما أظهر من وجوه الاتفاق. وعلى فرض أن هذا غير صحيح فإن هناك رداً آخر، في هذه القضية، نستطيع استخلاصه، حتى من قول غرسيا - غومس نفسه. ألم يقل أن الاتجاه المجدد المحافظ في الشعر ترك بصماته واضحة في شعر الأندلس، وأن شعر ابن خفاجة يحمل هذه البصمات؟ أليس ابن خفاجة، إذاً، هو المقلد وهو المقتبس وهو المتأثر؟ لماذا لا يكون ابن زمرك قد تأثر، بدوره، بذلك الاتجاه الشعري مباشرة فاقبَس منه وقلده؟!.

ألم يعترف ابن خفاجة في مقدمة ديوانه أنه قد جنح إلى الأدب يرتاده فتصفح «مثل شعر الرضي ومهيار الديلمي وعبد المحسن الصوري، وما حذا حذوه وأخذ مأخذه، حتى تملكني من تلك المحاسن ما يناسب برد الشباب رقة وبرد الشراب ريقة. فما كان إلّا أن ملت إليه وأقبلت عليه أروقه وأرويه وأحاول التشبه بواحد واحد فيه»^(١).

وأنا لا أقصد من هذه المقدمة أن أقرر أن ابن زمرك لم يقلد ابن خفاجة، بل أقصد أن أقول: إن مجرد التشابه الطفيف بين قصيدتين لشاعرين مختلفين زمنًا وظرفًا، لا يسمى، بالضرورة، تقليدًا. وأنا لا أشك الآن، بعد قراءتي المتأنية لشعر ابن زمرك ولديوان ابن خفاجة أن الأول قد تأثر بالثاني، وخاصة في مجال الطبيعة، ولكنني أستطيع أن أؤكد أن هذا التأثير ضئيل، وأن شاعرنا لم يتأثر بابن خفاجة وحسب، إنما تأثر في البدء بأساتذته وعلى رأسهم لسان الدين نفسه، كما تأثر، في خلال دراسته لكتب المشاركة ودواوين شعرائهم، بطائفة من هؤلاء الشعراء أمثال أبي تمام والبحري وابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء...^(٢). كل هؤلاء نستطيع أن نجد شيئاً من خصائصهم في شعر ابن زمرك، بل لعلنا نجد فيه شيئاً من خصائص الشعر الجاهلي.

(١) «ديوان ابن خفاجة، تحقيق السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، ١٩٦٠م، ص ٦.

(٢) تراجع الصفحات ٢١٦ و ٢١٩ من هذا الكتاب.

فليس غريباً، بعد هذا، أن يتأثر بابن خفاجة، جنان الأندلس الذي استطاع أن يؤسس مدرسة أدبية يمكن أن تسمى بالمدرسة الخفاجية في وصف الطبيعة. فالنزعة الخفاجية أسلوب قائم بذاته، ومذهب شعري متفرد له خصائصه وطريقته ونظامه، من حيث السهولة والسلاسة والعذوبة، وانتقاء الألفاظ وتخيرها، ومن حيث رهاقة الحس وسرعة التأثير. ولقد شاع ديوان ابن خفاجة في عصره، وتنافسوا في روايته، ثم إن نقرأ من الشعراء الأندلسيين تتلمذوا على مدرسته وحبذوا طريقته وتأثروا بمذهبه حتى صار من المألوف أن يوصف بعضهم بأنه خفاجي النزعة. ومن هنا كان قول ابن الخطيب في وصف نزعة ابن زمرك بالخفاجية.

على أن شاعرنا لم يستطع أن يبلغ بشعره مبلغ شعر من تأثر بهم، ولا أن يشأى شأوهم، على الرغم من كونه آخر كبار شعراء الأندلس. ثم إن تأثره بمن ذكرت لم يمنع أن تكون له طريقته الخاصة وأسلوبه الخاص. ولقد كان تأثر ابن زمرك بلسان الدين واضحاً في مبتدأ نظمه، الأمر الذي دعا علياً بن لسان الدين إلى الزعم بأن أباه لسان الدين كان ينظم لابن زمرك مدائحه، وبخاصة مطالعها التشبيبية. ولا أريد أن أقف عند تأكيد غومس قول علي هذا وتصديقه إياه^(١)، فهو حر في أن يصدق ما يشاء. ولكنني أنفي هذا القول كما نفيت، في السابق، أقوال علي المتعلقة بأخلاق ابن زمرك، وذلك لسببين قوين ذكرت أحدهما سابقاً، وهو أن علياً كان يكتب بسواد الحقد لا بسواد المداد، أما السبب الثاني فهو قول صادر عن المقرئ جاء فيه:

«أما ما ذكره ابن لسان الدين بن الخطيب من أن أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك - والله أعلم - كان في ابتداء أمره، وإلا فقد جاء ابن زمرك في آخر أيام لسان الدين وبعد موته بالبدائع التي لا تنكر كما سنذكر»^(٢).

(١) «مع شعراء الأندلس...»، ص ٢١٩ و ٢٢٠.

(٢) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ١٦٢.

وإذا كانت الجملة الأخيرة صحيحة بدليل أن أكثر قصائده وأفضلها منظوم بعد موت ابن الخطيب كما سنرى، فإن الجملة الأولى بما تحمله من ظن تستلزم التدقيق والمناقشة. فالقضية، في الحقيقة، لا تتعدى تتلمذ شاعر مبتدئ على أستاذه الماهر. فلا شيء يمنع من أن ينسج ابن زمرك في مبتدأ نظمه على منوال أستاذه وأن يترسم خطاه، ولا شيء يمنع، كذلك، من أن يعرض التلميذ على أستاذه شيئاً من شعره فيبدي الأستاذ رأيه الصريح فيه ويتعهده بالتفقيح والتهديب والإصلاح، ويوجه تلميذه الوجهة الصحيحة، ويأخذ بيده في معارج الشعر البديع. وبهذا المعنى، فقط، يمكن أن نربط بين الجملتين الواردتين في ما ساقه المقرئ من قول. مع الاعتراف بأن شعر لسان الدين ابن الخطيب يتفوق في كثير من أغراضه على شعر صاحبنا.

هذه المقدمة الممهدة للبحث في فنية ابن زمرك، عاجلت فيها ناحية مهمة من مناحي القول، عنيت بها تأثر الشاعر بفنية من سبقه. وسأتابع الكلام على فنيته بالحديث عن أسلوبه في النظم وسأقف عند العنصر الفني في شعره.

ودراسة هذا العنصر تعني دراسة ألفاظ الشاعر وتراكيبه والمحسنات البلاغية التي ضمَّنَهَا قصائده. على أن لي، قبل ذلك، وقفة قصيرة عند البحور التي اختارها الشاعر وعند الروى الأكثر استعمالاً في قصائده. ذلك بأن على الشاعر أن يختار البحر المناسب للغرض المناسب. فالطويل بحر خضم يستوعب ما لا يستوعبه غيره من المعاني ويصلح للمدح والفخر والحماسة، ويتسع «للتشابه والاستعارات وسرد الحوادث وتدوين الأخبار ووصف الأحوال»^(١). ولهذا نظم المتقدمون أكثر قصائدهم على هذا البحر. والبسيط يقرب من الطويل ولكنه أرق منه وأجزل، وهو لا يتسع لاستيعاب

(١) البستاني، سليمان: مقدمة تعريب «الباذة هوميروس»، دار إحياء التراث العربي، جزءان،

المعاني الكثيرة المختلفة اتّسع الطويل لها. «ولهذا قلّ في شعر أبناء الجاهلية وكثر في شعر المولدين»^(١). أما الكامل فهو أتم الأبحر، يصلح لكل أغراض الشعر! ولهذا «كان كثيراً في كلام المتقدمين والمتأخرين وهو أجود في الخبر منه في الإنشاء وأقرب إلى الشدة منه إلى الرقة»^(٢).

فإذا راجعنا، بعد هذا، الجدول الثاني^(٣)، وجدنا أن أكثر قصائد ابن زمرك إنما هو منظوم على الطويل^(٤) والكامل^(٥) والبسيط^(٦)، وأن القسم الأقل من شعره^(٧) منظوم على الرمل^(٨) والخفيف^(٩) والرجز^(١٠) والمجتث^(١١) والوافر^(١٢) والسريع^(١٣) والمتقارب^(١٤). ولا يجد الباحث، في شعر ابن زمرك، أثراً لبحور المديد والهزج والمنسرح والمضارع والخبب والمقتضب!.

وحاصل هذا كله، أن ابن زمرك لم يخرج في اختياره بحور قصائده عما سار عليه الشعراء المتقدمون، وأنه لجأ إلى النظم على بحور الطويل والكامل والبسيط، لأنها تلائم غرض المدح كل الملاءمة. هذا الغرض الذي نظم فيه ابن زمرك أكثر أبياته. ولعله يصبح مستحسنًا، بعد الحديث عن نزعة ابن

(١) البستاني، سليمان: مقدمة تعريب «الباذة هوميروس»، دار إحياء التراث العربي، جزءان، ٩١: ١.

(٢) البستاني، سليمان: مقدمة تعريب «الباذة هوميروس»، ٩١: ١.

(٣) تراجع الصفحة ٢٤٤ من هذه الدراسة.

(٤) نسبة أبياته ١/٢ ٤٤٪.

(٥) نسبة أبياته ٤٢٪.

(٦) نسبة أبياته ١/٢ ١٠٪.

(٧) أي ما نسبته ٣٪.

(٨) ثمانية عشر بيتاً.

(٩) خمسة عشر بيتاً.

(١٠) أربعة عشر بيتاً.

(١١) اثنا عشر بيتاً.

(١٢) سبعة أبيات.

(١٣) خمسة أبيات.

(١٤) ثلاثة أبيات.

زمرك الخفاجية، أن أذكر، هنا على سبيل المقارنة، النتيجة التي حصلت عليها من استقصائي الأوزان التي نظم عليها ابن خفاجة قصائده. فقد وجدت أن بحر الطويل قد حظي لديه بأكبر نسبة من أبياته^(١)، ويأتي بعده الكامل^(٢) فالمتقارب^(٣) فالبسيط^(٤). وهذا يفسر مرة أخرى أن بحر الطويل هو أحب بحر لدى الشعراء القدامى والمحدثين. والسبب في هذا يعود، كما قلت، إلى سعته ومدى استيعابه ولين تصرفه وسهولة النظم عليه.

أما الحرف الذي كان أكثر استعمالاً كروّي لدى ابن زمرك فلم يكن الرائ كما توهم علي بن لسان الدين الذي انتقد الشاعر لكثرة رائياته... فقد كتب على هامش قصيدة ابن زمرك التي مطلعها: «لولا تألق بارق التذكار...» ما صورته:

«هذا الرجس الشيطان كثيراً ما ينظم في هذا الوزن ويتبع حمارة هذه الرائ حتى لا يتركها جملة»^(٥).

وكتب على قوله: «حياك يا دار الهوى من دار...» ما صورته:

«انظر إلى كثرة تحريكه لحمارّة هذه الرائ، علقت له بها ماخولياً»^(٥).

ويتضح من الجدول الثالث^(٦) أن اللام هي الحرف الأكثر استعمالاً كروي من قبل ابن زمرك^(٧)، ثم يأتي بعده روي الرائ^(٨).

(١) بلغت هذه النسبة ١/٢ ٤١٪.

(٢) نسبة أبياته ٣٠٪.

(٣) نسبة أبياته ١/٢ ٨٪.

(٤) نسبة أبياته ١/٢ ٥٪.

(٥) المقرّي: «نفح الطيب»، ٧، ١٦١.

(٦) تراجع الصفحة ٢٤٥ من هذه الدراسة.

(٧) بلغت نسبة الأبيات اللامية ١/٢ ٢١٪.

(٨) بلغت نسبة الأبيات الرائية ١/٢ ١٨٪. ويلاحظ أن روي الرائ المكسورة أتى في ثلاثمائة وتسعة عشر بيتاً أي ما نسبته ١٢٪.

واستتماماً للمقارنة، أذكر أن الأبيات الرائية عند ابن خفاجة قد بلغت ستمائة وثلاثين بيتاً^(١)، ويأتي بعدها الأبيات الميمية^(٢)، ثم الأبيات اللامية^(٣).

وهكذا نرى أن حرف الراء هو الروي الأكثر استعمالاً لدى ابن خفاجة، لا لدى ابن زمرك. على أي لا أرتاب لحظة في أن الراء من أكثر الحروف استعمالاً كروي لدى الشعراء كافة. وهذا شيء بدهي بالنسبة إلى من يعرف أن الكلمات التي تنتهي بالراء هي أكثر الكلمات العربية إطلاقاً.

ولقد قمت بإحصاء بسيط شمل بعض المعاجم اللغوية فتبين لي صحة ما ذكرت^(٤) كما قمت بإحصاء آخر شمل فهرست القوافي في كل من كتاب «نفع الطيب...» للمقري و«زاد المسافر...» لابن ادريس^(٥)، فتبين أن الأحرف الأكثر شيوعاً كروي هي: الراء واللام والباء والذال والميم والنون، وتجمعها كلمتا «رمل بند».

وجاء في كتاب «القافية في العروض والأدب» للدكتور حسين نصار أن كلاً من الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور علي حلمي موسى قام بدراسة إحصائية لهذا الموضوع، تبين بنتيجتها أن الحروف الأكثر شيوعاً كروي هي: الراء واللام والميم والنون والباء والذال^(٦)، وهي الحروف التي ذكرتها آنفاً مع اختلاف جزئي في الترتيب.

(١) أي ما نسبته ١٩٪.

(٢) وتبلغ ٥٥١ بيتاً أي ما نسبته ١٦ ٢/١٪.

(٣) وتبلغ ٣٣٨ بيتاً أي ما نسبته ١٠٪.

(٤) الكلمات المنتهية بالراء ملأت ٩٢٥ صفحة من «لسان العرب» أي ما نسبته ١٢٪ من عدد الصفحات الاجمالي، و ٢٨٦ صفحة من «الصحاح» أي ما نسبته ١١ ٢/١٪، و ١٩٨ صفحة من «القاموس المحيط» أي ما نسبته ١٢٪.

(٥) ابن ادريس التجيبي المرسى: ديوانه الموسوم «زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر»، عده وعلق عليه: عبد القادر محداد، دار الراشد العربي، بيروت، ١٩٨٠ م.

(٦) نصار، حسين: «القافية في العروض والأدب»، ص ٥٧ و ٥٨.

وغير خافٍ أن للروى دوراً بارزاً في إضفاء النغم على القصيدة، فالشعر يحسن وقعه على السمع الحسن وقع قافيته، ويسوء وقعه لضعف قافيته وسوء وقع رويه حتى ولو كان يتضمن المعاني البليغة والصور الشعرية الرائعة. وإذا كان بعض القوافي يتضمن حروفاً تتكرر بتكرارها في كل بيت كالتأسيس والدخيل والوصل والخروج، فإن الروى جزء لا يتجزأ من كل قافية، وهو الحرف الوحيد الذي يلزم القوافي كلها جميعاً، لأنه الحرف الذي تنبني عليه القصيدة، وتسمى به، فنقول بائية أبي تمام وسينية البحري ولامية الطغرائي...

وإذا كان لكل بحر صفات تلائم غرضاً من الأغراض الشعرية، بحيث لا يجوز، مثلاً، أن ينظم الرثاء على بحر الخبب، فالأمر كذلك بالنسبة إلى الروى، فلا يحسن استعمال القاف، مثلاً، رويّاً في قصيدة غزلية لأنه حرف استعلاء يتصف بالشدة ويجود في غرض الحرب والقتال، والదال يصلح للفخر والميم واللام يحسنان في الوصف، والباء يلائم الغزل والنسيب، أما الراء فهو يصلح لكل الأغراض، تماماً كبحر الكامل، لأنه الحرف الوحيد الذي يتصف بصفتين متضادتين هما الاستعلاء والاستيفال وفقاً لشروط معينة. فإذا كان مضموماً أو مفتوحاً كان حرف استعلاء ولأهم مواضيع الجهاد والغزو والفخر والرثاء، وإذا كان مكسوراً صلح للوصف بصورة عامة، وإذا كان ساكناً غير مسبوق بحرف مد كان فيه عسر شديد وربما صلح للهجاء.

على أن هذا التقسيم لا يشكل، بالضرورة، قاعدة مطلقة. إنما يلاحظ على وجه الترجيح، لأن حرف الراء نفسه تتغير نغمته ورنته، لا باختلاف حركته وحسب، بل باختلاف ما قبله، وباختلاف القوافي من مؤسسة وغير مؤسسة، ومردفة وغير مردفة، وباختلاف الأبحر نفسها. والمرشد الأول في هذا الموضوع يظل سليقة الشاعر وسلامة فطرته وحسن ذوقه وجودة اختياره،

إذ كان عليه، بعد تحديد الغرض الذي يريد أن ينظم قصيدته فيه، أن ينتقي له البحر والروي المناسبين.

وبالرجوع إلى الجدول الثالث، يتبين أن ابن زمرك قد تحاشى حروف الألف والثاء والحاء والزاي والشين والصاد والطاء والظاء والغين والواو، فلم يستعمل أيّاً منها كروي، وأن ما أتى به من أبيات على روي الذال والضاد قليل جداً^(١). وهذا يؤكد حسن اختياره قوافي قصائده كما يؤكد احترامه قارثه.

ولئن كان الروي حرفاً تلزم إعادته، باستمرار، في كل بيت من أبيات القصيدة، فقد التزم ابن زمرك، في بعض أبياته، حروفاً أخرى غير الروي، كررها باستمرار. وهذا ما يسمى في علم العروض بلزوم ما لا يلزم. وهو تقليد سار عليه بعض الشعراء لعل أشهرهم أبو العلاء المعري.

ومن هذه الأبيات ما التزم فيها ابن زمرك تكرار «قوتاً»^(٢):

كَتَبَ الْإِلَهُ عَلَى الْعِبَادِ مَحَبَّةً لَكَ كَانَ فَرَضُ كِتَابِهَا مَوْقُوتَا
وَأَنَا الَّذِي شَرَّفْتُهُ مِنْ بَيْنِهِمْ حَتَّى جَعَلْتَ لَهُ الْمَحَبَّةَ قُوتَا
مَا زِلْتُ تُتَحَفُّهُ بِكُلِّ دَخِيرَةٍ حَتَّى لَقَدْ أُتَحَفَّتُهُ الْيَاقُوتَا
وَأِلَى الْمُلُوكِ قَدْ اعْتَزَى مِنْ عِزِّهِ فَعَدَا لَهُ يَاقُوتُهَا مَمْقُوتَا^(٣)

ومنها ما التزم فيها كلمة «مالياً»^(٤):

يُكَلِّفُنِي مَوْلَايَ رَجَعَ جَوَابِهِ وَمَا لِي تَعَاطِي الْمُعْجَزَاتِ وَمَالِيَا
أَحْيَيْكَ لِلْفَضْلِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَأَكْتُبُ مِمَّا قَدْ أَفْذْتُ الْأَمَالِيَا

(١) بلغ ثمانية أبيات فقط.

(٢) الروي هو التاء.

(٣) المقرئ: وأزهار الرياض، ٤، ٢: ١٢٦ و«نفع الطيب»، ٧: ٢١٩.

(٤) الروي هو الياء.

فَأَنْتَ الَّذِي طَوَّقْتَنِي كُلَّ مِنْةٍ وَأَخَسَبْتَ آمَالِي وَأَكْسَبْتَ مَالِيَا^(١)

ومنها ما التزم فيها كلمة «سائلا»^(٢):

أُزَوِّرُ بِقَلْبِي مَعَهْدَ الْأَنْسِ وَالْهَوَى وَأَنْهَبُ مِنْ أَيْدِي النَّسِيمِ رَسَائِلًا
وَمَهْمَا سَأَلْتُ الْبَرْقَ يَهْفُومِنَ الْحَمَى يُبَادِرُهُ دَمْعِي مُجِيبًا وَسَائِلًا
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْأَمَانِي تَعْلُلُ أُبْرِعَى لِي الْحَيُّ الْكَرَامُ الْوَسَائِلَا؟
وَهَلْ جِئْتَنِي الْأُولَى كَمَا قَدْ عَهْدَتْهُمْ يُوَالُونَ بِالْإِحْسَانِ مَنْ جَاءَ سَائِلًا^(٣)

وقد ورد في «نفح الطيب...»^(٤) أن قارئاً اتهم شاعرنا بالوقوع في الإبطاء المذموم حين كرر كلمة «سائلا» مرتين، وزعم أن كليهما من السؤال، والحقيقة التي فاتت إدراك ذلك القارئ أن «سائلا» الأولى من سال والثانية من سأل.

أما الجوازات المباحة التي ضَمَّنَهَا شعره فقد تراوحت بين صرف ما لا ينصرف^(٥) ومنع ما ينصرف^(٦) وتحريك ساكن^(٧) وتسكين متحرك^(٨) وعدم تحريك ياء المضارع المنصوب^(٩) وعدم تحريك ياء الفعل الماضي^(١٠) وتحويل

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٧ و«نفح الطيب...»، ٦: ٧٨. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٨٨.

(٢) الروى هو اللام.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٠ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٥٨. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٥.

(٤) ٧: ١٦٢.

(٥) في مائة وخمس وعشرين كلمة.

(٦) في كلمتين.

(٧) في اثنتين وعشرين كلمة.

(٨) في ست كلمات.

(٩) في ست كلمات.

(١٠) في كلمتين.

همزة القطع إلى همزة الوصل^(١) وقصر الممدود^(٢) وتسهيل الهمزة إلى ألف^(٣) وإلى ياء^(٤) وتبادل حركتين بين حرفين^(٥).

وفي ما يتعلق بالتدوير، فهو، وإن جاز أن يكون في كل البحور، يستوطن، عادة، بحر الخفيف. والغريب أننا نجد هذا التدوير في تسعة أبيات زمركية كلها على بحر الكامل!!^(٦).

نستخلص من هذا كله، أن ابن زمرك لم يكن يحب أن يتقعر في

(١) في كلمتين.

(٢) في ثماني كلمات.

(٣) في كلمة واحدة.

(٤) في ثلاث كلمات.

(٥) في كلمة واحدة.

(٦) وهذه الأبيات هي:

يَا مُظْهِرَ الْحَقِّ الْجَلِيِّ وَمُطْلِعَ الْ
(م) نُورِ السَّيِّئِ الشَّاطِعِ الْأَضْوَاءِ
(المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٩ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨١).

حَلِيقَتُهُ بِحُلَى الْكَمَالِ وَجَوْهَرِ الْ
(م) خُلُقِ النَّفِيسِ وَكُلِّ خَلْقٍ يَجْمَلُ
(المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١٦ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢١١).

هَذَا وَجَدِي مِثْلُ وَجَدِي عِنْدَمَا اسْدَ
(م) تَشَعَّرَتْ مِنْ رَكْبِ الْحِجَارِ رَجِيلاً
(المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٧).

أَتْنِي عَلَيْكَ بِكُتُبِهِ مَنْ أَنْزَلَ الْ
(م) قُرْآنَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
(المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٩).

حَيْثُ الْوُجُوهُ صَبَاحَةً وَالْمَكْرُمَاتُ
(م) تُ صَرِيحَةً وَالْعِزُّ غَيْرُ مُزَالٍ
قَدْ عُوْدُهُ! نَصْرَ الْعَزِيزِ وَخَوَّلُوا الْ
(م) فَتَحَ الْمُؤْمِنِينَ بِمُلْتَقَى الْأَبْطَالِ
(المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٩).

هُوَ مُظْهِرُ الْمُلْكِ الْعَلِيِّ وَمُطْلِعُ الْ
(م) نُورِ الْجَلِيِّ بِمَرْقَبٍ مُتَعَالٍ
(المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١٠).

يَا ابْنَ الْإِمَامِ ابْنِ الْإِمَامِ ابْنِ الْإِمَامِ
(م) مِ ابْنِ الْإِمَامِ وَقَدَّرَهَا لَا يُجْهَلُ
(المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١٥ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٠٩).

أَنْتَ الْإِمَامُ ابْنُ الْإِمَامِ ابْنِ الْإِمَامِ
(م) مِ ابْنِ الْإِمَامِ وَفَخَّرَهَا لَا يُعْدَلُ
(المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٢١ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢١٥).

كلامه، إنما يحبّ القوافي السهلة التي لا يضطر معها إلى الاستنجاد بمعاجم اللغة. وهذا لا يطعن في الشاعر أبداً. إنه، على العكس تماماً، دليل على حسن اختياره ألفاظه وعلى الابتعاد عن المفردات الغريبة التي تستوجب التنقيب في بطون القواميس.

وعلى ذكر الألفاظ أقول: كلنا يعرف أن اللفظ مادة الكلام، ففيه تتجسد المعاني والأفكار والأخيلة، وبه يستطيع الشاعر بلورة ما يعتل في نفسه من عواطف ومشاعر. وقد وضع القدامى مقاييس لنقد الألفاظ فتحدثوا عن دقة اللفظ وسهولته وعذوبته، وفرقوا بين مانوسه وغريبه، وتطرقوا إلى الحديث عن جرسه وإيقاعه، وتكلموا على ملاءمته للمعنى وإيحائه به، وضربوا الأمثلة اللازمة للتدليل على كل ما ذهبوا إليه من آراء وأقوال.

ولو أردنا أن نطبق هذه المقاييس على ألفاظ ابن زمرك في أدبه، لوجدنا أن الصفتين الغالبتين عليها هما السهولة والدقة. فقد وفق، في أكثر الأحيان، إلى استعمال ألفاظ سهلة تعبر تمام التعبير عن المعنى المطلوب، وهي بعيدة كل البعد عن الغرابة والابتذال. ولا نستغرب هذا إذا عرفنا أن الشاطبي^(١)، زميل الشاعر، قد ذكر في كتابه «الإنشادات والإفادات» ما صورته:

«إفادة: أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن زمرك إثر إيباه إلى وطنه من رحلة العدو، في علم البيان فوائد أذكر منها ثلاثاً: الفقه في اللغة، وهو النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب، ومن مثل هذا الوجه «قرم» و«عام» إذا اشتهى، لكن لا يستعمل «قرم» إلا مع اللحم ولا يستعمل «عام» إلا مع اللبن، فتقول عمت إلى اللبن، وكذلك قولهم أصفر فاقع وأحمر قان، ولا يقال بالعكس، وهذا كثير، والثانية تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال، فلا يستدل بالحوشي من اللغات، ولا

(١) سبق التعريف به في الصفحة ٦٧ من هذه الدراسة.

المبتذل في ألسن العامة. والثالثة اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه، إذ المقصود الوصول في بيان المعنى إلى أقصاه، والإتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه في الذهن، وتحري كل صيغة تمكّن المعنى وتحرّض السامع على الاستماع...»^(١).

وقد اتبع ابن زمرك، غالباً، هذه القواعد في ما نظم. فاسمعه وهو يصف زرافة:

تَاهَتْ بِكُلِّكِلِهَا وَأَتْلَعَ جِيْدُهَا وَمَشَى بِهَا الْإِعْجَابُ مَشْيَ وَقَارٍ^(٢)

وأتلع جيدها يعني امتد عنقها وطال. ولما كان عنق الزرافة طويلاً فلا يمكن الباحث، مهما نقب وفتش، أن يجد كلمة تعبر عن المعنى المقصود سوى هذا الفعل: أتلع.

وأضع مثلاً آخر على دقة ألفاظه: كلمة «استدرج» في قوله من عيادية لامية:

وَاللَّهُ جَلُّ جَلَالُهُ إِنْ أُمِهَلْتُ أَحْكَامُهُ مُسْتَدْرِجاً لَا تُهْمَلُ^(٣)

و «مستدرجاً»، هنا، قد تظهر لأول وهلة، وكأنما قد جيء بها لتكملة الوزن، إلا أنها، في الحقيقة، حال مؤسسة مبينة، تفسر كيفية الإمهال والمقصد منه. فالله، سبحانه وتعالى، إذا أراد أن يستدرج عبده جدد له نعمة كلما جدد خطيئة وأنساه الاستغفار ثم أخذه قليلاً قليلاً ولم يباغته. وقد ورد هذا الفعل في القرآن مرتين: في الآية ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤) وفي الآية: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ

(١) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ٢٧٩.

(٢) نفسه، ٧: ١٥٣.

(٣) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ٢٠٨.

(٤) «الأعراف»، ١٨٢/٧.

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾. ولو أراد أي بليغ أن يعبر، بدقة، عن هذا المعنى، بحيث يبرزه دون أن يزيد فيه أو يقصر عنه، لما استطاع أن يأتي بسوى هذه اللفظة، ذلك بأن المعنى الواحد الدقيق لا يمكن، في رأيي، أن يعبر عنه إلاّ بالفاظ بعينها دون سواها.

فإذا وجدنا ألفاظاً ما لا تعبر عن المعنى المطلوب المفهوم من السياق، فإن الخطأ يكون خطأ الأديب الذي خاناه اللفظ الملائم فاستبدل به لفظاً غير نازل منزلته. واختيار الألفاظ الدقيقة المصابقة للمعنى يعد من الفصاحة. وليس كل من كتب أو تحدث فصيحاً بالضرورة.

ولقد وقعت في شعر صاحبنا على لفظتين بعيدتين من الفصاحة لتنافر الحروف فيهما وثقل محملهما على اللسان مما يستدعي صعوبة النطق بهما لتقارب المخارج بين أحرفهما. الأولى لفظة «سجسج»، وقد وردت في البيت الآتي:

كَسَوَهُ مِنَ الْوُشِيِّ الْيَمَانِيِّ هَوْدَجًا يَمْدُ عَلَى مَا فَوْقَهُ الظَّلَّ سَجَسَجًا^(٢)

والثانية لفظة «مستحصف» التي وردت في داليتها لابن خلدون:

وَإِنِّي بَبَابِ الْمُلْكِ حَيْثُ عَهْدَتِي مَدِيدُ ظِلَالِ الْجَاهِ مُسْتَحْصَفَ الْعَقْدِ^(٣)

كما وقعت أيضاً على لفظين غريبين يستوجبان فتح المعاجم ليفهم معناهما وهما: «كَعَت»^(٤) في قوله:

فَإِنْ كَعَتِ الْأَبْطَالُ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى يُشِيرُ لَنَا مِنْهُ الْبَنَانُ الْمُطْرَفُ^(٥)

(١) «القلم» ٤٤/٦٨.

(٢) المقرئ: «نفع الطيب. ٤»، ٧: ٢٠٥. والسجسج: الأرض ليست بصلبة ولا سهلة وما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. (محيط المحيط، ص ٣٩٧).

(٣) ابن خلدون: «العبر. ٤»، ٧: ٤٥٨. واستحصف الشيء: استحكم. (محيط المحيط، ص ١٧٣).

(٤) كَعَم: جبن وضعف (محيط المحيط، ص ٧٨٣).

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض. ٤»، ٢: ١٥٢.

و «يتوكل»^(١) في قوله:

يَهْنِي الْمَعَالِي وَالْمَفَاخِرَ أَنَّهُ فِي مُرْتَقَى أَوْجِ الْعُلَى يَتَوَقَّلُ^(٢)

على أن هذا لا يؤثر على حكمنا السابق، فهو استثناء يؤكد القاعدة التي تقول: إن ألفاظ ابن زمرك سهلة مألوفة بعيدة من الغرابة والوحشية، يتسم معظمها بالدقة ويتصف بالعدوبة. ويكفي، للتدليل على هذا، أن أذكر هنا بعض أبياته من غير أن أتعمد اختيارها:

حَيَّاكَ يَا دَارَ الْهَوَى مِنْ دَارِ نَوَى السَّمَكِ بِسِدْمَةٍ مَذَرَارِ
وَأَعَادَ وَجْهَ رَبَّاكَ طَلْقًا مُشْرِقًا مُتَضَاحِكًا بِمَبَاسِمِ النُّوَارِ
أَمَذَكَّرِي دَارَ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى حَيْثُ الشَّبَابُ يَرِفُ غُصْنُ نُضَارِ
عَاطَيْتَنِي عَنْهَا الْحَدِيثَ كَأَنَّمَا عَاطَيْتَنِي عَنْهَا كُؤُوسَ عُقَارِ
إِيهِ وَإِنْ أَذَكَّيْتَ نَارَ صَبَابَتِي وَقَدَحْتَ زَنْدَ الشُّوقِ بِالتَّذْكَارِ
يَا زَاجِرَ الْأَطْعَامِ وَهِيَ مَشُوقَةٌ أَشْبَهْتُهَا فِي زَفَرَةٍ وَأَوَارِ
حَنْتَ إِلَى نَجْدٍ وَلَيْسَتْ دَارَهَا وَصَبْتُ إِلَى هِنْدِيَّةٍ وَالْغَارِ^(٣)

أما تراكيبه فواضحة، لا معازلة فيها ولا تعقيد، ولا غموض ولا التواء. فهي مصوغة في قوالب تقليدية، إن خلا أكثرها من الطرافة، فهي لم تخلُ من نبض القوة وسهولة الانسياب. اسمعه وهو يمدح الغني بالله:

ظَلُّ الْإِلَهِ عَلَى الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا فَخَرُ الْمُلُوكِ السَّادَةِ الْخُلَفَاءِ
كَالدَّهْرِ فِي سَطَوَاتِهِ وَسَمَاحِهِ تَجَرِي صَبَاهُ بِزَعَزَعٍ وَرُخَاءِ
رَقَّتْ سَجَايَاهُ وَرَاقَتْ مُجْتَلَى كَالنَّهْرِ وَسَطَ الرُّوضَةِ الْغَنَاءِ^(٤)

(١) توَقَّلَ في الجبل: صَعَدَ. (محيط المحيط، ص ٩٨٢).

(٢) المقرئ: «نفع الطيب...»، ٧: ٢١١.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٤. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٠.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٩ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٢.

على أن الحديث عن الفنية لا يتم، بالطبع، إلا بالحديث عن الوجوه البلاغية التي ضمّنها الشاعر قصائده. وذلك للصوقها بالأسلوب الأدبي، ولأنه لا معنى للأدب بدونها. وتجب الإشارة إلى أن هذه المحسنات قد نظمتها علوم ثلاثة هي علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع. والذي لاحظته، بعد إحصائي هذه المحسنات في شعر ابن زمرك، أن المحسنات البيانية والبديعية ظاهرة وكثيرة بحيث يجب إثارها بالتبيين والكشف، فهي تشكل حجر الزاوية في شعره كله، وسنرى، في فصل لاحق أفردته للحديث عن جايده الشاعر، أن أكثر هذا الجديد إنما تأتى له من استعمال الوجوه البيانية بصورة خاصة والاستعارة بصورة أخص.

ولا أريد، هنا، أن أحصي، حصراً، كل ما أتى به الشاعر من وجوه بيانية وبديعية، فالمجال لا يتسع، بالتأكيد، إلا للتمثل ببعض الأبيات التي تتضمن هذه الوجوه.

فمن تشبيهاته، وهي كثيرة، قوله يشبّه الغني بالله بالجلل الراسي :

هُوَ الْجَبَلُ الرَّاسِي تَصَدَّعَ بَعْدَمَا أَقَرَّتْ بِهِ شُمُّ الْجِبَالِ رَوَاسِيهَا^(١)
وبالمسك :

وَمَا أَنْتَ إِلَّا الْمِسْكُ إِنْ تَخَفَ ذَاتُهُ يَنْمَ بِهَا الْعَرْفُ الذَّكِيُّ فَيُفْشِيهَا^(٢)
والمجاز لديه قليل، منه لفظ «ذقت» في قوله :

وَقَدْ عِشْتُ حَتَّى ذُقْتُ فَقَدْكَ قَلَمًا تُبْلُغُ نَفْسُ مَا تُرِيدُ أَمَانِيهَا^(٣)
ولفظ «الأبادي» في قوله :

(١) المقرّي : «أزهار الرياض» ، ٤٠٠ ، ٢ : ١٥٥ .

(٢) نفسه ، ٢ : ١٥٦ .

وَلَكَ الْيَادِي الْبَيْضُ قَدْ طَوَّقَتْهَا صَيْدَ الْمُلُوكِ ذَوِي النَّلَادِ الْأَقْدَمِ^(١)

ومن كنياته الكثيرة قوله:

أَعِنْدَكَ أَنَّ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالْحِجَى وَزَهْرَ الْحَلَى قَدْ أُذْرِجَتْ طَيِّ مَلْحَدِ^(٢)

وقوله:

وَإِنْ طَوَّتِ الْبُرْدُ الْيَمَانِي يَدُ الْبَلَى فَقَدْ نَشَرَ الْبُرْدُ الْجَدِيدُ الْمُفَوِّ^(٣)

أما الاستعارة فهي تفوق الوجوه البيانة الأخرى كما وكيفاً. وقد تجلت، أكثر ما تجلت، في تشخيصه الأشياء وبعثه الحياة والحركة في الجمادات، ومنها قوله:

وَتَبْكِيهِ حَتَّى الشُّهُبُ فِي أَفْقِ الْعَلَا وَتَلْبَسُ جِلْبَابَ الظَّلَامِ جَوَارِيهَا^(٤)

وقوله:

أَسَامِرُ نَجْمِ الْأَفْقِ حَتَّى كَأَنَّا وَقَدْ سَدَلَ اللَّيْلُ الرِّوَاقَ حَلِيفَانِ^(٥)

ومن الوجوه البديعية نجد ألواناً كثيرة. أولها الطباق ومنه: «أذكرني وناسياً» في قوله:

وَأَذْكُرْنِي ثَغْراً ظَمِئْتُ لِوَرْدِهِ وَلَا وَالْهَوَى الْعُذْرِيَّ مَا كُنْتُ نَاسِياً^(٦)

ومنه: يطع ويعصي، ونصيحاً ولاحياً في قوله:

وَمَنْ يُطْعِ الْأَلْحَاطَ فِي شِرْعَةِ الْهَوَى فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْصِيَ نَصِيحاً وَلَا حِيَا^(٧)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٦.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٥٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٣٥.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٩.

(٤) نفسه، ٢: ١٥٥.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٣ و«نفع الطيب...»، ٥: ٤٧.

(٦) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٦ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٩.

(٧) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٦ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٨.

وتأكيد الذم بما يشبه المدح:

وَلَدُ الْفَقْرِ وَالرِّبَاطِ وَلَكِنْ نَفْسُهُ لِلْسُّلُوكِ ذَاتُ افْتِقَارٍ^(١)

وتأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ بَنَانَهُ تُغَرِّقُ مُسْتَجِدِّهِ فِي أَبْحَرِ النَّدَى^(٢)

وفي قوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ سِنَانَهُ إِذَا شَمَّ رِيحَ النَّقْعِ فِي الْحَرْبِ يَرْعُفُ^(٣)

والإرصاد في قوله:

أُبْكِي وَبَيْسُمُ وَالْمَحَاسِنُ تُجْتَلَى فَعَلِقْتُ بَيْنَ تَبْسُمٍ وَبُكَاءٍ^(٤)

وفي قوله:

وَلَا أَدْرْتُ كُؤُوسَ الْعَزَمِ مُغْتَبِقًا إِلَّا أَدْرْتُ كُؤُوسَ الْعِزِّ مُصْطَبِحًا^(٥)

والمبالغة، وهي على أقسام ثلاثة: تبليغ وإغراق وغلو، ولئن كان التبليغ والإغراق مقبولين فإن الغلو مستكره. فاسمع الشاعر كيف غلا في قوله:

كَتَبْتُ وَدَمْعِي بَلَّلَ الرُّكْبَ قَطْرُهُ وَأَجْرَى بِهِ بَيْنَ الْخِيَامِ السَّوَاقِيَا^(٦)

فلو أن ديمة مدراراً هطلت ساعات طوالاً لما استطاعت أن تجري السواقي بين الخيام!!.

(١) المقرئ: «دفع الطيب...»، ٧: ١٦٧.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٨٣ و«دفع الطيب...»، ٧: ١٩٧.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٥١.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٧ و«دفع الطيب...»، ٧: ١٨٠.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥٢.

(٦) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٣٤ و«دفع الطيب...»، ٧: ٢٢٧.

قال أيضاً وفي قوله غلو واضح:

يَا ابْنَ الَّذِينَ إِذَا تُعَدُّ خِلَالَهُمْ نَفَذَ الْحِسَابُ وَأَعْجَزَتْ مِنْهَا الْقَدَرُ^(١)

واللف والنشر في قوله:

يَا ابْنَ الَّذِينَ جَمَالُهُمْ وَنَوَالُهُمْ شَمْسُ الصُّحَى وَالْعَارِضُ الْمُتَهَلِّلُ^(٢)

وفي قوله:

طَاوَلَتْ عُلوِيَّ النُّجُومِ بِهِمَّةٍ لَا فَاقِدَاءَ عِزًّا وَلَا مِكْسَالَ^(٣)

وقلب الوصف وإبدال الحكم في قوله:

وَالتَّاجُ تَاجُ الْبَدْرِ فِي أَفْقِ الْعَلَا مَا زَالَ بِالزُّهْرِ النُّجُومِ يُكَلِّلُ^(٤)

والجناس وهو على نوعين: تام وناقص. فمن التام قوله:

سَلِ الْأَفْقَ بِالزُّهْرِ الْكَوَكِبِ حَالِيَا فَإِنِّي قَدْ أَوْدَعْتُهُ شَرْحَ حَالِيَا^(٥)

ومن الناقص قوله:

إِنَّ الْحِجَارَ مَغَانِيهِ بِأَنْدَلُسٍ أَلْفَاظُهَا طَابَقَتْ مِنْهَا مَعَانِيهَا^(٦)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٢٤ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢١٧.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٢١ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢١٥.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١٠.

وهذا البيت يحير السامع لأول وهلة، فيظن أن الشاعر أخطأ حين عطف «مكسال» المجرورة على «فاقداء» المنصوبة، حتى إذا دقق النظر فيه قليلاً أدرك أن البيت صحيح وأن فيه وجهاً بديعاً يدعى باللف والنشر، فـ«فاقداء» حال من التاء في طاولت، و«مكسال» صفة لـ«همة» على أي، بالرغم من هذا، لا أوافق الشاعر على أن يداخل بين الكلام ففي هذا تعمية على القارئ.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١٦ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢١٠. والمقصود هنا النجوم الزهر.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٥ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٨.

(٦) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢٢ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٧١.

والسجع في قوله:

كَالزُّهْرِ فِي إِبْرَاقِهِ وَالْبَدْرِ فِي إِشْرَاقِهِ وَالزُّهْرِ فِي لَأْلَاءِ^(١)

وفي قوله:

كَالزُّهْرِ فِي لَأْلَائِهِ وَالْبَدْرِ فِي عَلَيَّائِهِ وَالزُّهْرِ فِي الْإِبْرَاقِ^(٢)

والترصيع في قوله:

غُيُوثُ سَمَاحٍ وَالْعُقَاةُ مَسَايِلُ لُيُوثُ كِفَاحٍ وَالْكُمَاةُ تُنَازِلُ^(٣)

وفي قوله:

أَلَسْتُ الَّذِي تَرْجُو الْعُقَاةُ نَوَالَهُ فَتُحْجِلُ جَدَّوَاهُ السَّحَابَ الْغَوَادِيَا
أَلَسْتُ الَّذِي تَخْشَى الْبُعَاةُ صِيَالَهُ فَتُوجِلُ عَلَيْهِ الصَّعَابَ الْعَوَادِيَا^(٤)

وتزواج الجمل في البيت الواحد، ومنه قوله:

الْبِشْرُ فِي وَجْهِهَا وَالْيَمْنُ فِي يَدِهَا وَالسَّحْرُ فِي لَفْظِهَا وَالذُّرُّ فِي فِيهَا^(٥)

وقوله:

فَلَا الْحَفْلُ مَرْهُوبٌ وَلَا الْخَطْوُ قَاصِرٌ وَلَا السَّرْبُ مُرْتَاعٌ وَلَا الرُّوْعُ هَائِلٌ
وَلَا الْقَلْبُ مَنْخُوبٌ وَلَا الْحِلْمُ طَائِشٌ وَلَا الْعَقْلُ مَعْقُولٌ وَلَا الْفِكْرُ ذَاهِلٌ^(٦)

والتضمين في قوله:

يُقَيِّدُ طَرَفَ الطَّرَفِ مَهْمَا نَظَرْتَهُ «وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدًا»^(٧)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٩ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٨٢.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٢ و«نفح الطيب...»، ٥: ١٩٦.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٧٥.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٨ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٩٠.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢٧ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٧٦.

(٦) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٧٨.

(٧) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٢ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٠٥.

وفي قوله: «أَنَا مُنْشِدٌ: مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةٌ مِنْ بَاسٍ»^(١)

والتذييل في قوله، مذيلاً على بيتين لابن المعتز:

«سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهِ بِشَعْرَهَا شَبِيهَةً خَدَّيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبٍ»
«فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلَيْنِ لِلشَّعْرِ وَالِدُجَى وَشَمْسَيْنِ مِنْ خَمَرٍ وَخَدَّ حَبِيبٍ»
إِلَى أَنْ بَدَا الصُّبْحُ الْمُبِينُ كَأَنَّهُ مُحْيَاً ابْنَ نَصْرِ لَمْ يُشْنِ بِغُرُوبِ^(٢)

وفي قوله، مذيلاً على بيت لابن وكيع:

«هِيَ فِي أَوْجِهِ النَّدَامَى عَقِيقٌ وَهِيَ مِثْلُ النَّصَارِ فِي الْأَفْدَاحِ»
كَأَنَّ نَصْرَ تَرَاهُ فِي الْحَرْبِ لَيْثًا وَهُوَ بَذَرُ النَّدَى وَغَيْثُ السَّمَاحِ
ذِكْرُهُ قَدْ ثَنَى قُدُودَ النَّدَامَى وَأَعَادَ الْحَيَاةَ فِي الْأَرْوَاحِ^(٣)

ويلاحظ من هذه الأبيات جميعها، أن الوجوه البيانية والبديعية قد كست شعر ابن زمرك بهاءً وزادته ألقاً، لما لها من أثر في تحسين الكلام وتزويقه وإضفاء الجمال والرونق عليه. وبهذا ينماز الأسلوب الأدبي عن الأسلوب العلمي في الكتابة. فالأسلوب العلمي هادئ بعيد من الخيال والانفعال، يناجي العقل ويشرح الحقائق، لذلك كان الوضوح أظهر ميزاته، وهو يكاد يخلو من المحسنات إلا ما أتى منها عفو الخاطر أو قصد به تقريب الحقائق إلى الإفهام وتوضيحها كاستعمال التشبيه. بينما نرى الأسلوب الأدبي

= والمعجز هنا هو عجز بيت للمتنبي وصدوره: «وَقَيْدَتْ نَفْسِي فِي دُرَاكِ نَحْبَةٍ». (ديوان المتنبي، شرح العكبري، دار المعرفة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٨م، ١: ٢٩٢).

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٣٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٢٥.

هو صدر بيت لأبي تمام، وعجزه: «نَقَضِي ذِمَامَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ». (ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عزام، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥، دار المعارف بمصر، ٢: ٢٤٢).

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٢ و١٤٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٣٢.

يمتاز بما فيه من خيال وتصوير وتلمس لوجوه الشبه البعيدة بين الأشياء وتحسيم وتشخيص... ولهذا كان الجمال أبرز صفاته. من هنا كانت الوجوه البيانية والبديعية روح الأدب وجنانه.

ولئن كانت المحسنات البديعية تزيد النص الأدبي حسناً وجمالاً، بشرط أن يلزم فيها الشاعر سجية الطبع فلا يعتمد الإتيان بها تعمداً ولا يستكثر منها، فإن الوجوه البيانية تضيي على النص الصفة الأدبية البحتة، فهي، من جهة، تبرز المعنى الواحد في صور متعددة، الأمر الذي لا تتيحه الدلالة اللغوية أو الوضعية للمفردات، وهي، من جهة أخرى، تكسب مفردات اللغة معاني جديدة.

ففي المجاز يُسقط الشاعر المعنى الحقيقي للفظ ليعطيه معنى آخر جديداً، على أن تكون بينه وبين المعنى الأصلي علاقة معينة، وعلى أن تشمل الجملة الحاوية ذلك اللفظ المجازي على قرينة تنفي إيراد المعنى الأصلي الحقيقي. فكلية «الأيادي» في قول ابن زمرك:

وَلَكَّ الْأَيْدِي الْبَيْضُ قَدْ طَوَّقَتْهَا صَيْدَ الْمُلُوكِ ذَوِي التَّلَادِ الْأَقْدَمِ^(١)

مفردها يد، ولليد في اللغة معنى وضعي يدل على الكف. إلا أن الشاعر استعملها في البيت بمعنى النعمة. وحق له ذلك لأن بين اليد بمعنى الكف واليد بمعنى النعمة علاقة آلية واضحة، إذ اليد هي آلة العطاء والعون. ولما كان المجاز أبلغ من الحقيقة كما يؤكد علماء البلاغة وأربابها، كان استعمال كلمة الأيادي أبلغ وأبدع من استعمال كلمة النعم، لما يفيد المعنى الأول من التأكيد على إثبات المعنى والتلطف في إيراده.

وللتشبيه، أيضاً، دور في تجميل النص الأدبي. ويكفي، لإثبات هذا،

(١) المقرئ: «أزهار الرياض» ٤٠، ٢: ٦٣ و«نفح الطيب» ٤٠، ٧: ١٨٦.

إيضاح الفرق الكبير بين أن يقول ابن زمرك في مدح الغني بالله: إنه قوي مرهوب، خصاله فاضلة مشهورة ووجه مشرق جداً وقسماته مليحة واضحة... وأن يقول:

كَالذَّهْرِ فِي سَطَوَاتِهِ وَسَمَاجِهِ تَجْرِي صَبَاهُ بِزَعَزَعٍ وَرُخَاءٍ
رَقَّتْ سَجَايَاهُ وَرَاقَتْ مُجْتَلَى كَالنَّهْرِ وَسَطَ الرُّوْضَةِ الْغَنَاءِ
كَالزُّهْرِ فِي إِيْرَاقِهِ وَالْبَدْرِ فِي إِشْرَاقِهِ وَالزُّهْرِ فِي لَأْلَاءِ^(١)

فإن هذه التشبيهات التي أتى بها الشاعر، بغض النظر عن تقليديتها، جعلت المعاني أفخم وأنبّل إذ نقلتها من المعلوم إلى المحسوس، فكانت أعلق بالسمع وأدعى للحفظ. هذا إلى أن التشبيه، والبلغ منه بوجه خاص، يؤدي إلى تقوية المعنى بالفاظ أقل^(٢).

أما الاستعارة فهي، بلا ريب، أقوى من التشبيه وأبدع، لأنها تكسو المعاني أبهة، وتضاعف تحريك النفوس لها، وتستثير ما في القلوب وما في الأسماع من كلف وشغف بالجمال، وتجعل الأبيات الشعرية أسير على الألسن وأحسن وقعاً على الأذان!^(٣).

فحين قال ابن زمرك:

أَسَامِرُ نَجْمِ الْأَفْقِ حَتَّى كَأَنَّا وَقَدْ سَدَلَ اللَّيْلُ الرِّوْاقَ حَلِيفَانِ^(٤)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٩ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٨٢.

(٢) فنحن إذا أردنا أن نصف شخصاً بالاحتياال الشديد ولم نلجأ في هذا الوصف إلى استعمال التشبيه، قلنا: «فلان محتال احتيالاً كبيراً لا مثيل له». فإذا استعنا بالتشبيه كفانا مؤونة الإطالة فقلنا: فلان ثعلب، لأن الثعلب رمز الاحتياال، فلا حاجة بنا، بعد هذا، إلى ذكر الألفاظ الكثيرة المؤكدة.

(٣) ففي قولنا: «رايت ثعلباً يخطب الناس»، إثبات صفة الاحتياال للخطيب بشكل أكد وأبلغ من قولنا: «رايت رجلاً كالثعلب يخطب الناس»، فالاحتياال، في الاستعارة مقطوع بوجوده، في التشبيه مرجح.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٣ و«نفح الطيب...»، ٥: ٤٧.

نسب إلى النجم المسامرة مع أنه جماد، فهو قد استعار شيئاً من لوازم الإنسان (النطق) وألصقه بالنجم بحيث أسبغ عليه حياة وحركة وجعله شخصاً يتكلم، وبتعبير آخر، شخصه! ولا يخفى ما لهذا التشخيص من أثر في نفس القارئ ومن تحريك لأريجيته.

ولقد كانت الاستعارة في شعر ابن زمرك تطغى على سائر الوجوه البيانية كما كان التجنيس يطغى على سائر الوجوه البديعية. ولئن كان الإكثار من الاستعارة مستحسنًا لأنها تعد تحسيناً معنوياً، فإن الإكثار من الجناس مستكره لأنه تحسين لفظي، وعَهْدُنَا بالألفاظ أن تكون أبداً خدماً للمعاني!.

على أن ولع شاعرنا بالتجنيس يهون بجانب الأخطاء اللغوية والعروضية التي وقع فيها والتي ستكون موضوع البحث في الفصل الآتي.

سَقَطَاتِهِ

كان الشاعر الجاهلي المطبوع لا يعرف شيئاً عما سُمي، في ما بعد، بالوزن والقافية، فقد كانت موهبته الشعرية تأخذ بيده إلى الكلام الموزون المقفى دون تكلف أو عناء. ذلك أن علم العروض والقافية لم يستخرج ويوضع إلا في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، كما هو معلوم، على يد أستاذ سيبويه والأصمعي: الخليل بن أحمد، سيد العلماء العرب.

وعلى الرغم من أن الشعراء الجاهليين هم أسياذ الشعر العربي، فقد ذكر بعض النقاد أن كثيراً منهم وقعوا في ما عدّ، بعد، أخطاء عروضية. وأعطوا على هذا أمثلة كثيرة منها الاقواء الوارد في دالية النابغة^(١).

فإذا كان هذا، حال الشعراء الكبار الذين عَدَّ شعرهم حجة في اللغة والنحو، فما بالنا بمن أتى بعدهم من الشعراء؟! وإذا كان كثير من هؤلاء المتأخرين قد أفادوا من علم العروض والقافية، فلم يقموا في الإقواء وما شابهه من عيوب عروضية، فقد وقعوا في أخطاء لغوية ونحوية هي أشنع بكثير من الأخطاء العروضية.

أخلص من هذا إلى القول: إن ابن زمرك، كغيره من زملائه

(١) ... وبذلك خبرنا الغداف الأسود، (ديوان النابغة، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥٢، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص ٨٩.

الشعراء، لم يستطع أن يتجنب الوقوع في العيب. وإن كنت سأحدث، بعد قليل، عن سقطاته في شعره، فلأن الحديث عنها جزء من هذه الدراسة.

والأسباب التي تدفع الشاعر إلى السقوط في متاهات الخطأ كثيرة. وليس، هنا، مجال تفصيلها. إلا أني أحب أن أقف عند أبرزها وأهمها وأعني به الوزن. فالشاعر مهما بلغ من مستوى عال في الفصاحة واللسن، ومهما سمت موهبته في عالم الفن، ومهما تألق في التعبير فنقح وبدل وغير، ومهما تحرر من قيود المجتمع والبيئة، يظل مقيداً بتفعيلات البحر الذي ينظم عليه قصيدته - حتى شاعر التفعيلة لا يستطيع أن يتفكك من قيدها - فيضطره الوزن في بعض الأحيان إلى حشر لفظ لا يستلزمه المعنى^(١)، أو إلى تعدية فعل بغير الحرف الذي يتعدى به أصلاً... فيقع في الخطأ من حيث يعلمه ولا يستطيع تفاديه، لأنه يكون واقعاً تحت ضغط التفعيلة^(٢).

على أنه يجب التمييز بين الجوازات البسيطة التي لا تخل بالمعنى ولا تؤثر في جوهر الكلام - وهي ملحقة بالضرورات الشعرية التي تحدث عنها كثيراً منظرو علم العروض - والعيوب التي يجب على الشاعر أن يتحاشاها. ولهذا فإن تلك الجوازات المباحة غير داخلية في هذا الفصل لأنها لا تشكل عيوباً ولا تسمى بسقطات.

(١) عاب النقاد، قديماً، علم زهير ابن أبي سلمى لفظة «قبله» في قوله:

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْيَوْمَ وَالْأَمْسَ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمٍ

فعُدوها حشواً غير مفسد لأن لفظ الأَمْس يتضمن، أساساً، معنى «القبلية»، فلا ضرورة للاتيان بلفظ «قبله». إلا أن الشاعر اضطر لذكرها إقامة للوزن! (القزويني: «التلخيص في علوم البلاغة»، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، الطبعة الثانية، ١٩٣٢م، ص ٢١٢).

(٢) تجدر الإشارة، هنا، إلى أن الجملة الشائعة القائلة: يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره، يجب أن تفهم على حقيقتها، ذلك أنه لا يجوز للشاعر أن يقول ما يشاء متخطياً قواعد اللغة، مخلاً بأصول الصياغة، كأن ينصب الفاعل أو يرفع المفعول مثلاً، فهذا غير وارد إطلاقاً. إنما يجوز له أن يسكن المتحرك أو يحرك الساكن وأن يصرف الممنوع من الصرف، وأن يمد المقصور أو يقصر الممدود..

فما العيوب والسقطات التي وجدتھا في شعر ابن زمرك؟.

أولاً: العيوب العروضية.

أود، قبل كل شيء، أن أبدأ بذكر هذه العيوب، فقد وقع شاعرنا في ثلاثة زحافات مستقبحة:

١ - أ - الزحاف الأول ورد في البيت الآتي:

فَيَا لَهُ مِنْ مُرْتَدٍ ثَوْبَ التَّقَى لَبَّاسٍ^(١)

ب - الزحاف الثاني ظهر في قول ابن زمرك:

وَكَانَ الرِّيَاضَ تُهْدِي ثَنَاءً لِلْغَنِيِّ بِاللَّهِ فَوْقَ الطُّرُوسِ^(٢)

ج - الزحاف الثالث يكمن في البيت القائل:

حَيْثُ الضَّرِيحُ بِمَا قَدْ ضَمَّ مِنْ كَرَمٍ قَدْ بَذَّ فِي الْفَخْرِ مَنْ سَادَ وَمَنْ نَجَحَا^(٣)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٣٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٢٥.

هو من قصيدة نظمت على مجزوء الكامل وتفعيلاته:

مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ

ويجوز في مُتَفَاعِلُنْ الإضمار فقط، أي تسكين الثاني المتحرك فتصبح مُتَفَاعِلُنْ وتنقل إلى مُسْتَفْعِلُنْ. ولا يجوز حذف الحرف الثاني، في مُسْتَفْعِلُنْ إلّا في الرجز. وقد حذفه الشاعر في البيت المذكور حين قال: «فَيَا لَهُ» (مُتَفْعِلُنْ). وبهذا يكون قد خلط بين الكامل والرجز إذ جمع مُتَفَاعِلُنْ وَمُتَفْعِلُنْ في قصيدة واحدة.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٣٣.

هذا البيت على الخفيف وتفعيلاته:

فَاعِلَاتُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلَاتُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلَاتُنْ

يجوز في فَاعِلَاتُنْ الحذف (أي حذف الثاني الساكن) ولا يجوز فيها الكف (أي حذف السابع الساكن). وقد أوردها الشاعر مكفوفة حين قال: لِلْغَنِيِّ: فَاعِلَاتُنْ. ولو كانت الياء من الحروف التي يمكن إشباعها كالضمير الهاء وكالميم المتحركة في الضميرين هُم وَكُم لصحّ الوزن ولكنها ليست كذلك.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥٣.

٢ - سناد التأسيس والردف:

أ - وقع ابن زمرك في خطأ سناد التأسيس حين قال:

فَإِذَا هَوَى مِنْ جَوْهٍ ثُمَّ اسْتَوَى أَبْصَرَتْ طَيْرًا حَلَّ صُورَةَ آدَمَ^(١)

ب - كما وقع في سناد الردف حين قال:

لَيْثُنْ غَرَبَ الْبَذْرُ الْمُنِيرُ مُحَمَّدٌ لَقَدْ طَلَعَ الْبَذْرُ الْمَكْمَلُ يُوسُفُ^(٢)

٣ - تغيير تفعيلة الضرب في بحر الطويل:

للشاعر خمسة أبيات طريفة تشكل مقدمة رسالة بعثها إلى لسان الدين، يقول في مطلعها:

وَحَقِّكَ مَا اسْتَطَعَمْتُ بَعْدَكَ غَمُضَةً مِنَ النَّوْمِ حَتَّى آذَنَ النَّجْمُ بِالْغُرُوبِ^(٣)

ويظهر من التفعيلية الأخيرة خروج الشاعر عن ضرب الطويل^(٤).

= هذا البيت على البسيط وتفعيلاته:

مُسْتَفْعِلُنْ قَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ قَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ

يجوز في مُسْتَفْعِلُنْ الأولى والثالثة الخبن، ولا يجوز ذلك في الثانية والرابعة. إلا أن مُسْتَفْعِلُنْ الرابعة في البيت قد لحقها الطي (أي حذف الرابع الساكن) فأصبحت: مُسْتَعِلُنْ: سَادَوْمَنْ. وهذا غير جائز.

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٥ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٨٧.

في هذا البيت نجد أن «آدم» مؤسسة مع أن القافية في القصيدة بغير تأسيس وقد وقع الشاعر في سناد التأسيس هذا مرة ثانية حين قال:

أَجَلٌ فِي الْإِذْيِ يَبْدِيهِ فَكُرْتُ تَوْسُمَ تَرَى طَائِرًا قَدْ حَلَّ صُورَةَ آدَمَ

(المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩١ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٠٤).

بالإضافة إلى خطأ آخر هو أن جواب الطلب أتى غير مجزوم (أَجَلٌ... تَرَى).

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٩.

أنت «يوسف» مردفة مع أن القافية غير مردفة في الأصل. يضاف إلى هذا أن جواب الشرط «لقد طلع» لم تدخل عليه فاء الجزاء وهي واجبة الدخول.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٩ و«نفع الطيب...»، ٦: ٨٠.

(٤) تفعيلات الطويل هي:

فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ =

وقبل أن أنتقل إلى الكلام على السقطات اللغوية والنحوية أحب أن أشير، هنا، إلى أن لفظ الغني بالله (لقب محمد الخامس) قد أوقع الشاعر في حرج عروضي حين أدخله في شعره^(١).

ثانياً: السقطات اللغوية والنحوية أو سقطات المعنى والمبنى.

فرض الوزن والقافية على ابن زمرك أن يخرج، في بعض الأحيان، على أصول الصياغة وقواعد النحو، فوقع في أخطاء قليلة. وبسبب هذه القلة فإني سأذكرها حصراً.

١ - سقطات المعنى.

أ - قال ابن زمرك:

هِيَ نَفْحَةٌ هَبَّتْ مِنَ الْأَنْصَارِ أَهْدَتْكَ فَتَحَ مَمَالِكِ الْأَمْصَارِ
هَبَّتْ عَلَى قُطْرِ الْجِهَادِ فَرَوَّضَتْ أَرْجَاءَهُ بِالنَّفْحَةِ الْمِعْطَارِ^(٢)

لا معنى لهذه «النفحة» التي تهب على البلاد فتعطر أرجاءها «بالنفحة»!

ب - فَطَعْنَتْ مِنْ قَدِّ الْقَوَامِ بِأَسْمَرٍ وَرُمِيتُ مِنْ غُنْجِ اللَّحَاطِ بِأَسْهَمٍ^(٣)

= يجوز في الضرب أن يأتي مَفَاعِلُنْ أو مَفَاعِي (وتنقل إلى فَعُولُنْ). وقد أتى في البيت المذكور على مَفَاعِلَانْ، ولا عهد للطويل بمثل هذا الضرب. ولذلك حين أورد المقرئ هذه الأبيات في نفحه علق عليها قائلاً: «هذه غاية في معناها لولا خروجها عن القواعد في ترتيب قافيتها ومبناها». وأرى أن هذا الخروج لا يؤثر في موسيقى البحر بل على العكس يزيده إيقاعاً، خاصة وأن هذا الخروج جائز في بحور أخرى كالكمال مثلاً.

(١) فقد أوردته في أبياته المدحية إما مشدد الياء فوقع في الزحاف: «لِلْغَنِيِّ بِاللَّهِ فَوْقَ الطُّرُوسِ» (تراجع الصفحة ٢٠٣ من هذا الكتاب)، وإما مخفف الياء: «كَأَنَّ الْغَنِيَّ بِاللَّهِ فِي الرُّوْضِ قَدْ سَرَى» (المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٨٢ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٩٦)، و«لِلْغَنِيِّ بِاللَّهِ قَصْرٌ» (المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٠ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٢٩) فوقع في النقص، لأنه إذا جاز هذا في الضرب فلا يجوز في وسط البيت.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢٨ و«نفح الطيب...»، ٥: ١٧٢.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦١ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٨٤.

لقد جعل للقوام قدًّا! أليس القد والقوام بمعنى واحد؟! .

ج- دُوسَطَوَةٌ مَهْمَا كَفَى دُورَ حِمَةٍ مَهْمَا عَفَا دُو عِقَةٍ مَهْمَا قَدِرٌ^(١)

يقال: فلان يعفو عند المقدرة. وهذا هو مقصد الشاعر في هذا البيت، إلا أنه أتى بالعفة بدلاً من العفو ففسد المعنى، إذ لا صلة للعفة - وهي الطهارة وترك الشهوات والترفع عن الدنية - بالعفو - وهو الصفح والغفران - .

د- مَا شِئْتَ مِنْ حُسْنٍ يَفُوقُ كَمَالُهُ وَيَرُوقُ مَنَظَرُهُ الْجَمِيلُ الْحَالِي^(٢)

يقال: فاق رفاقه بالعلم والفضل، أي رجع عليهم، ففعل فاق، إذاً، متعد ومستوجب مفعولاً، وقد ورد في البيت لازماً. فأَيُّ شيءٍ يفوق كمال حُسْنِهِ؟! .

ه- فَإِنْ تَصُبُّ سُحْبُهُ بِالْمَاءِ حِينَ هَمَّتْ بِعَسْجِدٍ وَلَجَيْنٍ صَابَ هَامِيهَا^(٣)

فإن تصب... حين همت؟! ما هذا التخليط؟ وما هذه المداخلة بين المستقبل والماضي في آن؟ .

و- كَسَانِي الْهُوَى ثَوْبَ السَّقَامِ وَإِنَّهُ مَتَى صَحَّ حُبُّ الْمَرْءِ لَأَشْيءٌ يُسْقِمُ^(٤)

يقول الشاعر في الصدر إن الهوى أسقمه. ثم يعود في العجز ليؤكد أن الحب الصحيح لا يسقم المرء. ولا نستطيع أن نوفق بين القولين إلا إذا افترضنا أن حب الشاعر غير صحيح! وكيف يكون كذلك وقد سبق هذا البيت ثمانية أبيات، كل منها يحمل دليلاً على صحة حبه:

عَلَى أَنْ رُوحِي فِي يَدَيْكَ بَقَاؤُهَا بَوْصَلِكَ تُحْيِي أَوْ يَهْجِرُكَ تَعْدِمُ^(٣)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٢٤ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢١٧.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١١.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٧٣.

(٤) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٤.

ز - مَا يُنْكِرُ الْمَرْءُ مِنْ نُورٍ جَلَا غَسَقًا مَالَمْ يَكُنْ لِأَمَانِي النَّفْسِ مُطْرَحًا^(١)

ومعنى البيت أن الإنسان يستنكر شيب رأسه إذا تخلّى عن أمانيه وأحلامه في الحياة، أو بتعبير آخر: إن الشيب يخيف المرء الذي لا يتبع هواه. وهذا معنى خاطيء لأنه معكوس ذلك أن الذي يعمل لأخراه ولا يطيع هوى نفسه لا يمكن أن يعبأ بالشيب أو يكثر له!.

٢ - سقطات المبنى.

أ - حذف فاء الجزاء الواجبة الدخول على جواب الشرط. ومن هذا ما جاء في الأبيات التالية:

إِنْ يَحْمِلُوكَ عَلَى الْكَوَاهِلِ طَالَمَا قَدْ كُنْتَ مَحْمُولًا عَلَى الْأَحْدَاقِ
أَوْ يَرْفَعُوكَ عَلَى الْعَوَاقِ طَالَمَا رُفِعْتَ ظَهَرَ مَنَابِرٍ وَعِتَاقِ^(٢)
إِنْ رُدَّتِ الشَّمْسُ مِنْ بَعْدِ الْغُرُوبِ لَهُ قَدْ ظَلَلَتْهُ غَمَامُ الْجَوْ حَيْثُ نَحَا^(٣)
ب - التعدية المباشرة أو بالحرف:

سَبِيلَكَ فِي سُبُلِ الْمَكَارِمِ يَقْتَفِي وَهَدْيِكَ يَا خَيْرَ الْأَيْمَةِ يَقْتَدِي^(٤)

في هذا البيت نلاحظ أن الشاعر عدّى فعل اقتدى مباشرة وهو لا يتعدى إلا بحرف الباء.

قَدْ لَآثَ صُبْحًا فَوْقَ بَذْرِ بَعْدَمَا لَيْسَ الْمَكَارِمَ وَارْتَدَى بِوَقَارٍ^(٥)

وهنا فعل الشاعر العكس، إذ عدّى فعل ارتدى بالباء مع أنه يتعدى مباشرة.

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥١.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٣ و«نفع الطيب...»، ٥: ١٩٧.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥٤.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٥٤ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٣٦.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٤ و«نفع الطيب...»، ٥: ١٧٦.

ج - رفع المضارع الذي أتى جواباً لشرط جازم فعلين مضارعين :

وَرَبُّ نَهْرٍ حَسَامٍ رَقٌّ رَائِقُهُ مَتَى تَرِدُهُ نَفُوسُ الْكُفْرِ يُرِيدُهَا^(١)

رفع المضارع الذي أتى مباشرة بعد أداة جزم :

وَيَأْسَفُ لَمَّا يُبْصِرُ الْبَرَّ يَرْتَمِي بِفُرْسَانِهِ وَالْبَحْرُ بِالسُّفْنِ يَقْدِفُ^(٢)

د - جزم المضارع بلا مسوغ :

يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَعْرَسُ لَيْلَةً فَأَشُمُّ حَوْلِي إِذْخِرًا وَجَلِيلًا

أَوْ تَرَوْنِي يَوْمًا مِيَاهُ مَجْنَّةٍ وَيَشِيمُ طَرْفِي شَامَةً وَطَفِيلًا^(٣)

هِيَ نُسْخَةٌ لِلشَّيْخِ فِيهَا نِسْبَةٌ مَا إِنْ يَزَالَا يَرْعَشَانِ مِنَ الْكِبَرِ^(٤)

(١) المقرئ : «أزهار الرياض...»، ٢ : ٢٦ و«نفح الطيب...»، ٧ : ١٧٥ .

«متى» أداة شرط تجزم فعلين مضارعين : الأول (تَرِدُهُ) وهو فعل الشرط والثاني (يُرِيدُهَا) وهو جواب الشرط، وقد أتى غير مجزوم وكان من الواجب أن يجزم فيأتي (يُرِيدُهَا) . ولكن الشاعر آثر إقامة الوزن .

(٢) المقرئ : «أزهار الرياض...»، ٢ : ١٥١ .

تأتي «لَمَّا» قبل الفعل الماضي فتقتضي جملتين وتسمى حرف وجود لوجود (أو حرف وجوب لوجوب) وتعرب أيضاً ظرفاً للفعل وقع لوقوع غيره وتكون حينئذ بمعنى حين . وتأتي قبل المضارع فتختص بجزمه ونفيه وقلبه ماضياً . ولما كان الفعل الذي يلي «لَمَّا» في البيت المذكور فعلاً مضارعاً، فلا محيص عن جزمه . فإذا جزم تحولت علامة الجزم - وهي السكون - إلى كسرة منعاً لالتقاء الساكنين (لَمَّا يُبْصِرُ الْبَرَّ) . ولكن المشكلة تبقى قائمة، ذلك أن فعل يرتجي يظل متعلقاً من حيث المعنى بلَمَّا التي قصد الشاعر أن يستعملها، بالفعل، بمعنى حين أو عندما، وكل منها تقتضي جملتين قد تأتيا ماضويتين أو مضارعيتين . وإذا، فإن الشاعر قصد أن يرفع «يُبْصِرُ» بعد «لَمَّا» لأنه أرادها ظرفاً . وهنا يكمن الخطأ .

(٣) المقرئ : «أزهار الرياض...»، ٢ : ٩٨ .

في البيت الثاني ورد المضارع «تَرَوْنِي» مجزوماً بغير عامل . والأصل فيه أن ينصب فيكون «تَرَوْنِي» لأنه معطوف على «أَشُمُّ» المنصوب بأن المضمره بعد فاء السبب الواردة بعد جملة انشائية (هَلْ أَعْرَسُ) . ويجوز أن تكون الفاء حرف عطف (تعطف «أَشُمُّ» على «أَعْرَسُ») فيكون المضارع «تَرَوْنِي» مرفوعاً .

(٤) المقرئ : «أزهار الرياض...»، ٢ : ١٢٣ و«نفح الطيب...»، ٧ : ٢١٦ .

في هذا البيت أتى فعل «يَزَالَا» مجزوماً، وهذا خطأ، لأن «إِنْ»، هنا، ليست حرف شرط جازم، كما قد يُظن لأول وهلة، بل هي حرف نفي أتت بعد ما النافية، فكانت زائدة لا =

هـ - عطف شيء على غير مثيله.

من المعروف أن حرف العطف قد يعطف جملة على جملة أو لفظة على لفظة. وشرط العطف أن يكون المعطوف من جنس المعطوف عليه، فلا يجوز أن يعطف مضارع على ماضٍ ولا نكرة على معرفة كما فعل ابن زمرك حين قال:

إِذَا اخْتَفَلَ الْإِيوَانُ يَوْمَ مَشُورَةٍ وَتَضَطَّرِبُ الْأَرَاءُ مِنْ كُلِّ ذِي حِجْرٍ^(١)
صَدَعْتَ بِفَضْلِ الْقَوْلِ غَيْرَ مُنَارِعٍ
حَمَلْتَ مِنَ الْأَبْطَالِ كُلِّ مُشَمِّرٍ لَا يَقْتَنِي سُمْرَ الْقَنَا وَنُصُولًا^(٢)

و - وصف المعرفة بالنكرة.

لَيْتَنِي بَلَّغُوا دُونِي وَخُلِقْتُ إِنَّهُ قَضَاءُ جَرَى مِنْ مَالِكِ الْأَرْضِ دَيَّانٍ^(٣)
ز - نصب المرفوع:

قَضَى اللَّهُ مِنْ فَوْقِ السَّمَاوَاتِ أَنَّهُ عَلَى مَنْ أَبَى الْإِسْلَامَ فِي الْأَرْضِ قَاضِيًا^(٤)

= عمل نحوياً لها، إن هي إلا لتقوية المعنى وتأكيده. وعلى هذا الأساس كان من الواجب على الشاعر أن يقول «وَمَا إِنَّ يَزَالَانَ»، ولا مسوغ هناك لجزم الفعل. فإذا صحح الفعل بزيادة النون التي هي علامة إعرابه، فسد الوزن.

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٥ و«نفح الطيب...»، ٦: ٧٦.

ففي البيت الأول عطف الشاعر الفعل المضارع «تَضَطَّرِبُ» على الماضي «اِخْتَفَلَ» بحرف الواو. وهذا لا يجوز. فإذا لم تكن الواو للعطف، وكانت حرف استئناف مثلاً، لم يعد هناك من صلة واضحة بين الصدر والعجز. مع أن الصدر لا يتم معناه إلا في البيت الثاني. ولا يمكن أن يكون العجز جملة اعتراضية، لأن المعنى المقصود من الشاعر هو الآتي: «إذا كان يوم المشورة، وراح أصحاب العقول يدلون بآرائهم المضطربة، استطعت، أنت، أن تأتي بالرأي الصحيح والقول الفصل».

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٢.

عطف الشاعر «نُصُولًا»، وهي نكرة، على «سُمْر» المعرفة بإضافة القنا إليها.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٤ و«نفح الطيب...»، ٥: ٤٨.

وصف «مَالِكِ»، وهي معرفة بإضافة الأرض إليها، «بَدَيَّانٍ»، وهي نكرة.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٨ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٩١.

وَاللَّهُ مَا آثَارُ هَدْيِكَ عِنْدَنَا إِلَّا نُجُومًا مَا عَرَفْنَ ذُبُولًا^(١)

ح - معاملة الجمع كالمفرد.

وَسَوْغَتِي الْأَمَالَ عَذْبًا مُسْلَسَلًا وَأُسْمِيتَ مِنْ ذِكْرِي وَرَفَعْتَ مِنْ قَدْرِي^(٢)
أَرَى الْمَالَ يَرْمِيهِ الْجَدِيدَانِ بِالْبَلَى وَمَا إِنْ أَرَى إِلَّا الْمَحَامِدَ بَاقِيًا^(٣)
مِلْكٌ إِذَا لَثَمَ الْوُجُودُ يَمِينُهُ فَالْبَحْرُ عَذْبًا وَالرِّيَاضُ بَلِيلًا^(٤)

ط - معاملة المثنى كالمفرد.

بَلَيْتَ مَحَاسِنُهَا وَخَفَّ أُنَيْسُهَا وَالشُّوقُ وَالتَّذْكَارُ لَيْسَ بِبَالٍ^(٥)

ي - معاملة العاقل كغير العاقل وبالعكس:

يَفْتِكُنْ مِنْ قَامَاتِهَا وَلِحَاطِظِهَا بِالْمَشْرِفِيَّةِ وَالْقَنَا: الْخَطَارِ^(٦)

= جاءت «قَاضِيًا» منصوبة وحققها الرفع لأنها خبر أن. وهذا خطأ بشع! على أنه إذا أمكن القول إن خبر «أن» هو شبه الجملة «على من...» - وهذا يصح - فما محل «قَاضِيًا» من الإعراب حينئذ؟ لو كانت «قضاء» لا عربناها مفعولاً مطلقاً بصفته مصدرًا عامله «قضى»، ولكنها أنت اسم فاعل، فليس لها من وجوه الإعراب، غير كونها خبر «أن»، إلا وجه واحد وهو أن تكون حالاً. وهو احتمال ضعيف جداً، يزيده ضعفاً كون حرف الجر الذي يبدأ به شبه الجملة هو الحرف «على» الذي يتعدى به اسم الفاعل «قَاضِيًا»، وهو هنا مُتَعَلِّقٌ.

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠١.

إذا عدت «مَا» حرف نفي كانت «نُجُوم» خبراً مرفوعاً للمبتدأ آثار. أما إذا عدت عاملة عمل ليس فقد بطل عملها باقتران خبرها بإلا وعادت مجرد حرف نفي لا عمل له. ولا صحة لقول من يذهب إلى أعمال «مَا» عمل ليس بالرغم من انتقاص خبرها بإلا. فقد وردت «مَا» في القرآن عاملة في الخبر الذي لم يقع عليه نقض ولا تقديم: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ (يوسف، ٣١/١٢)، فحين انتقض خبرها بإلا بطل عملها: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (المؤمنون، ٢٣/٢٤)، و﴿مَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كُلَّمَحْ بِالْبَصْرِ﴾ (القمر، ٥٤/٥٠).

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٥ و«نفع الطيب...»، ٦: ٧٧.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٠ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥١.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٠.

(٥) نفسه، ٢: ١٠٨.

(٦) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٤ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٥.

خُذُوا الْحِذْرَ مِنْ سُكَانِ رَامَةَ إِنَّهَا ضَعِيفَاتُ كَسْرِ اللَّحْظِ تَفْتِكُ بِالْأَسَدِ^(١)
 قَدْ زَارَكَ الْعِيدُ السَّعِيدُ مُبَشَّرًا فَاسْمَحْ لِأَلْفٍ مِنْهُمْ بِمَزَارِ^(٢)
 ك - معاملة المذكر كالمؤنث وبالعكس:

فَأَيُّقِظِ النُّذْمَانَ يُبَصِّرُنَ مَا لَمْ يُبَصِّرْ^(٣)
 قُلْ لِي يَا رَبَّةَ الْوِشَاحِ هَلْ لِي إِلَى الْوَصْلِ مِنْ سَبِيلٍ^(٤)
 لَا زِلْتُ مَخْرُوساً بِعَيْنِ كَلَاءَةٍ مَا دَامَ عَيْنُ الشَّمْسِ تُعْشِي مَنْ نَظَرَ^(٥)

هذه هي معظم سقطات ابن زمرك في شعره، قد تجشمت عناء ذكرها
 حصراً لتحديددها، نوعاً، وبيان قلتها^(٦).

وأرى من واجبي، قبل الانتقال إلى الكلام على تقليد الشاعر وتجديده،
 أن أشير إلى أن بعض تلك الأخطاء المذكورة، قد لا يكون صادراً عن ابن
 زمرك، بل عن محقق الكتاب الذي وردت فيه تلك الأبيات، وذلك عن
 طريق التصحيف أو التحريف.

(١) المقرئ: «نفح الطيب...»، ٧: ٤٥٦. وابن خلدون: «التعريب...»، ص ٢٦٣.
 (٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٥ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٣٤.
 (٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٨٤ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٤٧.
 (٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٩١ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٥٢.
 (٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٨ و«نفح الطيب...»، ٥: ١٧٩.
 (٦) وردت هذه الأخطاء في اثنين وأربعين بيتاً أي ما نسبته $\frac{1}{4}$ %.

الفصل الخامس

تقليده وتجديده

المبحث الأول: التقليد

تأثر ابن زمرك بكثير من كبار الشعراء المشاركة. فمن يقرأ قصيدة له قد يذكره بيت فيها بيت قاله المتنبي وبيت آخر بتعبير شبيه بتعبير حفظه لأبي تمام، وقد يلمح في بيت ثالث معنى قريباً من معنى أتى به بشار... وقد يتوهم ذلك القارئ أن ابن زمرك لا هم له سوى السطو على معاني من سبقوه وتقليدهم. والواقع أن الأمر يختلف عن هذا تماماً. فليست القضية قضية سرقة وتقليد مقصود، وإنما هي قضية شاعر قرأ التراث ودرسه فأعجب به وحفظ منه الشيء الكثير، كما درس اللغة العربية وما يتصل بها من علوم النحو والبلاغة والعروض، وصادف هذا كله هوى في نفسه وميلاً نحو الأدب وموهبة شعرية رافقته منذ صغره، فراح يصقل هذه الموهبة وينميها بممارسة النظم ومعاونة الشعر.

ليست القضية، إذًا، قضية تقليد وسرقة، إنها قضية عامة تطال الشعراء جميعهم، قضية مخزون ثقافي في داخل كل منهم، مخزون يتلقفه ويضمه فيتحول إلى دم يسري في عروقه وإلى جرثومة تعشش في أفكاره وإلى شعلة تضيء أمامه طريق الإبداع، مخزون ثقافي يصبح جزءاً لا يتجزأ منه، يتحكم فيه، شاء أم أبى، يفرض عليه تفكيراً خاصاً ومنحى معيناً في القول،

تساعده في ذلك ظروف البيئة التي تضغط، بدورها، على تفكيره وتحمله على مركبها الوعر. . .

من هذا المنطلق أفهم تأثر الشاعر بمن سبقه. فالتقليد سمة تسم الشعراء جميعاً، لا أكاد استثني منهم أحداً. وهو لا يمكن أن يعد سيئة من السيئات لأنه يحمل في ذاته بذور التجديد.

ابن زمرك، إذًا، مقلد: لأنه شاعر ولأنه أندلسي! ذلك أن التقليد صفة طغت على الشعراء الأندلسيين وعلى أشعارهم، بنسب متفاوتة، بحيث لم يبق أديب ولا ناقد ولا باحث إلا أدلى كل منهم بدلوه في هذا الموضوع. وقد تراوحت أقوالهم بين الاعتدال والتطرف بل بين الموضوعية والتجني^(١).

على أن الدكتور إحسان عباس قد درس موضوع التقليد في صفحات ضافيات من كتابه «تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة». وقد فعل ذلك بكثير من الموضوعية والدقة حين أكد أن الحياة الثقافية في الأندلس قد وسمت منذ البدء بالاعتماد على المشرق والتقليد لأهله، لأنه كان أرقى حضارة وأوسع ثقافة ولأن الأندلسيين يلتفتون إليه في تجارتهم، ويرونه منبع العلم والدين وموطن القداسة والحج، ويدركون أن موروثهم إنما هو شعر العرب وأدبهم منذ الجاهلية حتى أبي تمام^(٢).

من هنا كان التقليد الذي تحدث عنه بعض النقاد بلهجة المستهجن للشعر الأندلسي، ضرورياً، لأنه الخطوة الأولى في طريق تكوين الشخصية الثقافية المتطورة في الأندلس، وكان نافعاً لأنه لم يكن تقليداً بحتاً عادياً، إذ

(١) أبي الخشب، إبراهيم علي: «تاريخ الأدب العربي في الأندلس»، ص ١٧٦. وأمين، أحمد: «ظهر الإسلام»، ٣: ١٠٤ و ١٠٥. وخالص، د. صلاح: «أشبيلية في القرن الخامس الهجري»، ص ٨٥.

(٢) عباس، د. إحسان: تاريخ الأدب الأندلسي. . .، ص ٣٩ و ١٢٧ و ١٢٨.

استطاع بعض الشعراء أن يوفقوا إلى صياغة معانٍ مشرقية بتعابير جديدة قوية رائعة.

ولقد بدأ الشعراء الأندلسيون بسلوك طريق جديدة، ابتداءً من أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، طريق جديدة أعطت شعرهم مميزات شكلية وجوهرية. وقد استمر هذا الشعر ينمو ويزدهر حتى بلغ أوجه في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) على يد الشاعر الأندلسي الكبير ابن خفاجة! وليس هذا غريباً إذا عرفنا أن الثقافة الأندلسية لم تكن في يوم من الأيام أكثر ازدهاراً وخصباً منها في خلال هذا القرن.

على أن الشعر الأندلسي لم يستمر طويلاً في ذروته، بل سرعان ما انحدر عنها بالتدريج، حتى إذا جاء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وأصبحت الأندلس، بعد سقوط أكثر مدنها، محصورة في حدود مملكة غرناطة، وحتى إذا قوي نفوذ الفقهاء ورجال الدين، وغدت غرناطة قاب قوسين أو أدنى من السقوط في قبضة حملات الاسترداد النهائية، لم يعد للشاعر الغرناطي أن يعمل خياله كثيراً ولا أن يساير تقدم الزمن، بل كان عليه أن يسير في الطريق التي حددتها له معطيات البيئة وفرضتها عليه الظروف. فاكتمى بأن يراوح مكانه في نظم الشعر، من غير أن يسعى، جاهداً، إلى التجديد. بل إن شعره أصبح أكثر أتباعاً من ذي قبل، فهو ينظم القصيدة العمودية، يقف فيها على الطلل ويبكي رحيل الأحبة وكأنه عاد عصوراً إلى الوراء، لم يتغير لديه سوى التعبير، فكان واضحاً، وسوي اللفظ، فأتى سهلاً، وكلاهما كانا أقل جزالة وقوة.

كل هذا بانتظار النهاية المحتومة. وكأني بآبن خلدون، معاصر ابن زمرك، حين وضع نظريته في أعمار الدول، نظر إلى أطوار الشعر الأندلسي فوجده من حيث التجديد والتطور قد نما وشب ثم اكتمل وشاب.

ولئن نما على يد ابن شهيد وشب على يد ابن خفاجة، فلقد شاب على يد ابن زمرك، إذ أتى أكثر شعره تقليدياً، حتى موشحاته كانت، كما رأينا، مجرد قصائد متعددة القافية والروي.

المعاني التقليدية عند ابن زمرك، إذأ، كثيرة يصعب حصرها. ولهذا السبب سأكتفي بعرض بعضها وسنرى أن التقليد فيها واضح يكشف عن نفسه. يقول ابن زمرك:

لَقَدْ رَامَ يَرْقَى لِلسَّمَاءِ بِسُلْمٍ فَيَمْشِي عَلَى خَطِّ بِهِ مُتَوَهِّمٌ^(١)

ويذكرنا هذا البيت فوراً ببيت قاله زهير ابن أبي سلمى:

وَمَنْ هَابَ أَصْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلَنَّهُ وَإِنْ يَرْقَى أَصْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ^(٢)

ويقول ابن زمرك من ميمية له البيت الآتي:

وَكَمْ لَيْلَةٍ قَدْ جِثَّتْ فِيهَا بَلِيلَةٌ مِنَ النَّعْعِ فِيهَا لِلْأَسِنَّةِ أَنْجُمٌ^(٣)

وقد قصر فيه كثيراً عما قاله بشار بن برد:

كَأَنَّ مَثَارَ النَّعْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ^(٤)

ويقول ابن زمرك:

إِنَّ الْمُلُوكَ كَوَاكِبُ أَخْفَيْتَهَا وَطَلَعَتْ وَحَدَكَ فِي مَظَاهِرِهَا قَمَرٌ^(٥)

وقصر فيه أيضاً عن بيت النابغة:

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩١ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٠٤.

(٢) ديوان زهير، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتاب سنة ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م، ص ٣٠.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٦.

(٤) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: «الشعر والشعراء»، نشر دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤،

جزءان، ٢: ٦٤٥.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٢٤ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢١٧.

بِأَنَّكَ شَمْسُ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكَبٌ^(١)

قال شاعرنا:

سُكْرُ النَّدَامَى مَنْ يَدِيهِ وَلَحْظُهُ مُتَعَاقِبٌ مَهْمَا سَقَى وَإِذَا نَظَرَ^(٢)

وهو معنى أتى به أبو نواس فأحبه الأندلسيون وأكثروا النظم عليه:

تَسْقِيكَ مِنْ عَيْنِهَا خَمْرًا وَمِنْ يَدِهَا خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدٍّ^(٣)

وقال يخاطب لسان الدين، من قصيدة رائية:

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي طَالَ فَخْرُهُ عَلَى الْمَرْهَقَاتِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ السُّمْرِ^(٤)

وواضح أنه تأثر في صدره بصدر بيت لأبي تمام يقول فيه:

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِشَبَابِهِ تُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكُلِّيِّ وَالْمَقَاصِلُ^(٥)

وقد تأثر بأبي تمام في أبيات كثيرة منها قوله:

ذَكَاءُ إِيَّاسٍ فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ وَإِقْدَامُ عَمْرٍو فِي بِلَآغَةِ سَحْبَانَ^(٦)

وهو من قول أبي تمام:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَّاسٍ^(٧)

(١) ديوان النابغة، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥٢، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص ٧٤.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٦ و«نفح الطيب...»، ٥: ١٧٨.

(٣) ديوان أبي نواس، حققه أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، ص ٢٧.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٤ و«نفح الطيب...»، ٦: ٧٥. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٨٤.

(٥) ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥، دار المعارف بمصر، أربعة مجلدات، ٣: ١٢٢.

(٦) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٧ و«نفح الطيب...»، ٥: ٥٠.

(٧) ديوان أبي تمام، ٢: ٢٤٩. وقد اقتبس لسان الدين بن الخطيب هذا المعنى أيضاً حين مدح السلطان أبا سالم فقال:

ومنها قوله :

وَكَمْ مِنْ لَوَاءٍ فِي الْفُتُوحِ نَشْرَتُهُ وَلِلرُّعْبِ جَيْشٌ دُونَهُ يَتَقَدَّمُ^(١)

وهو من قول أبي تمام :

لَمْ يَغْزُ قَوْمًا وَلَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ^(٢)

كذلك تأثر ابن زمرك بالمتنبي تأثراً واضحاً، فاسمعه وهو يقول :

مَنْ مُبْلَغٌ قَحْطَانَ آسَادَ الشَّرَى مَا غَابَهَا إِلَّا الْوَشِيحُ الذُّبْلُ^(٣)

فقد نظر فيه إلى قول المتنبي :

صُفُوفًا لِلْيَيْثِ فِي لُيُوسٍ حُصُونُهَا مُتَوْنُ الْمَذَاكِي وَالْوَشِيحُ الْمُقَوَّمُ^(٤)

وقال ابن زمرك :

إِذَا اسْتَبَقَ الْأَمْلَاكُ يَوْمًا لِغَايَةِ أَبَيْتَ وَذَاكَ الْمَجْدَ إِلَّا التَّنَاهِيَا^(٥)

وهو من قول المتنبي :

مَدَى بَلَغَ الْأُسْتَاذَ أَقْصَاهُ رَبُّهُ وَنَفْسُ لَهُ لَمْ تَرْضَ إِلَّا التَّنَاهِيَا^(٦)

= فَصَاحَةٌ قُسَّ فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ وَإِقْدَامُ عَمْرٍو نَحْتَ حِكْمَةِ لُقْمَانَ

(المقري : «دفع المايب...»، ٥ : ٣٥).

(١) المقري : «أزهار الرياض...»، ٢ : ١٤٦.

(٢) ديوان أبي تمام، ١ : ٥٩.

(٣) المقري : «أزهار الرياض...»، ٢ : ١١٧ و«دفع الطيب...»، ٧ : ٢١١.

(٤) ديوان المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، أعيد طبعه بالأوفست ١٣٩٧هـ/١٩٧٨م، أربعة أجزاء، ٣ : ٨٩. و«محيط المحيط»، ص ٣١٠.

(٥) المقري : «أزهار الرياض...»، ٢ : ٥٧ و«دفع الطيب...»، ٧ : ١٤٩.

(٦) ديوان المتنبي، ٤ : ٢٩٣.

وقال شاعرنا:

وَصِيدٌ مِنَ الْحَيِّينِ أَبْنَاءُ قَيْلَةٍ تَكْفُ الْأَعَادِي أَوْ تُبِيدُ الْأَعَادِيَا^(١)

وكان المتنبي قد قال:

يُبِيدُ عَدَاوَاتِ الطُّغَاةِ بِلُطْفِهِ فَإِنْ لَمْ تَبْدِ مِنْهُمْ أَبَادَ الْأَعَادِيَا^(٢)

ولابن زمرك بيت يقول فيه:

فَقَبْلَ مَضَاءِ السَّيْفِ تُمْضَى عَزَائِمُ وَبَعْدَ بِنَاءِ الرَّأْيِ تُبْنَى الْمَعَاوِلُ^(٣)

ولا شك أنه قد أخذ معناه من بيت المتنبي القائل:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمَحَلِّ الثَّانِي^(٤)

وقال في موشحه:

خُلِقْتُ مِنْ عَادَتِي الْوَفَا أَحِنُّ لِلْإِلْفِ وَالسَّكَنِ^(٥)

وهو تعبير نجده عند المتنبي:

خُلِقْتُ الْوَفَا لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِيًا^(٦)

يظهر من هذه الأبيات جميعها كيف استعان الشاعر بمخزونه التراثي لينظم كثيراً من قصائده. على أن أحداً لا يستطيع أن يؤكد أو ينفي ما إذا كان الشاعر قد تعمد هذا التقليد أم أتى به من غير وعي منه. ولكن الثابت أن هذا التقليد قد دفع بالشاعر دفعاً إلى ميدان التجديد.

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥٩ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥١.

(٢) ديوان المتنبي، ٤: ٢٨٩.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٨٠.

(٤) ديوان المتنبي، ٤: ١٧٤.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٧ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٤١.

(٦) ديوان المتنبي، ٤: ٢٨٤.

المبحث الثاني: التجديد

بعد العرض السريع لبعض المعاني التقليدية، يبرز سؤال هام: هل هناك من جديد في شعر ابن زمرك؟!.

والجواب عن هذا السؤال يسير وعسير في آن:

- فهو يسير لأن المنطق يفرض الرد الفوري بالإيجاب، ذلك بأن ابن زمرك عاش في غرناطة في خلال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وهذا يعني، بوضوح، أن بيئته اختلفت عن البيئة الشرقية اختلافاً بيناً. فمن غير المعقول، والحالة هذه، أن تتشابه الأفكار والتعابير كلياً، وإلاّ فإن التبعية الواقعية التي تفرضها البيئة على الشاعر لا تعود ماثلة، ولا يعود، بالتالي، لعنصري الزمان والمكان أي تأثير على العنصر الإنساني، وهذا غير منطقي وغير واقعي، لأن الأدب ابن البيئة، فإذا اختلفت البيئات فلا يمكن أن تكون آدابها واحدة.

- وهو عسير لأن حصر المعاني الجديدة التي أتى بها الشاعر يتطلب اطلاعاً واسعاً وذاكرة قوية وجهداً كبيراً ووقتاً طويلاً. فإذا لم يكن الدارس واعياً لجميع المعاني الشعرية التي أتى بها الشعراء قبل ابن زمرك، وهم مئات، لم يستطع أن يحدد تماماً كل المعاني الجديدة الموجودة في شعره. ولا أدعي أنني أملك ذلك كله.

من هنا، كان اتمام هذا العمل على أفضل وجه، أكبر من أن يقوم به الدارس بمفرده. ولهذا السبب كان أكثر اهتمامي منصباً على هذا الفصل، بالذات، لأنني أدركت، منذ أول الطريق، صعوبته وأهميته على السواء. إذ لا يخفى أن الكشف عن المعاني الجديدة لدى أي شاعر، يساعد على تقويم أدب هذا الشاعر، بل قل إنه لا يمكن أن يقوم بحق، إلاّ على أساس ما تضمنه من جديد في عالم الشعر.

ولذلك كنت كثيراً ما أعود إلى ما كتبت في هذا الفصل، بعد مطالعتي دواوين الشعراء، فأعيد النظر فيه وألجأ إلى البحث والتدقيق والإضافة والحذف، الأمر الذي استنفد جلّ وقتي وجهدي.

وبالرغم من ذلك لا أستطيع الادّعاء بأنّي جمعت كل المعاني الجديدة التي أبدعها ابن زمرك، كما لا أحب الادّعاء بأن كل ما جمعته من معان إنما هو جديد، لم يسبق إليه الشاعر.

مع الإشارة إلى أن جدة المعنى، لا تكفي وحدها، لعد البيت الذي تضمن هذا المعنى جديداً، بل يجب أن يكون لذلك المعنى الجديد قيمة أدبية بما يحمله من صياغة فنية وتعبير جيد ووقع حسن على الأذن.

ولئن قلت، قبلاً، إن الشعر، من حيث التجديد، قد شاب على يد ابن زمرك، فإن من الضروري أن أضيف أن هذا الشيب لا يقدر أن يمنعنا من تذوق بعض المقاطع والأبيات التي هي بمثابة الشعرات السود: يحاول الشيب عبثاً أن يغريها، بشتى الوسائل، للانضمام إلى جيشه، إلا أنها تبقى صامدة ثابتة، متحدية بريق السيوف البيضاء. ولعلي مستنقذها وكاشف عنها غطاءها حين أعرضها بأجل زيتتها وأبهى حليتها.

على أنه لا بدّ، قبل ذلك، من أن ألاحظ أن الجديد عند ابن زمرك، كما هو عند كل شاعر، قسمان: تجديد جزئي وابتكار.

التجديد الجزئي:

وهو الصياغة الفنية المجددة، وأعني بهذا، أن يعيد الشاعر صياغة معنى مطروق، صياغة جديدة تفوق، أو توازي على الأقل، الصياغة السابقة للمعنى نفسه.

على أن هذه الصياغة الجديدة، وإن كانت لا تنطوي على ابتكار، فقد

لبست معانيها حللاً بديعة الصنع موشاة بأزاهير الطبيعة الغرناطية الباسرة، ومعطرة بأريج نواويرها الناضرة، بحيث إذا تأملها القارئ أعجبه واستهوته وسرته، وأنسته ما فيها من لمحات تقليدية. هذا إلى أن كثيراً من تلك الأبيات يحمل في ثناياه تجديداً جزئياً في الصورة.

ولما كان المجال يضيق عن ذكر الأبيات الزمركية المتضمنة تجديداً جزئياً^(١)، فسأكتفي بذكر بعضها.

يشعر ابن زمرك بأن شبابه ولّى وهو يمّطي أيام العمر:

أَطْوِي شَبَابِي لِلْمَشِيبِ مَرَّاحِلًا بِرَوَاحِلِ الْإِصْبَاحِ وَالْإِمْسَاءِ^(٢)

ثم يتهم الزمن بأنه هو الذي أعداه بالشيب:

هَذَا الصَّبَاحُ صَبَاحُ الشَّيْبِ قَدْ وَضَحَا سَرْعَانَ مَا كَانَ لَيْلًا فَاسْتَنَارَ ضُحَى
لِلدَّهْرِ لَوْنَانِ مِنْ نُورٍ وَمِنْ غَسَقٍ هَذَا يُعَاقِبُ هَذَا كُلَّمَا بَرَحَا
وَبِتِلْكَ صَبَغْتُهُ أَعْدَى بَيْنِهِ بِهَا إِذَا تَرَخَى مَجَالُ الْعُمْرِ وَانْفَسَحَا^(٣)

ولقد ظل سادراً في غيه، فلم يدرك حقيقة أمره إلا بعد أن نبهه نور الشيب من رقاد، وأعادته إلى صحوه ورشده:

وَمَنْ نَامَ فِي لَيْلِ الشَّبَابِ فَإِنَّهُ سَيَوْقُظُهُ صُبْحُ الْمَشِيبِ إِلَى الرُّشْدِ^(٤)

ويتلخص هذا الغي في أنه وقع في الحب بعد أن أصبح كهلاً، وأن هذا الحب قد أنهكه وانحل جسمه:

وَقُلْتُ لِجِسْمِي: إِنَّهُ تَوْبُكَ الضَّنَى وَقُلْتُ لِقَلْبِي: إِنَّهُ الْفُكُ الْحُبُّ

(١) أحصيت هذه الأبيات فبلغت مائة واثنين وستين بيتاً أي ما نسبته ٦٪ تقريباً من مجموع أبياته.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٨ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٨٠.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥١.

(٤) ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٤٥٧ و«التعريف...»، ص ٢٦٥.

وَقَالُوا: صَبَاً وَالشَّيْبُ لَاحَ صَبَاحُهُ فَقُلْتُ: بَيِّضُ كَالصَّبَاحِ أَنَا صَبٌ^(١)

ولئن كان يصبو للجمال، بشكل عام، فقد كان يفضل واحدة تمثل هذا الجمال وتستقطبه، وهي تدعى ليلي. ولقد كان مستعداً، من شدة تعلقه بحسنها، أن يجعل خده موطئاً لأخفاف مطيها:

رَعَى اللَّهُ لَيْلَى لَوْ عَلِمْتُ طَرِيقَهَا فَرَشْتُ لِأَخْفَافِ الْمَطِيِّ بِهَا خَدَيَّ^(٢)

وهو يعرف أن حبه المشتعل المتأجج بين جوانحه يستطيع أن يفعل في الظلام ما لا يفعله البرق نفسه:

يُضِيءُ ظِلَامَ اللَّيْلِ مَا بَيْنَ أَضْلُعِي إِذَا الْبَارِقُ النَّجْدِيُّ وَهْنَا بَدَالِيَا^(٣)

ثم ينطلق هائماً على وجهه يفتش عن سلوى، فلا يجد أمامه إلا روضة غناء يحمي خدَّ وردها سيفُ مائها، وتذود عن ثغور زهرها رماحها من العيدان، حتى إذا دنت الريح الشرقية ومسحت بكفها جفون ذلك الزهر، تنفس الصعداء وانتشرت أنفاسه عطراً وعبقاً:

تَمُدُّ لِأَكْوَاسِ الْعِرَارِ أَنَامِيلاً مِنْ السَّوْسَنِ الْغَضِّ الْمُخْتَمِ بِالْتَبْرِ
وَيَخْرُسُ خَدُّ الْوَرْدِ صَارِمُ نَهْرِهَا وَيُمْنَعُ ثَغْرُ النَّوْرِ بِالذَّابِلِ النَّضْرِ
إِذَا مَسَحَتْ كَفُ الصَّبَا جَفْنَ نَوْرِهَا تَنْفَسُ ثَغْرُ الزَّهْرِ عَنْ غَبْرِ الشَّحْرِ^(٤)

ثم يرى في الحديقة عواداً يوقع على أوتار عوده لحناً بعد لحن، بكل مهارة وحذق، بحيث كانت ألحانه الرقيقة الشجية المطربة تأخذ طريقها إلى قلبه مباشرة:

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٤.

(٢) ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٤٥٦ و«التعريف...»، ص ٢٦٤.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥٦ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٤٨. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٢٤.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٤ و«نفع الطيب...»، ٦: ٧٦. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٨٥.

جَسَّ الْقُلُوبَ بِجَسِّهِ أُوتَارَهُ حَتَّى كَأَنَّ قُلُوبَنَا بَيْنَ الْوَتَرِ^(١)

ويعود الشاعر إلى تأملاته من جديد، فيجد في كل زاوية من الروضة محاسن جديدة لم يرَ مثلها من قبل، فتتحرك قريحته ويتغزل بتلك المحاسن متغنياً:

كَأَنَّمَا الزُّهْرُ فِي حَافَاتِهَا سَحَرًا دَرَاهِمُ وَالنَّسِيمُ اللَّذْنُ يَجْبِيهَا
وَأَعْيُنُ النَّرْجِسِ الْمَطْلُولِ يَانِعَةً تَرْفُقُ الطَّلَّ دَمْعًا فِي مَاقِيهَا
وَانْظُرْ إِلَى الدُّوْحِ وَالْأَنْهَارِ تَكْنُفُهَا مِثْلَ النَّدَامَى سَوَاقِيهَا سَوَاقِيهَا
كَمْ حَوْلَهَا مِنْ بُدُورٍ تَجْتَنِي زَهْرًا فَتَحْسَبُ الزُّهْرَ قَدْ قَبْلَنَ أَيْدِيهَا^(٢)

حتى إذا خرج من هذه الروضة أدركه حصان الليل وهو يجرر ذيله الأسود الطويل ويبرق بعيونه لللماعة:

تَأَوَّبَنِي وَاللَّيْلُ يُذَكِّي عُيُونَهُ وَيَسْحَبُ مِنْ ذَيْلِ الدُّجْنَةِ صَافِيَا^(٣)

وتاه الشاعر في العتمة، وانتظر، دون جدوى، طلوع الفجر، ثم تذكر أنه لن يرى الفجر إلا إذا رأى جبين الغني بالله:

سَرَيْنَا بَلِيلَ التَّيِّهِ يَكْذِبُ فَجْرُهُ فَلَمَّا تَجَلَّى فَجْرُهُ صَدَقَ الْفَجْرُ^(٤)

فأسرع نحو مليكه، بخطى واسعة، مهتدياً بنوره، فوجده وسط المعمة يجاهد ويقاتل، وقد شهر سيفه الصقيل للماع:

وَلَرُبَّ لَمَاعٍ الصُّقَالِ مُشْهَرٍ مَاضٍ وَلَكِنْ فِعْلُهُ مُسْتَقْبَلُ
رَقْتُ مَضَارِبُهُ وَرَاقَ فِرْنَدُهُ فَالْحُسْنُ فِيهِ مُجَمَّلٌ وَمُفْصَّلُ

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٨ و«نفح الطيب...»، ٥: ١٨٠.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٢١ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٧١.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥٧ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٤٨. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٢٤.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٣٦ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٢٨.

فَإِذَا الْحُرُوبُ تَسَعَّرَتْ أَجْزَالُهَا يَنْسَابُ فِي يُمْنَاكَ مِنْهُ جَدُولُ
وَإِذَا دَجَا لَيْلُ الْقَتَامِ رَأَيْتُهُ وَكَأَنَّهُ فِيهِ ذُبَالٌ مُشْعَلُ^(١)

فإذا بفرسان الأعداء المدججين بالسلاح المدرعين بالحديد، المتدفقين كالبحر يستسلمون ويصبحون أسرى الملك، فتستحيل دروعهم الحديدية إلى قيود في أرجلهم:

كَانُوا بِحَاراً مِنْ حَدِيدٍ زَاخِرٍ أَذَكَّتْهُمْ نَارُ الْوَعَى فَتَسَيَّلُوا
كَانَ الْحَدِيدُ لِبَاسَهُمْ وَشِعَارَهُمْ وَالْيَوْمَ لَمْ تَلْبَسْهُ إِلَّا الْأَرْجُلُ^(٢)

ويرى الشاعر عقاباً تطير فوق الغني بالله، لا لتأكل ما يصطاده من الهامات، بل لتهديه، هي، ما اصطادته إعجاباً بشجاعته وإكراماً له على جهاده:

وَسَرَتْ عُقَابُ الْجَوِّ تُهْدِيكَ الَّذِي تَصْطَادُ مِنْ وَخْشٍ وَمِنْ أَطْيَارِ^(٣)

هذا الجهاد الذي أخاف العدى وأياسهم حين أباح لسيفه المرفف المسلول دماءهم:

وَأَقَامَ مَقْرُوضَ الْجِهَادِ بِعَزْمَةٍ تَرَكْتَ بِأَفْئِدَةِ الْعِدَاةِ فُلُولاً
وَكَاَنَّ صَفْحَ الْبَرْقِ سَيْفُكَ ظِلٌّ مِنْ غِمْدِ الْغَمَامَةِ مُرْهَقاً مَسْلُولاً
لَمْ يَرْضَ سَيْفُكَ أَنْ يُحْلَى جَوْهَرًا حَتَّى يُحْلَى عَسْجَداً مَحْلُولاً^(٤)

ويعود الغني بالله مظفراً منصوراً، ويدخل الشاعر إلى بلاطه فيقف بين يديه والحماسة تؤجج عاطفته فينشده قائلاً:

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١٤ و ١١٥ و «دفع الطيب...»، ٧: ٢٠٩.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١٨ و «دفع الطيب...»، ٧: ٢١٢.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٥ و «دفع الطيب...»، ٧: ١٥٦. وابن الخطيب: والإحاطة...، ٢: ٢٣٢.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠١.

حُسَامُكَ رَقْرَاقُ الصَّفِيحِ كَأَنَّهُ بِكَفِّكَ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ يُنْطَفِ
ضَعِيفٌ يَصِحُّ النَّصْرُ مِنْ فَتَكَاتِهِ فَيُرَوَّى لَنَا مِنْهُ الصَّحِيحُ الْمُضَعَّفُ
وَرُمُوحُكَ مُرْتَاخُ الْمَعَاطِفِ هِزَّةٌ كَأَنَّ قَدْ سَقَتْهُ مِنْ دَمِ الْكُفْرِ قَرْقَفُ
وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ سِنَانَهُ إِذَا شَمَّ رِيحَ النَّعْصِ فِي الْحَرْبِ يَرَعْفُ^(١)

إنه السلطان الشجاع الذي يُشقي السيوف ويتعبها لشدة ضرباته بها
ولكثرة استعمالها:

كَأَنِّي بِهِ يُشْقِي الصَّوَارِمَ وَالطُّبَى وَيَحْطِمُ فِي اللَّأَمِ الصَّلَابَ الْعَوَالِيَا^(٢)
ولهذا السبب كانت سيوفه هي التي تروي قصص فتوحاته لما تحمله في
متونها من أثر الغزو والقتال بحيث لا يمكن تكذيبها:

مَا صَدَّقُوا مَتَنَ الْحَدِيثِ بِفَتْحِهَا حَتَّى رَأَوْهُ فِي مُتُونِ شِفَارِ^(٣)
ويرى الشاعر أن الملك يستحق المدح بأبلغ الكلام وأبدعه، ولهذا
انبرى، هو، لهذا المدح فجاء بآيات البلاغة والتبيان وأحسن ما شاء له
الإحسان:

مَوْلَايَ خُذْهَا كَمَا شَاءَتْ بَلَاغَتُهَا غَرَاءَ لَمْ تَعْدَمِ الْأَحْجَالَ وَالْقُرُوحَا
كَأَنَّ سِرْبَ قَوَائِفِهَا إِذَا سَنَحَتْ طَيْرٌ عَلَى فَنَنِ الْإِحْسَانِ قَدْ صَدَحَا^(٤)

هذه عينة من الأبيات التي جمعتها تحت عنوان التجديد الجزئي. قد
يكون فيها تكرار لمعان ألفنا وجود مثلها في شعر المشرق. ولكن ألسنا نشعر
ونحن نقرأها بأن فيها شيئاً جديداً؟ ألا نرى إلى هذا الجمال المتأق من
الصياغة الفنية المجددة التي تنسينا قدم المعنى وتبرز لنا هذه الملاءمة بين رقة

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٥١.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٠ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥١.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٠ و«نفع الطيب...»، ٥: ١٧٣.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٥٥.

الألفاظ وجزالتها؟ وإلى ذلك النسق الموسيقي البديع الذي ترك في أنفسنا أثراً من جراء مزج الشاعر الناحيتين التصويرية والتعبيرية؟.

الابتكار:

ونأتي، أخيراً، إلى الأبيات التي تتضمن المعاني المبتكرة فنجدها قليلة^(١). ولئن كنت قد استخرجت في البدء، ضعفي هذه الأبيات، فقد رافقني خوف شديد من أن تكون الذاكرة قد خانتني فذكرت معاني لا يمكن وصفها بالابتكار، فأخذت أحذف بيتاً من هنا وبيتاً من هناك حتى استقر عدد الأبيات على ما سأذكره.

ولقد هممت، مرات كثيرة، بأن اتخلى عن عنوان «الابتكار» وأن أجمع هذه الأبيات تحت عنوان التجديد، لعلمي أن الابتكار شيء صعب لا يقدر عليه إلاّ العابرة، ولظني بأنه لا جديد في الشعر الكلاسيكي إلاّ وله جذور في ما سبق قوله من أشعار، لولا أنني وجدت بين هذه الأبيات المستخرجة، أبياتاً لا يشك قارئها بأنها مبتكرة ابتكاراً، معنى وصورة، بحيث يحسب بعضها وكأنه منظوم في هذا العصر على أيدي كبار شعرائه.

وإذا كان عنترة بن شداد، وهو في الجاهلية، يشكو من قلة المعاني غير المطروقة ويتساءل: «هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ؟» فإن هذا لا يقوم، بالطبع، دليلاً على نفاد المعاني، فالمعاني مطروحة وعلى الشاعر انتقاء ما يصلح منها والتعبير عنه بشكل جيد، كما أن هذا لا ينهض، بالتأكيد، حجة على الدارس الذي يرى شيئاً جديداً في شعر شاعر من القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي)، فلكل شاعر بيئته ولكل بيئة مميزاتها وخصائصها، وهذه المميزات والخصائص توحى بـمـعـانٍ لا تنفد. أضف إلى

(١) بلغت تسعة وثلاثين بيتاً أي ما نسبته $\frac{1}{4}$ تقريباً.

هذا كله العنصر الإنساني، فلو افترضنا أن ثلاثة شعراء معاصرين وقفوا أمام مشهد طبيعي جميل وطلبنا من كل منهم أن ينظم قصيدة في وصف هذا المشهد فلا شك في أننا سنحصل على صور ثلاث مختلفة للمشهد نفسه، ذلك بأن لكل شاعر رؤيته الخاصة وانفعاله الذاتي وطريقته في التخيل وأسلوبه في النظم.

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى شعراء من عصر واحد، فما بالنا بشعراء من عصور مختلفة؟.

والواقع أنه لا خلاف حول وجود أشياء جديدة، مهما تكن قليلة، عند كل شاعر يستحق هذا اللقب، وأن الشعراء إنما يتميزون بقدر ما لديهم من تجديد، وإن التجديد، كان ولا يزال ضرورة إنسانية ملحة يسعى إليها الشعراء وغيرهم من أصحاب الفنون.

لكل شاعر، إذًا، حظه من التجديد، قلّ أو كثر. وابن زمرك لم يكن، كما رأيناه، شويعرًا بل كان شاعرًا. وله من المعاني الجديد المبتكرة ما يعجب ويدهش، كما سنرى. فإن قال قائل: «ولكن جديده قليل» كانت الإجابة بأن العبرة ليست في «الكم» بل في «الكيف».

ولقد كان النقاد القدامى يزعمون أن البيت الفلاني للشاعر فلان يساوي قصيدة، بل إنهم كانوا يحكمون على أفضلية هذا الشاعر أو ذاك لبيت قاله. وإن كنا، نحن، لا نؤمن بأي حكم يؤسس على مثل هذه الطريقة في ميدان نقد الشعر، فعلينا أن نعترف، على الأقل، بأن هذا يؤكد على أن «الكم» الشعري لا يحسب حسابه في النقد.

ولئن كان العرب يفضلون الشاعر المكثّر فلأن الإكثار من الشعر يحسّن النظم ويقوّي البديهة فيصبح بمقدور الشاعر أن يتعد من رديء الشعر

ويقترّب من جيده، وبتعبير آخر، لأن الإكثار من الشعر وسيلة إلى نظم الجيد منه، لا غاية في حد ذاته.

وابن زمرك كان شاعراً مكثراً، بلا ريب. ولقد كان يدرك تماماً أن عليه أن يغوص على المعاني الجديدة ويحدّ في طلبها. فكان إذا وجد منها شيئاً صاغه في قالب تعبيرى شائق، فأعجب به وأخذ يعيد صياغته في قصيدة أخرى وفي ثالثة... وهكذا دواليك.

من هنا كانت المعاني الجديدة عنده مكررة، فإذا عددنا الأبيات لتجديدية، بغض النظر عن التكرار المذكور، بلغت ما يقرب من مائة بيت. على أن هذه الدراسة لا تكثرث لعدد الأبيات، وإنما تحفل بالكشف عن المعاني الجديدة. لذلك سأعرض، هنا، هذا الجديد عرضاً مفصلاً شاملاً.

قال ابن زمرك:

وَالْهَادِيَاتُ يُؤْمُهَا عِبْلُ الشَّوَى مُتَدَفَّقٌ كَتَدَفَّقِ التِّيَّارِ
أَثْبَتُ فِيهِ الرُّمَحَ ثُمَّ تَرَكْتَهُ خَضِبَ الْجَوَانِحِ بِالدِّمِ الْمَوَارِ
حَامَتْ عَلَيْهِ الذَّابِلَاتُ كَأَنَّهَا طَيْرٌ أَوْتُ مِنْهُ إِلَى أَوْكَارِ^(١)

في هذه الأبيات يصف الشاعر كيف استطاع الغني بالله أن يلحق بذلك الثور الذي يتقدم الهاديات، فيضربه برمحه ويتركه مخضباً بدمائه. حتى إذا وصل رفاقه ورأوا «عبل الشوى» قعيد الطعنة رحيب الفراغ، انهالوا برماحهم عليه فكان هذا الثور أصبح وكرأ وتلك الرماح طيوراً.

وَرَوَى عَنِ الضَّحَّاكِ عَنْ زَهْرِ الرَّبِيِّ مَا أَسْنَدَ الزُّهْرِيُّ عَنْهُ عَنْ مَطَرٍ
وَتَحَمَّلَتْ عَنْهُ حَدِيثَ صَحِيحِهِ رُسُلُ النَّسِيمِ وَصَدَقَ الْخُبْرُ الْخَبْرَ^(٢)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٦ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٦. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٢.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٢٣ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢١٧.

والجديد في هذين البيتين تأثر الشاعر برواية الحديث الشريف. فهذا لا يكون صحيحاً إلا إذا كان رواته من الثقة غير المشكوك في أخلاقهم وصدقهم. لذلك لجأ الشاعر إلى هذا التسلسل العنفي فأسند حديث الزهر مسلسلًا حتى وصل النسيم الذي حمل هذا الحديث (العطر) ونشره، فإذا به صحيح يوافق الواقع الصريح ولا يحتاج إلى تعديل أو ترجيح.

وَمَسْرَى رِكَابٍ لِلصَّبَا قَدْ وَنَتْ بِهِ نَجَائِبُ سُحْبٍ لِلتَّرَابِ نُزُوعُهَا
تَسْلُ سُيُوفَ الْبَرْقِ أَيْدِي حُدَاتِهَا فَتَنْهَلُ خَوْفًا مِنْ سَطَاهَا دُمُوعُهَا^(١)

إنها، لعمرى، لوحة رائعة، صورتها ريشة خيال الشاعر الذي استطاع أن يلبس الفكرة الأزلية للغيم والبرق والمطر ثوباً قشياً موشى بصورة قل مثيلها في الحسن والإبداع!

وَكَتِيبَةٍ لِلشُّوقِ قَدْ جَهَّزَتْهَا أَغْزَوْ بِهَا السُّلُوانَ غَزَوْ مُصَمَّمٍ
وَرَفَعَتْ فِيهَا الْقَلْبَ بَدْأً خَافِقًا وَأَرَيْتُ لِلْعُشَاقِ فَضْلَ تَهْمِيمِي^(٢)

لعل الشوق والسلوان والقلب والعشاق من أكثر الألفاظ استعمالاً في غرض الحب. وبالرغم من هذا استطاع الشاعر أن يضمن هذه الألفاظ بيتين من الشعر، فإذا به يغزو قلوبنا بهما كما غزا السلوان... وإذا به يصور شوقه غازياً في كتيبة علمها الخفاق هو القلب، فيرينا ما وراء اللفظ من معنى جديد مبتكر، تماماً كما أرى العشاق فضل تحسسه بالحب ومكابدته الجوى والحين.

تَجْرِي الرُّؤُوسُ حَبَاباً فَوْقَ صَفْحَتِهِ وَمَا جَرَى غَيْرَ أَنَّ الْبَاسَ يُجْرِيهَا^(٣)

أفلا نرى إلى رؤوس الأعداء كيف يقطعها الغني بالله بسيفه، فتتدحرج على متن السيف وكأنها، لبياضها واستدارتها، حباب الخمر أو زبد الماء؟!.

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة»، ٢: ٢٣٦. والمقري: «نفع الطيب»، ٧: ١٥٩.

(٢) المقري: «أزهار الرياض»، ٢: ٦١ و«نفع الطيب»، ٧: ١٨٤.

(٣) المقري: «أزهار الرياض»، ٢: ٢٦ و«نفع الطيب»، ٧: ١٧٥.

وَلَرُبَّ رَوْضٍ لِّقَنَّا مُتَاوِدٍ نَابَ الصَّهِيلُ بِهِ عَنِ الْأَطْيَارِ
مَهْمَا حَكَتْ زُهْرُ الْأَسْنَةِ زَهْرَهُ حَكَتِ السُّيُوفُ مَعَاطِفَ الْأَنْهَارِ^(١)

ميدان المعركة أصبح روضاً: الخيول الصاهلة هي أطياره المغردة، ورؤوس الأسنة هي زهره، والسيوف اللماعة هي ما يجري فيه من مياه!!.

تُقَلَّدُ أَجْيَادَ الطُّرُوسِ تَمَائِمًا بِصِنْفِي لَالٍ مِنْ نِظَامٍ وَمِنْ نَثْرٍ
تَهَيَّيْكَ الْقِرْطَاسُ فَاحْمَرَّ إِذْ غَدَا يُقْلُ بُحُورًا مِنْ أَنْامِلِكَ الْعَشْرِ
كَأَنَّ رِيَاضَ الطَّرْسِ خَدُّ مُورَدٍّ يُطْرِزُهُ وَشْيُ الْعِدَارِ مِنَ الْحَبْرِ^(٢)

أفلا ننظر إلى ذلك القرتاس الذي يَوجَل من توقيع أنامل الكاتب (لسان الدين ابن الخطيب) عليه، فَيَحْمَرُّ وَيُشَبُّ بما فيه من كتابة خدأ موسى بنقاط الحبر الأسود.

وَابْلُلْ بِهَا رَمَقَ الْأَصِيلِ عَشِيَّةً وَالشَّمْسُ مِنْ وَعْدِ الْغُرُوبِ عَلَى خَطَرٍ
مُحْمَرَّةٌ مُضْفَرَةٌ قَدْ أَظْهَرَتْ خَجَلَ الْمُرِيبِ يَشُوبُهُ وَجَلُّ الْحَذَرِ^(٣)

يتحدث الشاعر، هنا، عن الخمر، فيصفها بالاحمرار والاصفرار وليس في هذا أي جديد يؤبه له، ولكن أن تكون الخمر قد اصطبغت بهذين اللونين لأنها تبعث على الريبة المخجلة وتتصف بالحذر والخوف، فهنا مكنم الجدة!.

بَاكَرْتُهُ وَالْأَفْقُ قَدْ خَلَعَ الدُّجَى مِسْحًا لِيَلْبَسَ حُلَّةَ الْإِسْفَارِ
وَجَرَى بِهِ نَهْرُ النَّهَارِ كِمِثْلِ مَا سَكَبَ النَّدِيمُ سُلَاقَةً مِنْ قَارٍ^(٤)

هل سمعنا مرة بوجود خمر تشبه القار بسوادها وطعمها، يسكبها نديم

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٣ و«نفح الطيب...»، ٥: ١٧٥.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٦٤ و«نفح الطيب...»، ٦: ٧٥ و٧٦. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٨٤.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٦ و«نفح الطيب...»، ٥: ١٧٨.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٥ و«نفح الطيب...»، ٧: ١٥٦. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٣٢.

أبيض البشرة لصاحبه؟ إذًا، فَلْتَعُدْ قراءة هذا البيت ونستمتع بما فيه من صورة جميلة: لقد جرف النهار كل ما في طريقه من ظلمة كالنهر يجرف سواد التربة!.

وَلَا حَ عَمُودُ الصُّبْحِ مِثْلَ انْتِسَابِهِ رَفَعَتْ عَلَيْهِ لِلْمَدِيحِ الْمَبَانِيَا^(١)

ألا نلاحظ هذا الصبح الذي غدا عموداً، وهذا المديح الذي أصبح بناءً قائماً على ذلك العمود؟!.

فَأَنْشَأَ بُرْجاً صَاعِداً مُتَنَزِّلاً يَكُونُ رَسُولاً بَيْنَهَا مُتَرَدِّداً^(٢)

لا بد أن يلفت انتباهنا هذا البيت، لأننا نرى فيه وجهاً حضارياً غير معهود في زمانه، ألا وهو هذا الرسول المتردد بين طبقات القصر، وأعني به الصاعد الذي ندهش لوجوده في ذلك العصر!!.

وَعَلَى الْكُتَيْبِ سَوَابِحُ حُمْرُ الْحُلَى بِيضُ الْوُجُوهِ يُصَدِّنَ بِالْأَفْكَارِ^(٣)

لكاني بهؤلاء الحسان قد تحولن إلى طباء ترتع على الكتيان، وكأني بأفكار الشاعر قد استحالت، بما فيها من حب وأمل، سهاماً تسعى إلى إصابة هذه الطباء والإمساك بها. فتأمل معي هذا المعنى الذي لم يسبق إليه.

عَلَى كُلِّ نِضْوٍ مِثْلُهُ فَكَأَنَّمَا رَمَى مِنْهُمَا صَدْرَ الْمَفَازَةِ سَهْمَانِ^(٤)

المطية حرف أنصاها الوجي، وراكبها ضامر أنحله النصب، فكأنهما، وهما يفوزان الفلاة، سهمان سريعان.

لَمْ يَعْرِفِ التَّرْكِيْبَ سَيْفُكَ فِي الْوَعَى فَأَعْجَبَ لَهُ قَدْ أَحْكَمَ التَّحْلِيلَا^(٥)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٦٧ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٩٠.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٠ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٠٣.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠٤ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٥.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٤٤ و«نفع الطيب...»، ٥: ٤٧.

(٥) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٠١.

إذا كنا لا نَعجب لذلك السيف الجاهل العالم، فإننا، في الواقع، نَعجب بهذا المعنى الطريف الذي أتى به الشاعر معتمداً فيه على لفظين علميين هما التركيب (Synthèse) والتحليل (Analyse).

أَوْ أَدْهَمَ كَاللَّيْلِ قُلْدَ شُهْبَهُ خَاصَّ الصَّبَاحِ فَأَثْبَتَهُ الْأَرْجُلُ^(١)
وَأَدْهَمَ فِي مِسْحِ الدُّجَى مَتَلَفَعٌ وَقَدْ خَاصَّ مِنْهُ فِي الصَّبَاحِ الْأَسَافِلُ^(٢)

ما رأيك بهذا الحصان الأسود الذي ابيضت أرجله فكأنما كان يخوض نهر الصباح فصبغها بلونه؟! إنه معنى مبتكر رائع بلا شك.

شَمَائِلُهُ مَهْمَا أُدِيرَتْ كُؤُوسُهَا فَلَا تُدْ أَسْمَاعٍ وَأَنْسُ قُلُوبٍ^(٣)

ألا ترى إلى هذه السجايا التي يتحلّى بها الغني بالله؟ إنها، لعظمتها، تفعل فعل الخمر حين تذكر، إذ تأنس بها القلوب، وتطرب لها الأسماع، بل إنها في الأذان كالقلادة البديعة في الجيد البديع لا يفكها الملوان.

بَرَاهَا الْهَوَى بَرَى الْقِدَاحِ وَخَطَّهَا حُرُوفًا عَلَى صَفْحٍ مِنَ الْقَفْرِ مُمْتَدَّ^(٤)

يتحدث الشاعر عن النوق التي تسير في القلاة. لقد أنحلها شوقها إلى ورود نجد، فأصبحت من نحوها كالحروف المرسومة على صحيفة كبيرة بيضاء!.

رَكَبْنَا إِلَى الْإِحْسَانِ فِي سُفْنِ الرَّجَا بُحُورَ عَطَاءٍ لَيْسَ تَجْزُرُ عَنْ مَدٍّ^(٥)

أن يوصف الغني بالله بأنه بحر سماحة يفيض على الناس عطاءً وكرماً، فهذا معنى تقليدي قديم، ولكن أن يركب الشاعر سفينة الرجاء ويخوض

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١١٩ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢١٣.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٧٦.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٤٢ و«نفح الطيب...»، ٧: ٢٣٢.

(٤) ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٤٥٦ و«التعريف...»، ص ٢٦٣.

(٥) ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٤٥٧ و«التعريف...»، ص ٢٦٦.

غمار بحر ممتد لا يعرف شاطئه معنى الجزر - فهذا من المعاني التي نلمس فيها تجديدًا ظاهرًا.

لَا يُحَرِّزُ الْمَجْدُ الْخَطِيرَ سِوَى أَمْرٍ يُمِطِي الْعَزَائِمَ صَهْوَةً الْأَخْطَارِ^(١)

انظر إلى هذه الأخطار وإلى تلك العزائم، فهي لم تعد مجرد معان ذهنية، لقد حولها خيال الشاعر إلى أشياء حسية تلمس وتحس فإذا بعزيمة الغني بالله تصبح فارساً مقداماً لا يهاب، وإذا بالخطر الداهم يغدو مطية ذلولاً تحت فارسها يعطفها حين يشاء ويستوقفها متى يريد!!!.

تَتَجَسَّمُ الْأَهْوَالُ فِي طَلَبِ الْعَلَا وَتَرْوُعُ سِرْبِ النَّوْمِ بِالْأَفْكَارِ^(٢)

ما هذا السرب الذي يلوح عن بعد؟ هل هو قطيع ظباء هجم عليها الليث فجقلها عن مراعيها؟ أم هو سرب قطا حطت على جانب نهر حتى إذا رأت الصياد ارتاعت ولم تعد آمنة في سربها، فهبت تطير هاربة، لعلها تنجو من الموت؟ كلا! لا هذه ولا تلك، إنها سرب هنيهات النوم طردها التفكير فولت عن صاحبها فظل أرقاً مسهداً.

وَيُبْلِلُ الدُّوْحُ إِنْ تَغْنَى أَشْهَرَ لَيْلِي إِلَى الصَّبَاحِ^(٣)

يحدث كثيراً أن يسهر الإنسان إلى الصباح، أما أن يسهر البلبل الليل حتى الصباح فهذا معنى طريف.

وَكَيْفَ بِالسُّلُوءِ وَالْقَلْبُ رَهْنُ الْفِكْرِ
وَسُحْبُ الْهَجْرَانِ تَحْجُبُ وَجْهَ الْقَمَرِ^(٤)

(١) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧١ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٢.

(٢) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٠ و«نفع الطيب...»، ٧: ١٥٢.

(٣) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٧٧ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٤١.

(٤) المقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ١٨٤ و«نفع الطيب...»، ٧: ٢٤٧.

حين شبّه الشاعر حبيبته بالقمر، شبّه هجرانها بالسحب التي تحجب القمر فلا يعود إلى الظهور ما لم تنقشع.

وَالْحُبُّ دُوْعُدَوَانٌ يَجْهَدُ فِي ظُلْمِ الْبَرِيِّ^(١)

متى كان الحب ذا عدوان؟ وكيف يظلم البريء؟ وهل أتى بهذا المعنى شاعر من قبل؟.

وهكذا نرى، في ما مرّ ذكره من أبيات مبتكرة، كيف استطاع ابن زمرك أن يتخطى، بسهولة، عتبة التقليد، وأن يصل في بعض هذه الأبيات (حروف النوق... وسحب الهجران... وسهر الليل... وسرب النوم...) إلى قُلَّةِ الإبداع، بل إنه تجاوز التراكم الكمي إلى التحول الكيفي في شكل صور شعرية براقّة تأسر وتبهر (خوض الحصان الصباح واصطبغ أرجله بلونه... نجائب السحب وسيوف برقها ودموعها الخائفة...).

ولئن كان النقاد المعاصرون يركزون على مكمن الإثارة في الشعر، ويتحدثون عن الصدمة أو الدهشة التي يبعثها في نفس القارئ، فلعلهم سيجدون ما يثير اهتمامهم وعجبهم في بعض تلك الأبيات (قلائد من السمع... وفكر صياد... وعزيمة تمتطي صهوات الأخطار...).

(١) المقرئ: «أزهار الرياض»، ٢، ١٨٥ و«فتح الطيب»، ٧: ٢٤٨.

الخاتمة

بعد هذا العرض المفصل لنتاج ابن زمرك، لا بدّ من تقويمه. ويجب أن يكون هذا التقويم عادلاً وموضوعياً، ذلك بأن الحكم على الظاهرات الأدبية، بعد تحليل جوهرها، يجب أن يكون حكماً بعيداً عن الانطباعات الشخصية، مبنياً على الاستدلال الصريح غير معتمد على هوى في النفس أو منحازٍ إلى رأي مسبق.

فقد اكتشفت أن الأدب الأندلسي، بصورة خاصة، معرّض للتهشيم والتجريح بحجة أنه أدب تقليدي لا جديد فيه، ما خلا الموشحات. بل إن هذه الموشحات نالت نصيبها من الطعن بعد القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

ولعله من الطريف أن أذكر، هنا، أني قرأت كثيراً من الكتب الأدبية التي تبحث في فنون الأدب، وكان معظمها يمر مرور الكرام بالشعر الأندلسي، فلا يكاد يتعرض له إلّا في أسطر قليلة لا غناء فيها، ولا ينسى بعض هذه الكتب أن يذكر أن الشعر الأندلسي إنما هو مجرد تقليد للشعر المشرقي^(١)، وأنه لم يكد يتجدد إلّا في بعض الألفاظ دون المعاني، ثم

(١) أمين، أحمد: «ظهر الإسلام»، ٣: ١٠٤ و ١٠٥. وخالص، د. صلاح: «أشيلية في القرن الخامس الهجري»، ص ٨٥.

يستشهد على هذه الجدة بأشطر قليلة من موشح نظمه... شاعر مشرقى!!؟^(١).

ولقد رسخ في ذهني اعتقاد بأن الشاعر الأندلسي مظلوم، وأن على نقاد الأدب أن يرفعوا هذا الظلم عنه. وها أنا اعترف، ببساطة وصدق، أنني ظلمت ابن زمرك نفسه! ذلك بأنني كلما قرأت أشعاره كنت أحس أن له أبياتاً جديدة المعنى لم أذكرها في الفصل الذي عقدته لبيان جديده.

على أن صفتي الجدة والتقليد تنصبان في الأساس على كيفية تعامل الشاعر مع أداته، دون أن يخرج على تراث التشكيل اللغوي. فليس المطلوب من الشاعر، لكي يعدّ مجدداً، أن يغوص دائماً في عالم الأعاجيب ويأتي بما يند عن الفهم لغرابته! ثم إن الشعر من الجماليات التي تجافي العلم. لذلك فإن القصيدة ليست مجرد نص لغوي جامد، إنها بنية رمزية يقيمها تنظيم لغوي وتحمل من عناصر العاطفة والتلوين الجمالي والمسحة الخيالية والقيم الإنسانية والواقعين المكاني والزماني ما يجعلها كائناً حياً ينبض بالحركة ولا يخضع لقانون الأشياء والجمادات.

من هنا كان على الناقد، لكي يأمن التعثر فالسقوط، أن يعول في أحكامه على موازين فكرية صحيحة أساسها الذوق والفهم السليمان والمخزون الثقافي الواسع، فلا يحكم على قصيدة منظومة قبل قرون، إذالم ينظر إلى تلك القصيدة بمنظار العصر الذي نظمت فيه.

ثم إن قضية الحكم على شعر شاعر لا تنحصر في التأكيد على تقليديته، طالما أن التقليد لا يكون عيباً إذا حمل في ذاته بذور التجديد، بل تبلور في الأسئلة التالية: هل استطاع تقليد الشاعر سواه أن يحمله على عبور جسر

(١) حاوي، إيليا: «فن الشعر الخمري»، دار الشرق الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٠، ص ٢٠٠. وغريب، جورج: «شعر اللهو والخمر»، دار الثقافة، الطبعة الأولى، ١٩٦٦، ص ٥٣ و ٥٥.

التقليد إلى مدينة التجديد؟ وما هذا الجديد الذي أتى به؟ وهل له قيمة أو أثر بحيث يستطيع أن يضيف ساقية صغيرة إلى ذلك الخضم المسمى بالتراث الشعري؟.

من هذا المنطلق، يسهل الحكم على ابن زمرك بأنه شاعر، لأنه اتخذ من تقليده، سبيلاً يعبره إلى تلك المعاني المبتكرة التي أجدها بعضها يسائر ثقافة عصرنا وذوقه.

على أنه يحسن بي، أن أذكر هنا، آراء النقاد القدامى والمعاصرين في شعر ابن زمرك. وأبدأ بلسان الدين بن الخطيب الذي كان أستاذه وأعلم الناس به وبالشعر الجيد في زمانه، فإذا به يصفه بفارس النظم «اللعب بأطراف الكلام المشقق»^(١). ويصف شعره بأنه: «مترام إلى هدف الإجادة... كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة، غزير المادة...»^(٢).

وهو يقول في «الكتيبة...» الذي نظمته بعد خلافه مع ابن زمرك: «وآدابه مستميلة... ينظم وينثر، وعلى القيود يعثر، وأكثر إجادته في القصائد التي تطول ويلوى بدينها الطبع المطول...»^(٣).

أما إسماعيل بن يوسف بن نصر، صاحب كتاب «نثر فرائد الجمان...»، فيقول عنه إنه «تقلد سيف الشعر المحلى وبالإجادة فيه تجلى، ومن ينبوع أدبه انبجس ماء البديهة وانفجر...»^(٤).

ويصف السلطان يوسف الثالث ابن نصر، صاحب «البقية والمدرک من شعر ابن زمرك»، قصائده بأنها «قلائد عقيان وعقود در ومرجان ترتاح النفوس

(١) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ١١٨.

(٢) المقري: «نفع الطيب...»، ٧: ١٤٧.

(٣) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ٢٨٣.

(٤) «نثر فرائد الجمان...»، ص ٣٢٧ و ٣٢٨.

النفيسة لانشادها وتحضر الأبصار والأسماع عند إيرادها...»^(١).

ويدلي المقرّي بدلوّه، فيصف نظمه بالبارع ويقول عنه إنه فطن بالمعاريض قد «امتد في ميدان النظم والنثر باعه، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة...»^(٢).

أما النقاد المعاصرون فقد أجمعوا، أيضاً، على أنه شاعر وإن اختلفت آراؤهم في شعره!.

فغرسيا - غومس يلقبه بـ «بلبل الحمراء الغريد»^(٣) وينعته مرة بالشاعر الكبير^(٤) وحيناً بالشاعر العظيم^(٥)، ومرة ثالثة بالعلم الممتاز^(٦).

ويقول إنه «جماع لألوان الجناس والطباق... وموسيقاه غاية في الجمال والاتقان... وهو في ترتيب هذه الأشياء، أقرب ما يكون إلى عبقرية المتنبي، فهو يملك سر الإيقاع... وربما جاء ذلك كله بارداً شاحباً ولكنه يرن بروعة...»^(٧).

ووصفه ليفي - بروفنسال بالشاعر المشهور^(٨). وقال جان ريد: إنه كان شخصية أدبية بارزة.

أما كراتشكوفسكي فيعده تابعاً، ويرى أشعاره عادية جداً لأنها «تعطينا الإحساس بالفقر الحقيقي لشعر البلاط الذي فقد في الأندلس كما فقد في

(١) المقرّي: «نفع الطيب...»، ٧: ١٦٤ و ١٦٥.

(٢) المقرّي: «نفع الطيب...»، ٧: ١٤٦.

(٣) «مع شعراء الأندلس» ص ٢٥٤.

(٤) نفسه، ص ٢٣٥.

(٥) «الشعر الأندلسي»، ص ٧٢.

(٦) «مع شعراء الأندلس...»، ص ٢٢٧ و ٢٢٨.

(٧) «محاضرات في أدب الأندلس...»، ص ١٨.

جميع البلاد العربية، كل رابطة مع الإحساس والتنفس الحي وتحول إلى مجرد بلاغة مدرسية»^(١).

ويلوح لمحمد عبد الله عنان أن ابن زمرك «أعظم شخصية تزعمت، من بعد ابن الخطيب، الحركة الأدبية في الأندلس»^(٢)، وأنه «قد يتفوق في شاعريته على أستاذه ابن الخطيب»^(٣).

هذا مجمل آراء النقاد القدامى والمحدثين في شاعرنا ابن زمرك، عرضتها بإيجاز لأبين موقع هذا الشاعر ومبلغ إجادته في عالم النقد.

وإذا كان لي في النهاية، أن أحدد مرتبته في زمنه فلإني أرى أنه ولسان الدين ابن الخطيب، أكبر شاعرين غرناطين في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي).

أما شعره الذي تكثر فيه ألوان الاستعارة والتجيس، وبرز فيه النغم الموسيقي، ويعطي الانطباع بسهولة نظمه، فيكفي أن يتضمن تلك المعاني المبتكرة وتلك الصياغة القوية، فضلاً عما يحمله من قيم تاريخية واجتماعية ظاهرة في وصفه القصور والمباني وما كان يجري فيها من احتفالات المولد وحفلات الأعدار، وفي وصفه غرناطة وما فيها من حداثق ونوافير وفي ذكره ميدان الطراد وسباق الخيل، وفي تخليده غزوات الغني بالله وجهاده، وفي تعبيره أخيراً عن الذوق الأدبي العام في عصره: يكفي هذا كله ليكون شعره صورة صادقة لعصره على الرغم من أنه كان شاعر بلاط. فبلاط ذلك العصر لم يكن يستطيع الخروج على ما يريده الشعب الغرناطي الذي كان يعجب بمليكه ويحبه لغزواته الجهادية ومعاملته الكريمة وعدله.

(١) M.S.P.، ص ١٩٧.

(٢) «الشعر العربي في الأندلس»، ص ٩٠.

(٣) «نهاية الأندلس»، ص ٤٨٢ و ٤٨٤.

ولا يفترض، على كل حال، أن لا يمثل شاعر البلاط عصره بشعره،
فنحن نعلم، جميعاً، أن الشعراء العرب مثلوا عصورهم الأدبية أفضل تمثيل
مع أنهم كانوا شعراء بلاط.

إن ابن زمرك كان شاعراً، أكثر منه كاتباً، وإذا كان شعره قد استحق
أن ينقش على جدران قصور الحمراء، فإن أبا عبد الله بن زمرك يستحق، في
الواقع، أن يذكره التاريخ مع من يذكرهم من كبار الشعراء العرب.

* * *

جدول رقم ١
بالمصادر المتضمنة شعر ابن زمرك

صاحب المصدر	المصدر	عدد الأبيات	نسبتها المئوية
المقري	«أزهار الرياض...»	٢٤٨١	%٩٥
المقري	«نفع الطيب...»	١٩٠٦	%٧٣
ابن الخطيب	«الإحاطة...»	٥٢١	%٢٠
ابن خلدون	«العبر...»		
ابن خلدون	«التعريف...»		
ابن الخطيب	«الكتيبة...»		
ابن الأحمر	«نثر فرائد...»		
ابن الخطيب	«أعمال الأعلام...»	٤٤	
		٤٩٠٨	
		٢٢٩٤ بيتاً مكرراً	
		٢٦١٤	

ملاحظات

١ - انفرد «الأزهار» عن «النفع» بذكر	٦٠٦	%٢٣
وانفرد «النفع» عن «الأزهار» بذكر	٣١	%١
وانفردت المصادر الباقية عن «الأزهار»		
و «النفع» بذكر:		
«التعريف...»	٧٦	
«الإحاطة...»	١٩	
«أعمال الأعلام...»	٤	
«الكتيبة...»	٢	
«العبر...»	١	
	١٠٢	%٤

٢ - الموشحات موجودة في «الأزهار» و «النفع» فقط.. وهي لا تدخل، بالطبع، في أرقام هذا الجدول.

جدول رقم ٢
بالبحور التي نظم عليها ابن زمرك قصائده ومقطعاته

نسبتها المئوية	عدد الأبيات	اسم البحر
١٢ % ٤٤	١١٦٩	الطويل
٢ % ٤٢	١٠٩٧	الكامل
١٠ % ١٠	٢٧٤	البسيط
		الرمل
		الخفيف
		الرجز
٣ %	٧٤	المجتث
		الوافر
		السريع
		المقارب
<u>١٠٠ %</u>	<u>٢٦١٤</u>	

جدول رقم ٣
بالأحرف الأكثر استعمالاً كروي

الروي	عدد الآيات	نسبتها المئوية
اللام	٥٥٨	%٢١ $\frac{1}{2}$
الراء	٤٨٨	%١٨ $\frac{1}{2}$
المكسورة ٣١٩	}	
الساكنة ١١٤		
المضمومة ٣١		
المفتوحة ٢٤		
الياء	٢٥٠	%٩ $\frac{1}{2}$
الذال	٢٣٤	%٩
الهاء	٢٣٢	%٩
الميم	١٨٥	%٧
النون	١١١	%٤ $\frac{1}{2}$
الهمزة	١٠١	%٤
الحاء	٩٧	}
الفاء	٧٠	
الباء	٦٩	
القاف	٦٦	
السين	٥٧	
العين	٥٥	
الكاف	٢١	
التاء	١٠	
الذال	٦	
الضاد	٢	
الجيم	٢	
	٤٥٥	%١٧ $\frac{1}{2}$
	<u>٢٦١٤</u>	<u>%١٠٠</u>

جدول رقم ٤
بأغراض ابن زمرك الصرفة

الغرض	عدد الأبيات	نسبتها المئوية
المدح	١٥١٦	%٥٨
{ المدح النبوي ١٧٤ مدح الغني بالله ١١٦٢ مدح آخرين ١٨٠		
الوصف	٥٢٥	%٢٠
النسيب	٢٣٤	%٩
الرثاء	٢٠٥	%٨
الفخر	٥٢	%٢
مختلف	٨٢	%٣
	<u>٢٦١٤</u>	<u>%١٠٠</u>

جدول رقم ٥
بأهم الأحداث والمجريات
الواقعة في العهد النصري الثاني
(القرن الهجري الثامن - الرابع عشر الميلادي)

الهجري ^(١)	الميلادي	الحادث
٧٠١	١٣٠١	تجديد معاهدة «الصلح الثابت والصحة الصادقة» بين محمد الثاني الملقب بالفقيه سلطان غرناطة وبين خايمي الثاني ملك أراغون ^(٢) .
٧٠١	١٣٠٢	وفاة محمد الثاني ومبايعة ابنه محمد الثالث الملقب بالملخوع ^(٣) .
٧٠٣	١٣٠٢-١٣٠٣	ثورة أبي الحجاج بن نصر بوادي آش على محمد الثالث الذي بادره فتغلب عليه وقتله ^(٤) .
٧٠٥	١٣٠٥	تمرد والي ألمرية سليمان بن الربيع بتحريض من أراغون وهزمته ^(٥) .
٧٠٥ شوال	١٣٠٦	استيلاء محمد الثالث على سبتة العائدة للملك المغرب ^(٦) .
٧٠٦ ذو القعدة	١٣٠٧	اغتيال السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد أيار

(١) تم تحويل الهجري إلى الميلادي وبالعكس بموجب جدول «توفيق السنين الهجرية مع السنين المسيحية» الوارد في معجم «المتجدد في اللغة»، ص ٣٥٦ - ٣٥٨.

(٢) Alarcón y Santón, M.A. y De Linares, R.G.: «Los Documentos Arabes Diplomaticos» del Archivo de la Corona de Aragon», (D.A.D.A.C.A.), Madrid, 1940, p. 7.

(٣) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٢٢. وابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٢٢٨. والقلقشندي: «صبح الأعشى...»، ٥: ٢٦١.

(٤) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٥٣ و«أعمال الأعلام...»، ص ٢٩٢. والإحاطة...، ١: ٥٥٩.

(٥) Scott, S.P.: «History of the Moorish Empire in Europe» (H.M.E.E.), 1904, 3: 448.

(٦) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٥٣ و«الإحاطة...»، ١: ٥٦٠.

المهجري	الميلادي	الحدث
٧٠٨ صفر	١٣٠٨ تموز	الحق المريني وارتقاء أبي ثابت عامر ابن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق عرش المغرب ^(١) . وفاة السلطان أبي ثابت إثر مرضه ومبايعة أخيه أبي الربيع سليمان ^(٢) .
٧٠٨ منتصفها	١٣٠٨ أواخرها	إبرام معاهدة تحالف بين خايمي الثاني ملك أراغون وفرناندو الرابع ملك قشتالة ^(٣) .
٧٠٨ شوال	١٣٠٩ آذار	مقتل الوزير ابن الحكيم ^(٤) وإرغام محمد الثالث على التنازل عن العرش لأخيه أبي الجيوش نصر ونفيه إلى المنكب ^(٥) .
٧٠٩ صفر	١٣٠٩ تموز - آب	عودة سبته إلى بني مرين ^(٦) .

(١) القلقشندي: «مآثر الأنافة...»، ص ١٤٣ وقد ورد فيه أن أبا يعقوب «بقي حتى طعنه خصي من بعض خدمه وهو نائب على فراشه فمات في ٧ ذي القعدة عام ٧٠٦هـ». وإسماعيل بن الأحمر: «روضة النسرین...»، ص ٢١ ورد فيه أن أبا يعقوب «وبيع في غرة صفر سنة ٦٨٥هـ (٢٩ آذار ١٢٨٦)، وقتل في ضحى يوم الأربعاء السابع لذي القعدة عام ٧٠٦هـ (١٠ أيار ١٣٠٧).

(٢) ابن الأحمر: «روضة النسرین...»، ص ٢٢. وقد أورد القلقشندي في «مآثر الأنافة...»، ص ١٤٤: «فبقي أبو ثابت حتى مات بطنجة من أقصى المغرب في ٨ صفر سنة ٧٠٧ وملك أخوه أبو الربيع...». وظاهر أن العام ٧٠٧ محرف عن ٧٠٨ إذ ورد في «روضة النسرین...»، ص ٢٢ ما صورته: «... ومات بطنجة مسموماً في صفر عام ٧٠٨ (تموز ١٣٠٨) وكانت دولته سنة واحدة وثلاثة أشهر...».

(٣) مجلة تطوان العدد الثامن، ص ١٩٤.

(٤) هو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى... ابن الحكيم اللخمي الرندي (٦٦٠-٧٠٨هـ/ ١٢٦١-١٢٦٢م). كان شاعراً وخطيباً وكتاباً بليغاً، مؤثراً لأهل العلم والأدب. ترجمه المقرئ في «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٤٠ و ٣٤١ وفي «نفح الطيب...»، ٥: ٤٩٨ و ٤٩٩. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ٢٧٩.

(٥) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٢٢ و «الإحاطة...»، ١: ٣٩٢ و ٥٦٠. والمقرئ: «أزهار الرياض...»، ٢: ٣٤٠ و ٣٤١.

(٦) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٤. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»،

ص ١١٥ و

الميلادي	الهجري	الحادث
١١٣٠٩	٧٠٩	محاصرة فرناندو الرابع الجزيرة الخضراء وجبل طارق ^(١) .
٢٦ تموز	١٦ صفر	
١٣٠٩	٧٠٩	محاصرة خايي الثاني المرية ^(٢) .
١١ آب	٣ ربيع الأول	
١٣١٠	٧٠٩	سقوط جبل طارق بيد قشتالة بعد محاصرته أشهراً طوالاً ^(٣) .
آذار	شوال	
١٣١٠	٧٠٩	إبرام اتفاق صلح بين قشتالة وغرناطة. وفي كانون الأول سنة ١٣١٠م / شعبان - رمضان سنة ٧١٠هـ تم إبرام الصلح بين خايي الثاني ونصر ^(٤) .
١٣١٠	٧١٠	وفاة السلطان المغربي أبي الربيع سليمان ومبايعة أبي عثمان بن يعقوب ^(٥) .
٢٦ تشرين الثاني	٢ رجب	
١٣١٢	٧١٢	مهلك فرديناند الرابع وتنصيب ابنه الفونسو الحادي عشر على عرش قشتالة ^(٦) .
١٣١٣	٧١٣	مولد لسان الدين بن الخطيب في لَوْشَة من أعمال غرناطة ^(٧) .
١٦ تشرين الثاني	٢٥ رجب	

(١) «اسبيريس»، مجلد ١٦، ص ١٢٤. ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٤. و:

Lomax, Derek W.: (R.S.), p.p. 164 - 165.

(٢) «اسبيريس»، مجلد ١٦، ص ١٢٦ - ١٣١. وفي هذا المرجع تفصيل هذا الحصار الذي انتهى في ٢٢ شعبان سنة ٧٠٩هـ (٢٥ كانون الثاني سنة ١٣١٠). وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١١٥. ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٤ و ١٩٥.

(٣) الناصر السلاوي: «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ٥٩.

(٤) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٤.

(٥) ابن الأحمر: «روضة النرين...»، ص ٢٣. والقلقشندي: «مآثر الأنافة...»، ص ١٤٤.

(٦) القلقشندي: «صبح الأعشى...»، ٥: ٢٦٨.

(٧) عنان، محمد عبد الله: «لسان الدين بن الخطيب...»، ص ٣٢ و «نهاية الأندلس...»،

الميلادي	الهجري	الحادث
١٣١٤	٧١٣	وفاة محمد الثالث ^(١) .
٢١ كانون الثاني	٣ شوال	
١٣١٤	٧١٣	فرار أبي الجيوش نصر بعد هزيمته وجلس السلطان أبي
أوائلها	أواخرها	الوليد إسماعيل الأول على عرش غرناطة ^(٢) .
١٣١٦	٧١٦	غزو القشتاليين بسائط غرناطة واستيلاؤهم على عدة
نيسان - أيار	صفر	قواعد وحصون وهزمهم المسلمون في وادي فرتونة ^(٣) .
١٣١٦	٧١٦	عقد هدنة جديدة بين قشتالة وغرناطة ^(٤) .
١٣١٩	٧١٩	إلحاق هزيمة كبيرة بالقشتاليين في معركة كبيرة جرت في
حزيران	جمادي الأولى	مرج غرناطة وقتل فيها دون بطرة ودون خوان الوصيان
		على الفونسو الحادي عشر ^(٥) .

(١) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٢٢.

(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٢٢.

(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٣٩٧ و«اللمحة البدرية...»، ص ٢١ و ٧٢. و«أعمال الأعلام...»، ص ٢٩٤ و«الكتيبة الكامنة...»، ص ١٧٦. وابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٢٥٠.

(٤) مجلة تطوان العدد الثامن، ص ١٩٤.

(٥) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٣٩٧ و«أعمال الأعلام...»، ص ٢٩٥. ذكر دي مارلس:

De Marlès, M.: «Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal» (H.D.A.M.E.P.), Paris 1825, p. 169.

أن المؤرخين الأسبان يقولون: «إن الوصيين قد ماتا من شدة التعب دون أن يجرح أحد منهما». ثم يعلق على هذا القول فيذكر إنه «مستغرب وأنه يميل إلى تصديق ما يقوله المؤرخون العرب من أنها قتلا و١٥ مجاريبان كالأسود». والصحيح أنها قتلا بدليل ما جاء به ابن الخطيب في «الإحاطة...»، ١: ٣٩٧ و ٣٩٨ من أنه حين تفقد مكان القتل بعد خمسين سنة وأمر بنكشف عن الرمة لتنتقل إلى وعاء ثان «أُلْفِيَّ بعظم القطن العريض منها، سنناً مرهب ثبت في العظم...». وقد أعاد ذكر هذا أيضاً في كتابه «أعمال الأعلام...»، ص ٣٣٤.

ثم إن محقق «الإحاطة...» الجزء الأول، ذكر في الحاشية رقم ٦ من الصفحة ٣٩٧، أن «في التاريخ الذي يورده ابن الخطيب للموقعة (وهو ٧١٩) بعض التحريف ويضع ابن خلدون تاريخ الموقعة في ٧١٨ وهو يوافق تاريخها الميلادي الواقع في مايو ١٣١٨». والحقيقة أن كلا المؤرخين ابن الخطيب وابن خلدون لم يجرقا شيئاً، إنما ذكر أولها تاريخ نهاية المعركة وذكر ثانيها تاريخ بدئها. ويمكن التأكد من هذا بمراجعة وصف المعركة لابن خلدون والتدقيق فيه =

المهجري	الميلادي	الحادث
٧٢٠	١٣٢٠	عقد الصلح بين قشتالة وغرناطة لمدة ثمانية أعوام ^(١) .
٧٢١	١٣٢١	عقد معاهدة سلم بين إسماعيل الأول وخايمي الثاني ملك أراغون ^(٢) .
١٧ ربيع الثاني	١٦ أيار	وفاة أبي الجيوش نصر ^(٣) .
٧٢٢	١٣٢٢	
ذو القعدة	تشرين الثاني	زحف إسماعيل الأول على بياسة ومحاصرتها وإجبارها على التسليم ^(٤) .
٧٢٤	١٣٢٤	
أوائل رجب	أواخر حزيران	زحف إسماعيل الأول على مرتش واستيلاؤه عليها عنوة ^(٥) .
٧٢٥	١٣٢٥	
١٠ رجب	٢١ حزيران	مقتل إسماعيل الأول على يد أحد أقربائه ومبايعه ابنه أبي عبد الله محمد الرابع ^(٦) .
٢٦ - ٢٧ رجب	٧ - ٨ تموز	

= (العبر..)، ٤ : ١٧٣ و ٧ : ٢٥٠). ملاحظة: إن معركة سنة ٧١٩ تسمى أيضاً بمعركة هضبة البيرة. (تراجع مجلة «الأندلس»، مجلد ٢٤، ص ٤٠٢).

(١) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٥.

(٢) Alarcón y Santón, M.A. y De Linares, R.G.: «D.A.D.A.C.A.» p. 33.

وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١١٩ و ١٢٠.

(٣) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢.

(٤) De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p. 173.

وقد ورد فيه: «ويقال إن إسماعيل استعمل في هجومه آلات تقذف كرات ملتهبة تنفجر عند ارتطامها بجدران الحصن وهذه هي المدافع». وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٢٠.

(٥) ابن الخطيب: «الإحاطة..» ١ : ٣٩٨ و ٣٩٩. وقد ورد فيه ما يأتي: «ونشر الحرب عليه ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة حديد محماة البرج المنيع من معقله، فاندفعت يتطايير شررها واستقرت بين محصوريه فعاثت عياث الصواعق السماوية، فألقى الله الرعب في قلوبهم».

(٦) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١ : ٤٠٢ و «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢ و «أعمال الأعلام..»، ص ٢٩٥ و «كناسة الدكان..»، ص ٢٠. وقد أورد القلقشندي في «مآثر الأنافة..»، ص ١٤٥ «أنه قتل سنة ٧٢٣هـ» وهو تحريف ظاهر.

المحدث	الميلادي	المهجري
تجديد معاهدة الصلح والصدقة بين محمد الرابع وخايي الثاني ملك أراغون بكامل نصوصها وشروطها ^(١) .	١٣٢٦	٧٢٦
وفاة خايي الثاني ومجيء الفونسو الرابع ^(٢) .	١٣٢٧	٧٢٧
مقتل الوزير ابن المحروق ^(٣) على يد محمد الرابع لاستثارة بالسلطة ^(٤) .	١٣٢٨	٧٢٩
توقيع معاهدة صلح بين الفونسو الحادي عشر ومحمد الرابع ^(٥) .	١٣٣١	٧٣١
وفاة أبي سعيد عثمان بن عبد الحق سلطان المغرب ومبايعة ابنه أبي الحسن علي ^(٦) .	١٣٣١	٧٣١
مولد عبد الرحمن بن خلدون بتونس ^(٧) .	١٣٣٢	٧٣٢
	٢٧ أيار	٢٥ ذي القعدة ٣٠ آب
		غرة رمضان

(١) Alarcón y Santón, M.A. y De Linares, R.G.: «D.A.D.A.C.A.» p. 55.

ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٥.

Ballester, Rafael: «Histoire d'Espagne», p. 108.

(٢)

Lomax, Derek W.: «The Reconquest of Spain», p. 163.

(٣) هو محمد بن أحمد بن المحروق. كان وكيل السلطان إسماعيل الأول. وبعد وفاة الأخير رقاها محمد الرابع إلى الوزارة والحجابة، فاستبد بالأمور واستأثر بكل سلطة فحقد عليه محمد الرابع وأمر بقتله فاغتيل في ثاني يوم من محرم فاتح ٧٢٩هـ/٦ تشرين الثاني ١٣٢٨. (ابن الخطيب: الإحاطة. ص ٥٤٥ وأعمال الأعلام. ص ٢٩٧ و ٢٩٨. وقد صحح محمد عبد الله عنان الخطأ الذي وقع فيه حين أورد في الحاشية رقم ٨ من الصفحة ٣٣١ من كتاب الإحاطة. ص ١٩٧ أن ابن المحروق قد توفي قتيلاً في سنة ١٢٧٨؟).

(٤) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام. ص ٢٩٧. والناصر السلاوي: «الاستقصا. ص ٥٩.

(٥) De MARLÈS, M.: «H.D.A.M.E.P.», p.p. 182 - 183.

ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٥.

(٦) ابن الأحمر: «روضة النسرین. ص ٢٣ و ٢٥. والذهبي: «ذبول العبر»، تحقيق: محمد رشاد عبد المطلب، مراجعة: د. صلاح الدين المنجد وعبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، سلسلة التراث العربي رقم ١٧، ص ١٦٨ و ١٧٠.

(٧) هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون. مؤرخ وفيلسوف اجتماعي من أعلام زمانه في =

المجري	الميلادي	الحديث
٧٣٣	١٣٣٣	مولد ابن زمرك في غرناطة ^(١) .
١٤ شوال	٢٨ حزيران	استعادة جبل طارق من يد القشتاليين بعد مرور أربع
٧٣٣	١٣٣٣	وعشرين سنة على سقوطه ^(٢) .
٧٣٣ ذو القعدة،	تموز- آب	معاهدة سلم لمدة أربع سنوات بين غرناطة وقشتالة ^(٣) .
ذو الحجة	آب	اغتيال محمد الرابع ومبايعه أخيه أبي الحجاج يوسف
٧٣٣	١٣٣٣	الأول ^(٤) .
١٣ - ١٤		
ذو الحجة	٢٥ - ٢٦ آب	تجديد معاهدة السلم والصداقة بين غرناطة وأراغون ^(٥) .
٧٣٤	١٣٣٣	
١٨ محرم	٢٩ أيلول	عقد معاهدة هدنة بين مملكتي غرناطة وقشتالة لمدة
٧٣٤	١٣٣٣	شهرين فقط أي حتى ١٥ كانون الأول ١٣٣٣/٦ ربيع
		الثاني ٧٣٤ ^(٦) .
٥ صفر	١٦ تشرين الأول	عقد اتفاقية سلم بين غرناطة والمغرب من جهة وقشتالة
٧٣٤	١٣٣٤	من جهة أخرى، تم التوقيع عليها في أوائل آذار
		١٣٣٤م/ أواخر جمادى الثانية ٧٣٤هـ ^(٧) .
٢٠ جمادى الثانية ٢٦ شباط		

- = الإدارة والسياسة والقضاء والأدب والعلوم. أصله من أشبيلية، ولد بتونس وتوفي بالقاهرة. صاحب «المقدمة» الشهيرة لكتاب «العبر...»، أرسى فيها أسس علم الاجتماع فكان الرائد الأول لهذا العلم. (منجد الأعلام، ص ١٠ ومعجم Petit Larousse، ص ١٤٢٥).
- (١) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ١٦٠. والتبكي: «نيل الابتهاج...»، ص ٢٨٢ و ٢٨٣. والعسقلاني: «الدرر الكامنة...» ص ٣١٤. والمقري: «نفح الطيب...»، ٧: ١٦٠.
- (٢) القلقشندي: «صبح الأعشى...»، ٥: ٢٦٢. والناصر السلاوي: «الاستقصا...»، ص ٥٩.
- (٣) ابن الخطيب: «كناسة الدكان...»، ص ١٦٢ و ١٦٣.
- (٤) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٥٤٩ و «اللمحة البدرية...»، ص ٢٢، و«كناسة الدكان...»، ص ٢٠ و ٢٤. والقلقشندي: «مآثر الأنافة...»، ص ١٤٥.
- (٥) مجلة «الأندلس»، مجلد ٢١، ص ٢٩١. ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٦.
- (٦) ابن الخطيب: «كناسة الدكان...»، ص ١٦٣ و ١٦٤.
- (٧) ابن الخطيب: «كناسة الدكان...»، ص ١٦١ و ١٦٢. ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٦.

المهجري	الميلادي	الحادث
٧٣٥	١٣٣٥	إبرام معاهدة صلح جديدة بين أراغون وغرناطة ^(١) .
أواخر ذي القعدة	تموز	
٧٣٦	١٣٣٦	وفاة الفونسو الرابع ملك أراغون وتولي ابنه بيدرو الرابع مكانه ^(٢) .
٧٣٩	١٣٣٩	مولد الغني بالله محمد الخامس ابن يوسف ^(٣) .
٧٤٠	١٣٣٩	توجه الجيش المغربي بقيادة الأمير أبي مالك ابن أبي الحسن إلى الأندلس وانضمامه على يد جيوش اسبانيا ^(٤) .
أواسطها	أواخرها	
٧٤٠	١٣٤٠	نشوب معركة بحرية بين أساطيل أبي الحسن سلطان المغرب وأساطيل النصارى، انتصر فيها المسلمون ^(٥) .
٦ شوال	٥ نيسان	
٧٤١	١٣٤٠	عبور أبي الحسن بنفسه إلى الأندلس للثأر من مقتل ولده ومحاصرته جزيرة طريف. انضمام يوسف الأول مع جنوده إليه ^(٦) .
٣ محرم	٢٩ حزيران	

(١) ابن الخطيب: «كناسة الدكان...»، ص ١٦٢ و ١٦٣

Alarcón y Santón;

M.A. y De Linares, (R.G.) «D.A.D.A.C.A.», p. 61.

وفي هذا المصدر الأخير خطأ مطبعي إذ ورد التاريخ الميلادي ١٣٣٣ وصحته ١٣٣٥.

(٢) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٧٧.

(٣) ابن الخطيب: ديوان «الصيب والجهام والماضي والكهام»، دراسة وتحقيق: د. محمد شريف قاهر، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م، ص

(٤) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٢٧.

(٥) ابن الخطيب: «كناسة الدكان...»، ص ٣٠ و ٣١.

«Journal Asiatique», série 9, tome 12, p. 437.

De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p.p. 202 - 203.

(٦) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٢٧.

«Journal asiatique», série 9, tome 12, p. 437.

De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p.p. 208 - 209.

Lomax, Derek W.: «The Reconquest of Spain», p. 167.

Watts, Henry E.: «Spain», London, 1893, p. 183.

= Read, Jean: «The Moors in Spain and Portugal» (M.S.P.), London, 1974, p. 194.

الميلادي	الهجري	الحادث
١٣٤٠	٧٤١	نشوب معركة عنيفة بين الفريقين وهزيمة المسلمين وفرار أبي الحسن مع فلوله إلى المغرب وارتداد يوسف الأول إلى غرناطة ^(١) .
١٣٤١	٧٤٢	أواسطها استيلاء ملك قشتالة على قلعة بني سعيد (أو قلعة يحصب) بعد حصار قصير ^(٢) .
١٣٤٢	٧٤٣	نشوب معركة بحرية هائلة بين الاسبان والمسلمين (بقيادة أبي الحسن) مُزق فيها أسطول المسلمين ^(٣) .
١٣٤٤	٧٤٤	سقوط الجزيرة الخضراء وطريف بأيدي الاسبان ^(٤) .
١٣٤٤	٧٤٤	إبرام معاهدة صلح لمدة عشر سنوات بين قشتالة وأراغون وغرناطة والمغرب ^(٥) .
١٣٤٨	٧٤٩	هزيمة السلطان أبي الحسن المريني في القيروان بتونس على يد ابنه أبي عنان الذي اغتصب عرش المغرب ^(٦) .

Palencia, Angel G.: «Historia de la Espana Muslamana» (H.E.M.), Barcelona, 1932, = p. 113.

ملاحظة: سُمي الاسبان هذه المعركة: معركة ريو سلا ولوقوعها على هذا النهر خارج طريف. ولكنها اشتهرت في الرواية الإسلامية باسم معركة طريف. وقد أطلق عليها ابن الخطيب لقب الواقعة العظمى (يراجع «أعمال الأعلام...»، ص ٣٠٥ و ٣٣٥) أو الواقعة الكبرى (يراجع «الكتيبة الكامنة...»، ص ٤٦ و ٤٧). وفيه أن الخطيب أبا القاسم محمد بن جزى الكلبي قد استشهد فيها.

(١) المصدر السابق.

(٢) الناصر السلاوي: «الاستقصا...»، ص ٦٧. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٢٨.

(٣) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٢٨.

(٤) ابن الخطيب: «كناسة الدكنان...»، ص ١٦٤. والناصر السلاوي: «الاستقصا...»، ص ٦٧. والقلقشندي: «صبح الأعشى...»، ص ٥: ٢٦٢. ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٦.

(٥) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٦ و ١٩٧. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٣٠.

(٦) ابن الخطيب: «كناسة الدكان...»، ص ١٦٥ و ١٦٧.

المهجري	الميلادي	الحدث
٧٤٩	١٣٤٨	اجتياح الوباء الكبير دول حوض البحر المتوسط ^(١) .
أواخر صفر	أواخر أيار	محاصرة جبل طارق من قبل القشتاليين ^(٢) .
٧٥٠	١٣٤٩	رفع الحصار عن جبل طارق بعد محاصرته عاماً وبعد تفشي الوباء في الجيش القشتالي ومهلك الفونسو الحادي عشر بالوباء وتولي ابنه بيدرو القاسي مكانه ^(٣) .
٧٥١	١٣٥٠	
أواسط محرم	أواخر آذار	

(١) بدأ هذا الطاعون انتشاره في أواخر صفر من عام ٧٤٩هـ / أواخر أيار ١٣٤٨م، وامتد إلى أواخر المحرم عام ٧٥٠هـ / منتصف نيسان ١٣٤٩م (يراجع الذهبي: «من ذبول العبر»، ص ٢٧٠). وأورد القلقشندي في «مآثر الأنافة...» أنه «في سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) كان الطاعون العظيم الذي عمّ أقطار الأرض وخرب أكثر البلاد، وخلت فيه الناس... وأقام دائراً في البلاد مدة سنتين وعم جميع الأقطار إلا المدينة المنورة». (ص ١٥٥ و ١٥٦). وقد توفي في غرناطة، بسبب هذا الوباء، كثير من سكانها أشهرهم: الوزير الشاعر الكبير أبو الحسن علي بن الجياب (٦٧٣-٧٤٩هـ / ١٢٧٤-١٣٤٩م) (يراجع المقرئ: «نفع الطيب...»، ٥: ٤٤٥ وابن الأحمر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٢٣٩ و«نثر الجمان...»، ص ١٢٥. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة...»، ص ١٨٣. وابن فرحون: «الدبياج المذهب...»، ص ٢٠٧). والشيخ أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف السكوني الأندلسي المعروف بابن لؤلؤة، وكان خطيباً بحصن قمارش (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) (يراجع المقرئ: «نفع الطيب...»، ٥: ٥١٦). والشاعر قاسم بن محمد بن محمد بن الجند الفهري المري (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) (يراجع المقرئ: «نفع الطيب...»، ٦: ٢٦١ و ٢٦٢). وقاضي غرناطة أبو جعفر أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن برطال (ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ١٧٧ و ١٧٩). والأديب أبو عثمان سعد بن ليون التجيبي من أهل ألمرية (يراجع التنكي: «نيل الابتهاج...»، ص ١٢٤). والقاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن منظور والقاضي الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر الهاشمي الطنجالي (النباهي: «المرقبة العليا...»، ص ١٥٤ و ١٥٥). والشاعر أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي (المقرئ: «نفع الطيب...»، ٣: ١٠٦). وقد أنشأ ابن الخطيب رسالة سماها «مقنعة السائل عن المرض الهائل» تحدث فيها عن هذا الطاعون الجارف وظروف ظهوره وانتشاره وأعراضه وسبل التحوط منه (يراجع «الإحاطة...»، ١: ٧٥). وكذلك أنشأ ابن خاتمة، شاعر ألمرية، رسالة بعنوان: «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد»، وصف فيها كيف عصفت هذا الوباء بثغر ألمرية. وتوجد هاتان الرسالتان في الأسكوريال برقم ١٧٨٥. (عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٣٠).

(٢) ابن الخطيب: «كناسة الدكان...»، ص ١٦٦.

(٣) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام...»، ص ٣٣٥ و«كناسة الدكان...»، ص ١٦٦ و ١٦٧. والنباهي: «المرقبة العليا...»، ص ١٥٦.

المهجري	الميلادي	الحادث
٧٥١	١٣٥٠	إبرام الهدنة بين المغرب وأراغون لمدة أربعة عشر شهراً ^(١) . وبداية الحرب الأهلية الكبرى بين الاسبان ^(٢) .
٧٥٢	١٣٥١	وفاة السلطان أبي الحسن علي بن عثمان ^(٣) .
٢٧ ربيع الأول	٢٣ حزيران	نشوب معركة بحرية بين السلطان أبي عنان وأخيه أبي الفضل المجهز بأسطول قشتالة وهزيمة الأخير ^(٤) .
٧٥٤	١٣٥٣	اغتيال السلطان يوسف الأول في أثناء صلاته بالمسجد الأعظم بيد مغبول ومبايعه ولده محمد الخامس الغني بالله ^(٥) .
أول شوال	١٩ تشرين الأول	قضاء محمد الخامس على تمرد عيسى بن الحسن ابن أبي مندبل حاكم جبل طارق المريني ^(٦) .
أواخرها	أواخرها	تجديد الصلح لمدة خمسة أعوام بين أراغون والمغرب وغرناطة ^(٧) .
٧٥٨	١٣٥٧	مقتل السلطان أبي عنان. قتله خنقاً وزيره الحسن بن عمر الفودودي ^(٨) .
٢٨ ذي الحجة	١ كانون الثاني	

(١) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧.

(٢) Watts, Henry E.: «Spain», p. 195.

(٣) ابن الأحمر: «روضة النسرين»، ص ٢٥. والقلقشندي: «مآثر الأنافة»، ص ١٦٥.

(٤) ابن الخطيب: «كناسة الدكان»، ص ٢٧.

«Journal asiatique»; série 9, tome 12, p. 437.

(٥) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام»، ص ٣٠٦ و«كناسة الدكان»، ص ٢٠ و١٦٨. وابن

خلدون: «العبر»، ص ٧: ٣٣٢. والناصر السلوي: «الاستقصا»، ص ٩٤.

والقلقشندي: «مآثر الأنافة»، ص ١٦٦ و«صبح الأعشى»، ص ٥: ٢٦٢.

(٦) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس»، ص ١٣٩.

De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p. 231.

(٧) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧.

(٨) الذهبي «ذبول العبر»، ص ٣٢٢. وابن الأحمر: «روضة النسرين»، ص ٢٧. =

المهجري	الميلادي	الحدث
٧٦٠	١٣٥٩	ارتقاء أبي سالم إبراهيم ابن أبي الحسن عرش المغرب ^(١) .
منتصف شعبان	١٢ تموز	
٧٦٠	١٣٥٩	نشوب ثورة في غرناطة - مقتل الحاجب رضوان - اعتقال ابن الخطيب - فرار محمد الخامس إلى وادي آش - مبايعة أخيه إسماعيل الثاني الذي كان معتقلاً ^(٢) .
رمضان	آب	
٧٦١	١٣٦٠	لجوء محمد الخامس مع وزيره ابن الخطيب إلى المغرب بعد وساطة السلطان أبي سالم ^(٣) .
٦ محرم	٢٨ تشرين الثاني	
٧٦١	١٣٦٠	مقتل إسماعيل الثاني وتولي قاتله محمد السادس مكانه ^(٤) .
٢٧ شعبان	١٣ تموز	
٧٦٢	١٣٦١	مصرع السلطان أبي سالم واستبداد الوزير عمر بن عبد الله بدولة المغرب ومبايعة أبي عمر تاشفين ابن أبي الحسن ^(٥) .
ذو القعدة	أيلول	

= والقلقشندي: «مآثر الأنافة...»، ص ١٦٥ و ١٦٦.

قام الوزير الحسن بن عمر الفودودي، بعد خنقه السلطان أبي عنان، ببيعة ابنه أبي زيان محمد، ثم رجع عنه في اليوم نفسه إلى أخيه السعيد أبي يحيى وقتله خنقاً. وظل السعيد أبو يحيى في الحكم حتى خلع يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٧٦٠هـ/ ٩ تموز ١٣٥٩م، وقتل غرقاً في البحر وله عشر سنين. وكانت دولته ٧ أشهر و ٢٠ يوماً. (ابن الأحمر: «روضة النسرین...»، ص ٢٩ و ٣٠).

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٣١٦. وابن الأحمر: «روضة النسرین...»، ص ٣٠ و ٣١. والقلقشندي: «مآثر الأنافة...»، ص ١٦٥ و ١٦٦.

Brémond, Général Edouard: «Berbères et Arabes», (B.A.), Paris, 1942, p. 380.

(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٢٢ و «الإحاطة...»، ١: ٣٨. و«نفاضة الجراب...»، ص ١٢. وابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٣٠٦. والقلقشندي: «مآثر الأنافة...»، ص ١٦٦ و «صبح الأعشى...»، ٥: ٢٦٣.

(٣) الناصر السلاوي: «الاستقصا...»، ص ١٠٥. وعن ابن الخطيب: «نهاية الأندلس...»، ص ١٤٠.

(٤) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٢٣ و «أعمال الأعلام...»، ص ٣٠٧.

(٥) ابن الأحمر: «روضة النسرین...»، ص ٣٠. وابن الخطيب: «الإحاطة...»، ١: ٤٢ و ٣١٧.

الميلادي	الهجري	الحادث
١٣٦١	٧٦٣	وفاة السلطان أبي عمر تاشفين ومبايعة ابن أخيه أبي زيان محمد ابن أبي عبد الرحمان ابن أبي الحسن ^(١) .
٢٠ كانون الأول	٢١ صفر	استرداد محمد الخامس عرش ملكه بعد قيام ثورة جديدة في غرناطة ومقتل محمد السادس (على يد ملك قشتالة في ٢ رجب ٧٦٣هـ/ ٢٧ نيسان ١٣٦٢) ^(٢) .
١٣٦٢	٧٦٣	إعادة ابن الخطيب إلى منصبه بعد عودته إلى غرناطة مستدعى وبرفقته أسرة السلطان محمد الخامس ^(٣) .
حزيران	أواخر شعبان	مقتل أبي زيان محمد ابن أبي عبد الرحمان ابن أبي الحسن ومبايعة عمه أبي فارس عبد العزيز ابن أبي الحسن ^(٤) .
١٣٦٦	٧٦٧	إبرام معاهدة صلح بين أراغون وغرناطة، شملت المغرب بمقتضى تفويض أبي فارس سلطان المغرب لمحمد الخامس ^(٥) .
٣٠ آب	٢٢ ذي الحجة	زحف محمد الخامس على بعض المدن والحصون القشتالية ومهاجمتها واسترداد بعضها وتدمير بعضها الآخر ^(٦) .
١٣٦٧-١٣٦٦	٧٦٨-٧٦٧	آذار
١٣٦٨	٧٦٩	

(١) ابن الأحمر: «روضة السرين...»، ص ٣١ و ٣٢.

(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ١١٧ و ١١٨ و «الإحاطة...»، ١: ٤٣ و ٢: ١٥ و «نفاضة الجراب...»، ص ١٧. وابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٣٣٤.

(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ٢: ١٥.

(٤) ابن الأحمر: «روضة السرين...»، ص ٣٢ و ٣٣.

(٥) Alarcón y Sanfón, M.A. y De Linares, (R.G.): «D.A.D.A.C.A.». p.p. 146 - 147.

ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٤٨.

(٦) ابن الأحمر: «نثر فرائد الجمان...»، ص ٢٧٣ - ٢٨٦.

تضمن هذا المصدر رسالة كتبها ابن الخطيب عن سلطانه الغني بالله إلى المستنصر بالله ملك =

المهجري	الميلادي	الحادث
٧٦٧-٧٦٨	١٣٦٦-١٣٦٧	خروج الكونت هنري دي ترانستمارا (القند) على سلطة أخيه غير الشرعي دون بيدرو القاسي - تحالف هنري مع شارل الخامس ملك فرنسا - فرار دون بيدرو واستغاثة بالأمر إدوارد ولي عهد إنجلترا - موقعة بين الفريقين في الثالث من نيسان سنة ١٣٦٧م/ ٢ شعبان ٧٦٨هـ، هزم فيها الكونت هنري واسترد بيدرو القاسي عرشه بمساعدة قوات غرناطية اشتركت إلى جانبه - تم نشوب معركة حاسمة بين الفريقين في «مُنْتِيل» سنة ١٣٦٨م/ ٧٦٩هـ وهزيمة بيدرو القاسي ومقتله وجلس هنري على العرش في أوائل ١٣٦٩م/ أواسط ٧٧٠هـ ^(١) .
٧٦٩-٧٧٠	١٣٦٨-١٣٦٩	إبرام معاهدة صلح جديدة بين أراغون وغرناطة، تشمل المغرب أيضاً ^(٢) .

= أفريقية وأطرابلس، يشكر له هديته، ويحدثه فيها عن هذه الانتصارات فيقول:

«فحركنا أولى الحركات... إلى حصن آش... فحولنا أبراجه المنيعة وأسواره، وكفنا عن العباد والبلاد أضراره، بعد أن استصفنا حصن السهلة جاره، ورحلنا منه بعد أن شحناه رابطة وحامية.. إلى مدينة برغة التي سدت بين القاعدة مالقة ورندة الطريق... فبسر الله فتحها وعجل منحها... وتبع هذه الأم بنات شهيرة... ثم أعملنا الحركة إلى مدينة أطرية... وحق بها الوليل، فأبيع منها الذمار وأخذها الدمار... وسلطت على هياكلها النار، واستولى على الآلاف العديدة من سبيها الأسار، وانتهى إلى أشبيلية الشكل المغار... وعدنا والأرض تموج سبياً... إلى غزو مدينة جيان... فاقترح سور الربيض الأعظم لحينه... ثم دخل البلد بعده غلاباً، وجلل قتلاً واستلاباً... أقمنا بها أياماً نعقر الأشجار ونستأصل بالتخريب الجوار... وهلك بمهلك هذه الأم بنات... شمل التخريب أسوارها وعجلت النار بوارها... ثم تحركنا بعدها حركة الفتح... وقصدنا مدينة أبدة وهي الكبرى من الاختين... ودخلت مدينتها عنوة السيف... ثم تأهبنا لغزو أم القرى... قرطبة... عبرنا نهرها... وضيقتا حصرها... وأقمنا بها أياماً... نرمي الأرواح بوارها... فولوا عائق المطر لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطن... فرأينا أن نروضها بالاجتثاث... فعم الاكتساح... جميع الأحواز... وانتهت القرى وهدت الحصون... وعدنا...».

تراجع هذه الرسالة أيضاً لدى القلقشندي في «صبح الأعشى»، ٦: ٥٣٦.

(١) أورد ابن الخطيب في «أعمال الأعلام»، ص ٣٣٥ و ٣٣٦ وصفاً مفصلاً لهذه المعارك. يراجع أيضاً القلقشندي: «صبح الأعشى»، ٥: ٢٦٩. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس»، ص ١٧٨.

(٢) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧.

المهجري	الميلادي	الحادث
٧٧٠ - ٧٧١	١٣٦٩ - ١٣٧٠	محاصرة محمد الخامس الجزيرة الخضراء حتى الاستسلام ومحاصرة قرمونة واقتحام مرشانة ^(١) .
٧٧٣	١٣٧١	فرار ابن الخطيب إلى المغرب ^(٢) .
٧٧٤	١٣٧٢	وفاة أبي فارس عبد العزيز ومبايعة ابنه السعيد أبي زيان محمد ^(٣) .
٧٧٦	١٣٧٤	٢٢ ربيع الآخر ٢١ تشرين الأول
٦ محرم	١٧ حزيران	خلع السلطان أبي زيان محمد ومبايعة أبي العباس أحمد ابن أبي سالم ابن أبي الحسن ^(٤) .
٧٧٦	١٣٧٤	مقتل ابن الخطيب في المغرب ^(٥) .
ربيع الأول، ربيع الثاني	آب - أيلول	
٧٧٨ - ٧٧٩	١٣٧٧	إبرام معاهدة صلح بين أراغون وغرناطة لمدة خمس سنوات ^(٦) .
٧٨٠ - ٧٨١	١٣٧٩	وفاة هنري الثاني ملك قشتالة ومجيء جان الأول ^(٧) .
٧٨٤	١٣٨٢	تجديد معاهدة الصلح بين أراغون وغرناطة لمدة خمس سنوات أخرى ^(٨) .

(١) الناصر السلاوي: «الاستقصا...»، ص ١٣١.

«Journal asiatique», série 9, tome 12, p. 443.

(٢) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام...»، ص ٣١٨. وابن خلدون: «العبر...»، ص ٣٣٥.

والناصر السلاوي: «الاستقصا...»، ص ١٣٢.

(٣) ابن الأحمر: «روضة النسرین...»، ص ٣٣.

(٤) نفسه، ص ٣٤.

(٥) عنان، محمد عبد الله: «لسان الدين بن الخطيب»، ص ١٦٩ و«نهاية الأندلس...»،

ص ١٤٦. و«إسبيريس»، مجلد ٢٣ ص ٢١٧ ومجلد ١٦، ص ١٧٣ و

(٦) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧.

(٧) De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p. 253.

ballester, Rafael: «Histoire d'Espagne», p. 101.

(٨) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧.

المهجري	الميلادي	الحدث
٧٨٦	١٣٨٤	خلع السلطان أبي العباس أحمد ومبايعة أبي فارس موسى ابن أبي عنان ^(١) .
٣٠ ربيع الأول	٢٢ أيار	٧٨٨
٧٨٨	١٣٨٦	وفاة السلطان أبي فارس موسى مسموماً ومبايعة أبي زيان محمد ابن أبي العباس ^(٢) .
٣ رمضان	٢٨ أيلول	٧٨٨
١٥ شوال	٩ تشرين الأول	٧٨٩
٧٨٩	١٣٨٧	مقتل الواثق بالله محمد بطنجة (في ٥ رمضان/ ١٩ أيلول) ومبايعة أبي العباس أحمد (في ٧ رمضان/ ٢١ أيلول) ^(٤) .
رمضان	أيلول	٧٨٩
٧٨٩	١٣٨٧	وفاة بيدرو الرابع ملك أراغون ومجيء خوان الأول ^(٥) .
٧٩٢	١٣٩٠	وفاة جان الأول ملك قشتالة ومجيء هنري الثالث ^(٦) .
٧٩٣	١٣٩١	وفاة محمد الخامس ومبايعة ولده أبي الحجاج يوسف الثاني ^(٧) .
١٠ صفر	١٧ كانون الثاني	

(١) ابن الأحمر: «روضة النسرين...»، ص ٣٤ و ٣٦.

(٢) نفسه، ص ٣٦ و ٣٧.

(٣) نفسه، ص ٣٧.

(٤) نفسه، ص ٣٧ و ٣٨.

(٥) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٧٨.

Brémon, Général Edouard: «Berbères et Arabes», p. 384.

(٦) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٧٤.

Brémon, Général Edouard: «Berbères et Arabes», p. 385.

(٧) القلقشندي: «مآثر الأناقة...»، ص ٢٠٢.

المهجري	الميلادي	الحدث
٧٩٤	١٣٩٢	وفاة أبي الحجاج يوسف الثاني ^(١) ومبايعة ولده محمد السابع ^(٢) .
١٦ ذي القعدة	٤ تشرين الأول	وفاة السلطان أبي العباس أحمد (في ٧ محرم/ ١٢ تشرين الثاني) ومبايعة أبي فارس عبد العزيز بن أحمد ابن أبي سالم (في ٩ محرم/ ١٤ تشرين الثاني) ^(٣) .
محرم	تشرين الثاني	مصرع ابن زمرك على يد محمد السابع ^(٤) .
٧٩٦	١٣٩٣	
أوائلها	أواخرها	

(١) هناك خلاف حول تاريخ وفاته وسببها. فبينما ذكر بعضهم أنه مات مسموماً قال آخرون إنه توفي بسبب المرض. وقد ذكر محمد عنان في «نهاية الأندلس...»، ص ١٥٠ أنه توفي في أوائل سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م. وذكر آخرون أن وفاته كانت سنة ١٣٩٥ ومن هؤلاء:

De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p. 262.

Brémond, Général Edouard: «Berbères et Arabes», p. 383.

Hamet, Ismaël: «Histoire du Magreb», Paris, 1923, p. 250.

Coppée, Henry: «History of the Conquest of Spain», Boston, 1881, p. 259.

(٢) القلقشندي: «صبح الأعشى...»، ٥: ٢٦٣. ومجلة «الأندلس»، مجلد ٢٤، ص ٤٠٨ ومجلد ٤٢، ص ٤٤٧.

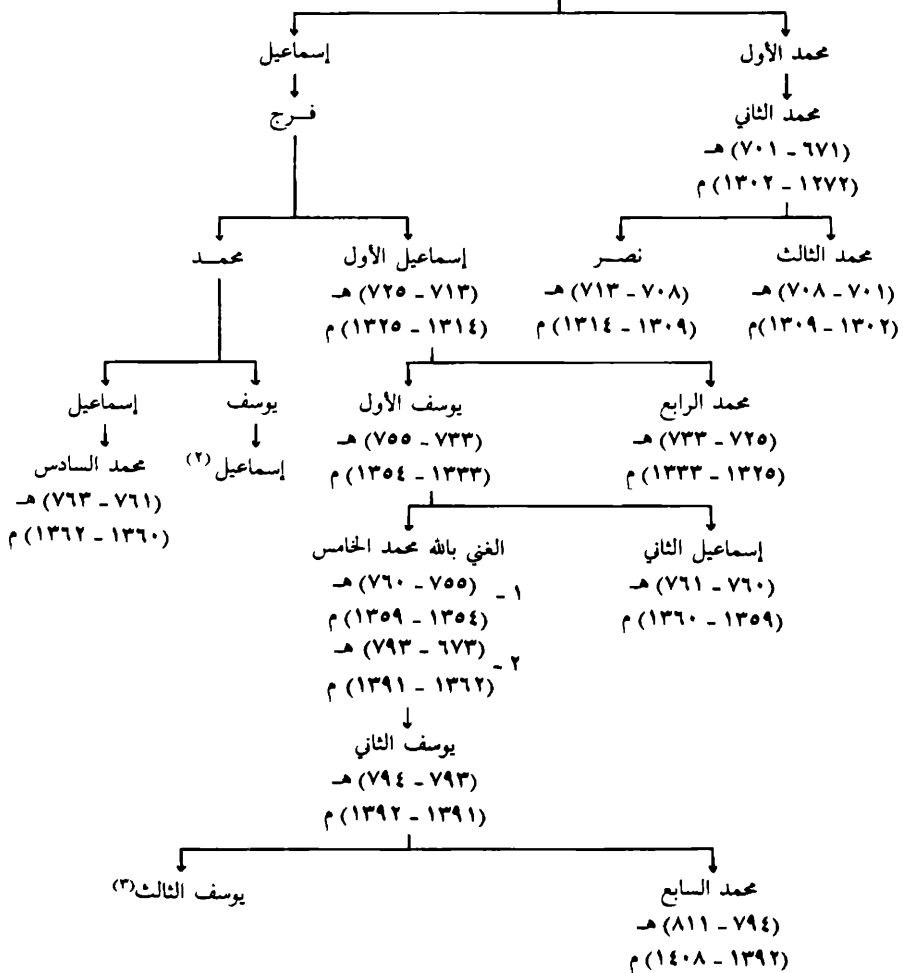
(٣) ابن الأحمر: «روضة النسرين...»، ص ٣٨ و ٣٩.

(٤) تراوح تاريخ وفاته في المصادر والمراجع بين سنتي ٧٩٠هـ و ٧٩٧هـ (١٣٨٨ - ١٣٩٤م). تراجع بهذا الشأن الصفحة ٩٦ وما بعدها من هذه الدراسة.

جدول رقم ٦ بأسماء سلاطين غرناطة^(١)

المتعاقبين منذ مطلع القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى نهايته

يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خيس بن نصر الخزرجي



(١) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية»، ص ٢٢ و ١١٧ و ١١٨ و «الإحاطة...»، ١: ٣٨ و ٤٣ و ٣٩٢ و ٤٠٢ و ٥٤٩ و ٥٦٠ و «أعمال الأعلام...»، ص ٢٩٥ و ٢٩٨ و ٣٠٦. ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٢٢٨ و ٣٠٦ و ٣٣٢ و ٣٣٤. والقلقشندي: «صبح الأعشى...»، ٥: ٢٦١ - ٢٦٣.

(٢) هو صاحب كتاب «نثر فرائد الجمان...» وكتب أخرى.

(٣) له ديوان مطبوع وهو صاحب كتاب «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك».

جدول رقم ٧

بأسماء السلاطين والملوك

المعاصرين لسلاطين غرناطة في كل من المغرب وقشتالة وأراغون

الهجري	الميلادي	غرناطة	المغرب	قشتالة	أراغون
٧٠١-٠٠	١٣٠٢-٠٠٠	محمد الثاني	يوسف بن يعقوب	فرناندو الرابع	خايمي الثاني
٧٠٨-٧٠١	١٣٠٩-١٣٠٢	محمد الثالث	يوسف بن يعقوب نعامر بن عبد الله سليمان بن عبد الله	فرناندو الرابع	خايمي الثاني
٧١٣-٧٠٨	١٣٠٩-١٣١٤	نصر	سليمان بن عبد الله عثمان بن يعقوب	فرناندو الرابع الفونسو ١١	خايمي الثاني
٧١٣-٧٢٥	١٣١٤-١٣٢٥	إسماعيل الأول	عثمان بن يعقوب	الفونسو ١١	خايمي الثاني
٧٢٥-٧٣٣	١٣٢٥-١٣٣٣	محمد الجابع	عثمان بن يعقوب علي بن عثمان	الفونسو ١١	خايمي الثاني
٧٣٣-٧٥٥	١٣٣٣-١٣٥٤	يوسف الأول	علي بن عثمان فارس بن علي	الفونسو ١١	الفونسو الرابع
٧٥٥-٧٦٠	١٣٥٤-١٣٥٩	الغني بالله محمد الخامس	فارس بن علي السعيد بن فارس إبراهيم بن علي	بيدرو القاسي	بيدرو الرابع
٧٦٠-٧٦١	١٣٥٩-١٣٦٠	إسماعيل الثاني	إبراهيم بن علي	بيدرو القاسي	بيدرو الرابع
٧٦١-٧٦٣	١٣٦٠-١٣٦٢	محمد السادس	إبراهيم بن علي تاشفين بن علي محمد ابن أبي عبد الرحمن	بيدرو القاسي	بيدرو الرابع
٧٦٣-٧٩٣	١٣٦٢-١٣٩١	الغني بالله محمد الخامس	محمد ابن أبي عبد الرحمن	بيدرو القاسي	بيدرو الرابع
			عبد العزيز بن علي محمد بن عبد العزيز أحمد بن إبراهيم موسى بن فارس	هنري الثاني خوان الأول هنري الثالث	خوان الأول

أراغون	قشتالة	المغرب	غرناطة	الميلادي	الهجري
		محمد بن أحمد محمد ابن أبي الفضل أحمد بن ابراهيم			
خوان الأول	هنري الثالث	أحمد بن ابراهيم	يوسف الثاني	١٣٩٢ - ١٣٩١	٧٩٤ - ٧٩٣
خوان الأول	هنري الثالث	أحمد بن ابراهيم عبد العزيز بن أحمد	محمد السابع	١٣٩٢ - ١٣٩١	٣٩٤ - ٣٩٣

وضع هذا الجدول بناء على المصادر والمراجع الآتية:

- ابن الخطيب: «اللمحة البدرية...»، ص ٢٢ و ١١٧ و ١١٨ و «الإحاطة...»، ١: ٣٨ و ٤٢ و ٤٣ و ٣١٦ و ٣١٧ و ٣٩٢ و ٤٠٢ و ٥٤٩ و ٥٦٠ و ٢: ١٥ و «أعمال الأعلام...»، ص ٢٩٥ و ٢٩٨ و ٣٠٦ و ٣٣٥ و ٣٣٦.

- ابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٢٢٨ و ٣٠٦ و ٣٣٢ و ٣٣٤.

- ابن الأحرار: «رضة التبرين...»، ص ٢١ - ٤٢.

- القلقشندي: «مآثر الأنافة...»، ص ١٣٢، ١٤٣ و ١٤٤ و ١٤٥ و ١٦٦ و ٢٠٢ و «صبح الأعشى...»، ٥: ٢٦١ - ٢٦٣ و ٢٦٨ - ٢٧٠.

- مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧ و ١٩٨.

- عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس...»، ص ١٢٧ - ١٣٣ و ١٧٢ - ١٨٠.

— Ballester, Rafael: «Histoire d'Espagne» p. 98 - 103.

— Brémond, Général Edouard: «Berbères et Arabes», p.p. 384 - 385.

— Lomax, Derek W.: «The Reconquest of Spain», p.p. 163 - 170.

— De marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p.p. 224 - 253.

— Palencia, Angel G.: «H.E.M.», p.p. 112 - 115.

فهرست الآيات القرآنية

الآية	السورة	رقم السورة	رقم الآية	الصفحة
- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ .	البقرة	٢	٢٣	١٧٤
- ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِيدِينَ دَرَجَةً﴾ .	النساء	٤	٩٥	٧٦
- ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ .	الأعراف	٧	٥٠	١٧١
- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .	الأعراف	٧	١٨٢	١٨٨
- ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .	يونس	١٠	٣٨	١٧٤
- ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ .	هود	١١	١٣	١٧٤
- ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ .	هود	١١	٤١	١٧٠
- ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ .	يوسف	١٢	٣١	٢١٠
- ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ .	إبراهيم	١٤	٣٤	١٧١
- ﴿إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ .	إبراهيم	١٤	٤٢	١٧٠
- ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ .	الحجر	١٥	١٨	١٧٢

الآية	السورة	رقم السورة	رقم الآية	الصفحة
- وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴿١٧٢﴾	النحل	١٦	٨	١٧٢
- وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴿١٧١﴾	النحل	١٦	١٨	١٧١
- ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿١٧٠﴾	الإسراء	١٧	٣٤	١٧٠
- ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴿١٧١﴾	الأنبياء	٢١	٣٠	١٧١
- مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴿٢١٠﴾	المؤمنون	٢٣	٢٤	٢١٠
- ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿١٧٢﴾	النور	٢٤	٣٥	١٧٢
- ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٧٦﴾	الشعراء	٢٦	٨٨	٧٦
- ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٦٣﴾	الشعراء	٢٦	٨٩	٦٣
- ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٦٣﴾	الشعراء	٢٦	٢٢٤	٦٣
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٦٣﴾	الشعراء	٢٦	٢٢٥	٦٣
- ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٣﴾	الشعراء	٢٦	٢٢٦	٦٣
- ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٦٣﴾	الشعراء	٢٦	٢٢٧	٦٣
- ﴿فَجَاءَتْ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴿١٧٢﴾	القصص	٢٨	٢٥	١٧٢
- ﴿كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ ﴿١٧٠﴾	فصلت	٤١	٣	١٧٠
- وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ ﴿٢١٠﴾	القمر	٥٤	٥٠	٢١٠
- ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَسِفْ مِنْ نُورِكُمْ ﴿١٧١﴾	الحديد	٥٧	١٣	١٧١
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنًا مَرْصُوصًا ﴿١١٥﴾	الصف	٦١	٤	١١٥
- ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴿١٧٣﴾	الصف	٦١	١٣	١٧٣
- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾	القلم	٦٨	٤	١٧٣
- ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَاذِبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٩﴾	القلم	٦٨	٤٤	١٨٩
- ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٧٣﴾	نوح	٧١	١٥	١٧٣
- ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿١٧١﴾	القدر	٩٧	٣	١٧١

فہرست الأعلام (*)

(الألف)

- آدم: ۱۶۱ - ۲۰۴.
 - إبراهيم بن زرزور: ۷۹.
 - إبراهيم بن محمد التنوخي: ۶۶.
 - أحمد بن محمد الكرني: ۸۰.
 - بنو الأحمر: (يراجع بنو نصر).
 - الأحمير المالقي، أبو الحسن علي: ۶۴.
 - ابن إدريس التجيبي المرسى أبو بحر صفوان: ۱۸۲.
 - إدوارد (ولي عهد انكلترا): ۲۶۰.
 - الأذفونش: ۷۹.
 - الأزدي، أبو محمد عبدالله: ۶۴ - ۶۹ - ۲۵۶.
 - أبو إسحق التنوخي: (يراجع إبراهيم بن محمد التنوخي).
 - إسماعيل الأول (سلطان غرناطة): ۴۵ - ۵۹ - ۶۰ - ۲۵۰ - ۲۵۱ - ۲۵۲ - ۲۶۴ - ۲۶۵.
 - إسماعيل الثاني (سلطان غرناطة): ۴۷ - ۸۹ - ۲۵۸ - ۲۶۴ - ۲۶۵.
 - إسماعيل بن يوسف بن محمد (صاحب «نثر الجمان...»): ۷ - ۶۰ - ۶۱ - ۶۳ - ۶۹ - ۷۴ - ۱۰۰ - ۲۳۹ - ۲۶۴.
 - الأصمعي: ۲۰۱.
 - الفونسو الحادي عشر (ملك قشتالة): ۴۵ - ۲۴۹ - ۲۵۰ - ۲۵۲ - ۲۵۶ - ۲۶۵.
 - الفونسو الرابع (ملك أراغون): ۲۵۲ - ۲۵۴.
 - أنيس، د. إبراهيم: ۱۸۲.
 - إياس: ۲۱۷.
 - إيزابيلا (ملكة أراغون): ۴۳.
 - باديس بن حيوس: ۲۴ - ۲۶.
 - الباء)

(*) ذكرت هؤلاء الأعلام متبعاً التسلسل الهجائي للأحرف الأولى مما اشتهروا به من أسماء أو ألقاب أو كنى بغض النظر عن كلمتي «ابن» و«أبي».

- ابن باصه، أبو جعفر أحمد بن حسن: ٧٨.
- ابن باصه، أبو علي حسن بن محمد: ٧٨.
- بالنشأ: ١٠ - ٢٤.
- البحري: ١٢ - ١٧٧ - ١٨٣.
- بدرو الرابع (ملك أراغون): ٢٥٤ - ٢٦٢ - ٢٦٥.
- بدرو (أو بطره) القاسي (ملك قشتالة): ٢٥٦ - ٢٦٠ - ٢٦٥.
- ابن برطال، أبو جعفر أحمد: ٦٨ - ٢٥٦.
- بروكلمان، كارل: ٩٧.
- بريمار، أ. ل.: ٦٠.
- ابن بسم (صاحب الذخيرة): ١١.
- بشار بن برد: ٢١٣ - ٢١٦.
- ابن بشكوال: ٦٥.
- ابن بقي: ٥٦.
- ابن بكر الأشعري، أبو عبدالله محمد: ٦٧ - ٦٨.
- أبو بكر المخزومي: ١٢.
- بلاشير، ريجيس: ٨ - ٨٣ - ٨٥ - ٩٧.
- ٩٨ - ١٤٧ - ١٤٨.
- البياني، أبو عبدالله: ٥٧.
- ابن بيبش العبدي، أبو عبدالله محمد: ٦٨ - ٨٧.
- بتبع: ١١٧.
- ترانستمارا (أسرة): ٤٩.
- ترانستمارا، القند هنري دي: ٢٦٠.
- ابن التلمساني، أبو الحسين: ٨٨.
- التلمساني الحسيني، أبو عبدالله: ٨٨.
- أبو تمام: ١٢ - ١٧٧ - ١٨٣ - ١٩٦ - ٢١٣ - ٢١٤ - ٢١٧.
- (الجيم)
- ابن جابر القيسي، إبراهيم: ٦٤.
- جان الأول (ملك قشتالة): ٢٦١ - ٢٦٢.
- ابن جزى، أبو بكر أحمد بن محمد: ٦٧.
- ابن جزى، أبو عبدالله محمد بن محمد: ٦١.
- ابن جزى، أبو القاسم محمد بن أحمد: ٦٦ - ٧١ - ٢٥٤.
- ابن جزى، أبو محمد عبدالله: ٥٧.
- جميل بشينة: ١٣٥ - ١٦٣ - ١٦٦.
- ابن الجياب، أبو الحسن علي: ٥٥ - ٥٦ - ٥٩ - ٦٩ - ٢٥٦.
- جيار، سوليداد: ٦١.
- (الحاء)
- حاتم: ٢١٧.
- ابن الحاج البلقيقي، أبو البركات: ٦٠ - ٦١ - ٦٩ - ٧٢ - ٨٧.
- ابن الحاج النميري، أبو إسحق: ٦٠ - ٦٨ - ٧٠ - ٨٤.
- حازم القرطاجني: ٧٠.
- الحبابي، أبو جعفر أحمد بن محمد: ٧٨.
- (التاء)

- ابن الخطيب، عبدالله بن لسان الدين: ١٣٣.

- ابن الخطيب، علي بن لسان الدين: ٨٥ - ١٠٠ - ١٠٢ - ١٠٤ - ١٧٨ - ١٨١.

- ابن الخطيب، لسان الدين:

٧ - ٨ - ١٣ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ -

٣٠ - ٤٠ - ٤٤ - ٤٧ - ٥٣ - ٥٦ -

٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ -

٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ -

٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٧ -

٨٨ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ -

٩٦ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٤ - ١٠٥ -

١٠٧ - ١٠٩ - ١١٥ - ١١٧ - ١١٨ -

١١٩ - ١٢٣ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٣٠ -

١٣٣ - ١٣٥ - ١٤٢ - ١٤٨ - ١٥٢ -

١٦٢ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ -

٢٠٤ - ٢١٧ - ٢٣١ - ٢٣٩ - ٢٤١ -

٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥٤ - ٢٥٦ - ٢٥٨ -

٢٥٩ - ٢٦١.

- ابن خفاجة: ١٢ - ١٥٢ - ١٧٥ - ١٧٦ -

١٧٧ - ١٨١ - ١٨٢ - ٢١٥ - ٢١٦ -

- ابن خلدون: ٥٨ - ٧٤ - ٧٨ - ٩١ -

٩٣ - ١١٥ - ١٢٣ - ١٣٣ - ١٣٥ -

١٤٨ - ١٨٩ - ٢١٥ - ٢٥٠ - ٢٥٢ -

- الخليل بن أحمد: ٢٠١.

- ابن خيس التلمساني، أبو عبدالله: ٦٤ -

٧٢ -

- الخنساء: ١٢.

- خوان الأول (ملك قشتالة): (يراجع

جان الأول).

- الحجاري (صاحب «المسهب»): ٢٢ -

٧٥ - ١٥٥.

- ابن حزم (صاحب «طوق الحمامة»):

١٠.

- ابن حسان الغافقي: ٦٤.

- ابن الحسن: ١٠٨.

- أبو الحسن الأركشي: ٧٩.

- الحسن الأنصاري، أبو علي: ٦٤.

- الحسن بن عمر الفودودي: ٢٥٧.

- ابن الحسن البني: (يراجع النباهي).

- الخطيئة: ٦٢.

- الحفار (الأستاذ): ٥٦.

- ابن الحكيم، أبو بكر: ٦٤.

- ابن الحكيم، الوزير أبو عبدالله: ٥٩ -

٧٢ - ٢٤٨.

- حمدونة بنت زياد المؤدب: ١٢.

- حميدان (الشيخ): ٧٩.

- ابن حيّان الغرناطي، أبو حيّان محمد:

٦٥ - ٦٦ - ٧٢ - ١١٦.

- حيّوس بن ماكسن: ٢٤.

(الخاء)

- ابن خاتمة الأنصاري، أبو جعفر أحمد:

٥٩ - ٦٩ - ٧٢ - ٢٥٦.

- خالد البلوى (صاحب الرحلة): ٦٨.

- خالد بن خالد: ٧٩.

- خايي الثاني (ملك أراغون): ٤٥ -

٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥١ - ٢٥٢ -

٢٦٥.

- الخزرج: ٣٢ - ٤٣.

- ابن الزيت الكلاعي: ٦٤ - ٧٠ - ٧٧ - ٨٤.
- ابن زيدون: ١٢.

(السين)

- سبحان وائل: ١٥٤ - ٢١٧.
- بنو سراج: ٣٩.
- سلمي، أحمد: ١٣٢.
- سليمان بن الربيع: ٢٤٧.
- ابن سناء الملك: ١٢٩ - ١٣١.
- سيويه: ٢٠١.
- سيكودي لوسينا: (يراجع لوسينا سيكودي).
- ابن سينا: ٦٠ - ٨٠.
- ابن سهل الإسرائيلي: ١٢٦ - ١٣١.
- السيوطي: ٧٢ - ١٣٢.

(الشين)

- شاتوبريان: ٢٥.
- شارل الخامس (ملك فرنسا): ٢٦٠.
- الشاطبي، أبو إسحق: ٥٦ - ٦١ - ٦٧ - ٦٨ - ٩٨ - ٩٩ - ١٨٧.
- شاك، فون: ٤٠.
- ابن شبرين، أبو بكر محمد: ٦٠.
- ابن الشَّراط المالقي، عبدالله بن محمد: ٦٤.
- الشريف الحسني، أبو القاسم: ٤٧ - ٦١ - ٧٢ - ٨٧ - ١٢٣ - ١٤٩.
- الشريف الرضي: ١٧٧.
- ابن شعيب الكرياني: ٧٩.

- خوان الأول (ملك أراغون): ٢٦٢ - ٢٦٦.

(الذال)

- دون بطره (الوصي على عرش قشتالة): ٤٥ - ٢٥٠.
- دون خوان (الوصي على عرش قشتالة): ٤٥ - ٢٥٠.
- دي فاللا، مانويل: ٢٤.

(الراء)

- ابن رَحْو: (يراجع مسعود بن رحو).
- رضوان، الحاجب أبو النعيم: ٤٧ - ٥٤ - ٢٥٨.
- ابن الرومي: ١٧٧.
- ريد، جان: ٢٤٠.
- رينو، الدكتور: ٧٩.

(الزاي)

- ابن الزبير الثقفي، أبو جعفر: ٦٥ - ٦٦ - ٨٤.
- الزجاجي: ٥٦.
- ابن زرزور، إبراهيم: (يراجع إبراهيم بن زرزور).
- الزركلي، خير الدين: ٩٦.
- زهير بن أبي سلمى: ٢٠٢ - ٢١٦.
- الزواوي، أبو علي منصور: ٥٧ - ٨٧.
- الزيت الأموي، أبو جعفر محمد: ٧٧ - ٨٧.

- ابن عبد الحق، أبو ثابت عامر: ٢٤٢ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو الحسن علي: ٤٦ - ٢٥٢ - ٢٥٥ - ٢٥٧ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو الربيع سليمان: ٢٤٢ - ٢٤٩ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو زيان محمد بن أحمد: ٢٦٢ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو زيان محمد ابن أبي عبد الرحمن بن علي: ٢٥٩ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو زيان محمد ابن أبي عنان فارس بن علي: ٢٥٧ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو زيان محمد ابن أبي فارس عبد العزيز بن علي: ٢٦١ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو زيان محمد ابن أبي الفضل بن علي: ٢٦٢ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو سالم إبراهيم: ٤٧ - ٨٨ - ١٣٣ - ١٦٠ - ٢١٧ - ٢٥٨ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو سعيد عثمان: ٢٥٢ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو العباس أحمد: ٧ - ٤٩ - ٩١ - ٩٤ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو عثمان بن يعقوب: ٢٤٩.

- ابن عبد الحق، أبو عمر تاشفين بن علي: ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٥.

- ابن عبد الحق، أبو عنان فارس بن

- ابن شقرال الطرسوني، محمد: ٦٦.
- ابن شهيد: ٢١٦.

(الصاد)

- ابن الصائغ اليهودي: ٧٩.
- الصعلعل: (يراجع ابن باصه، حسن).
- ابن صفوان، أبو جعفر أحمد: ٦٠ - ٧٢ - ٧٧ - ٧٩.
- ابن صفوان القيسي، محمد بن أحمد: ٧٧.
- الصنوبري: ١٢.

(الطاء)

- الطغرائي: ١٨٣.
- الطويجين الساحلي، أبو إسحق: ٦٢.

(الظاء)

- الظاهر (ملك مصر): ١١٦.

(العين)

- ابن عاصم، أبو بكر محمد بن محمد: ٩٥ - ٩٧.
- ابن أبي العافية، أبو القاسم الخضر: ٦٢.
- ابن أبي عامر: (يراجع المنصور).
- ابن عبادة، سعد: ٣٢ - ٤٣.
- عباس، د. إحسان: ٢١٤.
- عباس فوز: ١٦٣.
- ابن عبد الحق الجدلي، أبو جعفر: ٦٦.

- عناني، د. محمد زكريا: ١٢٧.
- عنترة: ١٥٣ - ٢٢٧.
- عياض بن موسى، أبو الفضل: ٥ - ٥٧.

(الغين)

- غالب الأندلسي: ١٢.
- غالب الشقوري: ٧٩.
- غرسيا - غومس، إميليو: ٩ - ٨٣ - ٨٥.
- ٩٧ - ٩٨ - ١٢٦ - ١٤٧ - ١٧٥ - ١٧٧ - ١٧٨ - ٢٤٠.
- غرسيا - لوركا، فريديريك: ٢٤.
- الغني بالله: (يراجع محمد الخامس).
- غوتيه، تيوفيل: ٢٤.

(الفاء)

- ابن الفخار الألبيري، أبو عبدالله محمد: ٥٧ - ٦٥ - ٨٧.
- ابن الفخار الجذامي الأركشي: ٦٥.
- فرج (غلام ابن زمرك): ١٠١ - ١٠٥.
- ابن فرحون، أبو الوفاء إبراهيم: ٦٩ - ٨٧.
- فرديناند (ملك قشتالة): ٤٥ - ٢٤٨ - ٢٤٩.
- ابن فركون، أبو جعفر أحمد بن محمد: ٦٧ - ١٠٢.
- فرناندو (ملك قشتالة الذي استرد غرناطة): ٤٣.

(القاف)

- القاضي، د. وداد: ٥٨.

- علي: ٢٥٥ - ٢٥٧ - ٢٦٥.
- ابن عبد الحق، أبو فارس عبد العزيز: ٩١ - ٩٤ - ٢٥٩ - ٢٦١ - ٢٦٣ - ٢٦٥.
- ابن عبد الحق، أبو فارس موسى: ٢٦٢ - ٢٦٥.
- ابن عبد الحق، أبو الفضل بن علي: ٢٥٧ - ٢٦٥.
- ابن عبد الحق، أبو مالك بن علي: ٢٥٤ - ٢٦٥.
- ابن عبد الحق، أبو يحيى السعيد ابن فارس بن علي: ٢٥٧ - ٢٦٥.
- ابن عبد الحق، أبو يعقوب يوسف: ٢٤٧ - ٢٦٥.
- ابن عبد الحق، أبو يوسف يعقوب: ٥١ - ٢٦٥.
- أبو عبدالله بن سالم: ٨٠.
- أبو عبدالله بن سراج: ٨٠.
- عبد المحسن الصوري: ١٧٧.
- ابن عبد النور، أبو جعفر أحمد: ٦٥ - ٨٠.
- عتيق بن مقدم، أبو بكر: ١٣٣.
- ابن العريف الغرناطي، محمد: ٦٤.
- ابن عطية المحاربي، أبو محمد: ٦٤ - ١٣٣.
- أبو العلاء المعري: (يراجع المعري).
- بنو أبي العلاء: ٤٦.
- عمر بن عبدالله (وزير المغرب): ٢٥٨ - ٢١٧.
- عنان، محمد عبدالله: ٢٧ - ٩٤ - ٩٧ - ٢٤١.

(الميم)

- المتنبّي: ١٢ - ١٥٢ - ١٧٧ - ٢١٣ - ٢١٨ - ٢٤٠.
- ابن المحروق: ٦٦ - ١٠٧ - ٢٥٢.
- محمد (رسول الله): ٦ - ٢٩ - ٣٠ - ١٣٢ - ١٣٤ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٩ - ١٥٠ - ١٦٨ - ١٦٩.
- محمد بن إبراهيم الحضرمي: ٧٢.
- محمد الأول، ابن يوسف بن محمد... ابن نصر (الشيخ المؤسس لمملكة غرناطة): ٢٦ - ٤٣ - ٤٥ - ٢٦٤.
- محمد الثالث، ابن محمد الثاني: ٤٠ - ٤٥ - ٥٣ - ٥٩ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٥٠ - ٢٦٤ - ٢٦٥.
- محمد الثاني، ابن محمد الأول: ٤٤ - ٥١ - ٥٣ - ٥٩ - ٦٠ - ٢٤٧ - ٢٦٤ - ٢٦٥.
- محمد الخامس، الغني بالله ابن يوسف الأول: ٧ - ٩ - ١٤ - ١٦ - ٢٦ - ٢٧ - ٣٠ - ٣٤ - ٣٨ - ٤٠ - ٤٦ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٣ - ٥٨ - ٥٩ - ٧٧ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٣ - ٩٥ - ١٠٦ - ١١٤ - ١٢٠ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٦ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٩ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٩٠ - ١٩٦ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣٣ - ٢٤١ - ٢٥٤ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٤ - ٢٦٥.

- قتادة: ١١.

- قحطان: ٢١٨.

- قس الأيادي: ١٥٤ - ٢١٧.

- ابن قطبة الدؤسي: ٦٢.

- القلماوي، سهير: ٩.

- القلنار، أبو علي حسن بن محمد: ٧٩.

- قيس ليل: ١٣٥ - ١٦٣ - ١٦٦.

(الكاف)

- ابن الكاس (وزير المغرب): ١٤٢.

- كراتشكوفسكي: ٢٤٠.

- الكرني: (يراجع أحمد بن محمد الكرني).

- الكرياني: (يراجع ابن شعيب الكرياني).

- كسرى: ١١٧.

(اللام)

- ابن لؤلؤة، أبو عبدالله محمد: ٢٥٦.

- ابن لب، أبو سعيد: ٥٦ - ٨٧.

- لسان الدين بن الخطيب: (يراجع ابن الخطيب).

- لقمان: ٢١٧.

- لوسينا، سيكودي: ٢٤.

- ابن اللّوشي اليحصبي، أبو عبدالله: ٦٠ - ٨٧.

- ليفي - بروفنسال: ٢٤ - ٤١ - ٢٤٠.

- ابن ليون التجيبي، أبو عثمان سعد: ٦٧.

- ابن أبي منديل، عيسى بن الحسن: ٤٧ - ٢٥٧.

- المنصور ابن أبي عامر: ٧٥.

- ابن منظور، أبو بكر محمد: ٦٧ - ٨٠ - ٢٥٦.

- ابن منظور، أبو عمر عثمان: ٦٧.

- أبو مهدي عيسى: ٨٧.

- ابن المهنا: ٨٠.

- مهيار الديلمي: ١٧٧.

- موسى، د. علي حلمي: ١٨٢.

(النون)

- النابغة: ٢٠١ - ٢١٦.

- النباهي، أبو الحسن علي: ٦٩ - ٧٥ - ٩٠ - ١٠١ - ١٠٨ - ١٠٩.

- نصار، د. حسين: ١٨٢.

- نصر بن قيس الخزرجي: ٤٣.

- ابن نصر، أبو الحجاج: ٢٤٧.

- ابن نصر، أبو الحسن (والد أبي عبدالله آخر ملوك بني نصر): ٤٠.

- ابن نصر، الأمير أبو عبدالله: ٣٦.

- ابن نصر، قيس (أخو محمد الخامس): ٤٧.

- ابن نصر، أبو الجيوش ابن محمد الثاني:

٤٥ - ٥٩ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١

٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٤.

- بنو نصر: ١٦ - ٢٤ - ٢٥ - ٣١ - ٤٠ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٦ - ٥١ - ٥٣ - ٥٦ - ٧٧.

- أبو نواس: ١٢ - ١٠٤ - ٢١٧.

- محمد الرابع، ابن يوسف الأول: ٤٥ - ٥٤ - ٥٩ - ٦٠ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٦٤ - ٢٦٥.

- محمد السابع، ابن يوسف الثاني: ٤٩ - ٥٩ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٢٦٦.

- محمد السادس، ابن إسماعيل بن محمد:

٤٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٤ - ٢٦٥.

- محمد الشقوري: ٧٩.

- ابن المرأة، أبو إسحق إبراهيم: ٧١.

- ابن مرزوق، أبو عبدالله: ٥٧ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ١٢٣.

- بنو مرين: ٤٥ - ٤٨ - ٥١ - ٢٤٨.

- المستنصر بالله (ملك إفريقية): ٢٥٩.

- مسعود بن رحو: ١١٦.

- مصباح: ١٠٢.

- المصحفي: ٧٩.

- ابن المعتز: ١٩٦.

- المعري: ١٢ - ١٥٤ - ١٧٧ - ١٨٤.

- مفتاح، محمد: ١٦٨.

- المقرئ (صاحب «نفع الطيب»): ٥ - ٦ - ٧ - ١٤ - ١٦ - ٢٩ - ٣٤ - ٧١ - ٧٥ - ٩٧ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٩ - ١١٤ - ١٢٦ - ١٣٥ - ١٥٥ - ١٧٨ - ١٨٢ - ٢٤٠.

- المقرئ، أبو عبدالله (جدّ صاحب «نفع الطيب»): ٨٧.

- كي، د. الطاهر أحمد: ٢٨.

- المنتشاقري الجذامي، أبو عبدالله: ٦٢ - ٧١.

(الهاء)

- الهاشمي الطنجالي، أبو عبدالله محمد: ٢٥٦.
- ابن هانء الأندلسي: ١٢.
- ابن هانء اللخمي، أبو عبدالله محمد: ٦٦.
- ابن هذيل، أبو زكريا: ٥٦ - ٦٠ - ٧٢ - ٧٤ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠.
- ابن هشام: ٦٥ - ١١٦.
- هنري الثالث (ملك قشتالة): ٢٦٢ - ٢٦٦.
- هنري الثاني (ملك قشتالة): ٢٦١ - ٢٦٥.
- هوغو، فكتور: ٤١.

(الواو)

- واشنطن، إيرفنج: ٢٤.
- ابن وكيع: ١٣٠ - ١٩٦.

(الياء)

- يحيى بن الصائغ اليهودي: (يراجع ابن الصائغ).
- ابن يشت، أبو سلطان عبد العزيز: ١٣٣.
- يوسف بن محمد... ابن نصر: ٢٦٤.
- يوسف الأول، ابن إسماعيل: ٧ - ١٦ - ٢٦ - ٤٦ - ٤٩ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٨ - ٥٩ - ٦١ - ٧٧ - ٧٩ - ٨٧ - ٨٨ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٧ - ٢٦٤ - ٢٦٥.
- يوسف الثالث، ابن يوسف الثاني (صاحب «البقية والمدرك...»): ٦ - ١٤ - ١٦ - ٨٤ - ٨٧ - ٨٩ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٩ - ١٠٩ - ١١٤ - ١٣٥ - ٢٣٩ - ٢٦٤.
- يوسف الثاني، ابن محمد الخامس: ٦ - ٤٩ - ٥٩ - ٨٠ - ٩٥ - ٩٧ - ١٢٤ - ١٤٩ - ١٥٠ - ٢٠٤ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٢٦٦.

فهرست البلدان والأماكن

٥٦ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٧١ - ٧٤ -
 ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٨٦ - ٨٩ - ٩١ -
 ٩٥ - ١٠٢ - ١٢٦ - ١٤٤ - ١٥٤ -
 ١٦٨ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ٢١٤ -
 ٢٤٠ - ٢٥٤ .

- انكلترا: ٢٦٠ .
 - إيبيريا: ١٠ .

(البناء)

- باب الرملة: ٢٤ .
 - باب الفخارين: ٢٤ .
 - باجه: ٦٩ .
 - باغة: ٢٥٨ .
 - البحر المتوسط: ٢٥٦ .
 - برجه: ٢٢ - ٦٢ - ٦٧ .
 - برشانة: ٢٢ .
 - برغة: ٤٨ - ٢٥٩ .
 - بسطة: ٢٢ .
 - بطرنة: ٤٨ .
 - بلّش: ٢٢ - ٦٤ - ٦٦ - ٧٠ - ٢٥٥ .
 - بيّاسة: ٢٣ - ٢٥١ .

(الألف)

- أبده: ٤٨ - ٢٥٩ .
 - أراغون: ٤٤ - ٤٦ - ٥٠ - ٢٤٧ -
 ٢٤٨ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ -
 ٢٥٥ - ٢٥٧ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ -
 ٢٦٢ .
 - إسبانيا: ٢١ - ٢٤ - ٣٠ - ٤٦ - ٤٩ -
 ٥١ - ٢٥٤ .
 - الأسكوريال: ٢٥٦ .
 - إشبيلية: ٤٨ - ٧٩ - ٢٥٢ .
 - أطرابلس: ٢٥٩ .
 - أطريرة: ٤٨ - ٢٥٩ .
 - أفريقية: ٢٥٩ .
 - أكشونه: ٦٢ .
 - ألبيرة: ٢١ - ٢٤ - ٤٥ .
 - ألمرية: ٢٢ - ٥٩ - ٦٧ - ٦٩ - ٩٥ -
 ١٤٠ - ٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٥٦ .
 - أندرش: ٢٢ - ٦٧ .
 - الأندلس: ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٤ - ٢١ -
 ٢٢ - ٤٤ - ٤٧ - ٤٨ - ٥٠ - ٥١ -

(التاء)

- تلمسان: ٥ - ٥٧ - ٨٨.
- تونس: ٢٥٢ - ٢٥٥.

(الجيم)

- الجامع الأعظم: (يراجع المسجد الأعظم).
- جبل طارق (أو جبل الفتاح): ٢٢ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٥١ - ٩١ - ٢٤٩ - ٢٥٣ - ٢٥٦ - ٢٥٧.
- الجزيرة الخضراء: ٢٢ - ٢٦ - ٢٧ - ٣٠ - ٤٨ - ٥١ - ٢٤٩ - ٢٥٥ - ٢٦١.
- جنة العريف: ٢٢ - ٢٤ - ١٥٧.
- جنة ابن عمران: ٢٢.
- جيان: ٤٨ - ٢٥٩.
- جيرة: ٤٨.

(الحاء)

- الحجاز: ١٣٦ - ١٩٤.
- حدره: ٢٣ - ٢٦ - ٤٨.
- الحرم الشريف: ١٣٦.
- حصن آش: ٢٥٩.
- حصن أشر: ٤٨.
- حصن السهلة: ٤٨ - ٢٥٩.
- حصن قمارش: ٢٥٦.
- حصن المدور: ٢٥٧.
- الحمراء: ٩ - ١٦ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٣٠ - ٣٤ - ٣٨ - ٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٥ - ٤٨ - ٨٠ - ١٠٩ - ١٢٣ - ١٥٦ - ١٦٧.

(الخاء)

- الخيف: ١٦٣.

.

(الدال)

- الدشار: ٤١.
- دمشق: ٢٢.

(الراء)

- ربح البيازين: ٢٣ - ٨٥.
- رنلة: ٢٢ - ٩٠ - ٢٥٩.
- ريو سالادو: ٤٦ - ٢٥٤.

(الزاي)

- الزاب: ٦٠.

(السين)

- سبتة: ٤٥ - ٤٩ - ٩١ - ٢٤٧ - ٢٤٨.
- السيكة: ٢٢ - ٢٣ - ٢٥ - ٤١ - ١٥٧.

- سلا: ٨٩.

- سنجيل: (يراجع شنيل).
- السودان: ٦٢.

(الشين)

- الشام: ١١ - ١٢.
- شامة: ١٣٦ - ٢٠٨.
- شلب: ٦٢.
- شلوبانية: ٢٢.
- شلير: ٢٣.

- شَئِيل: ٢٣ - ٢٤ - ١٥٧.

(الطاء)

- طريف: ٢٢ - ٤٦ - ٥١ - ٦٦ - ٢٥٤ - ٢٥٥.

- طفيل: ١٣٦ - ٢٠٨.

- طليطلة: ٢١.

- طنجة: ٢٤٨ - ٢٦٢.

(العين)

- العراق: ١١.

- العقيق: ١٣٦.

(الغين)

- غرناطة: ٧ - ١٥ - ٢١ - ٢٣ - ٢٤ -

- ٢٥ - ٢٦ - ٣١ - ٤٠ - ٤٢ - ٤٣ -

- ٤٤ - ٤٦ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ -

- ٥٣ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٨ - ٦٠ - ٦٣ -

- ٦٤ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٧٢ - ٧٣ -

- ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ -

- ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٩ - ٩٠ - ٩٣ -

- ٩٤ - ٩٩ - ١٠١ - ١١٤ - ١٣٣ -

- ١٤٤ - ١٥٥ - ١٥٧ - ١٦٨ - ٢١٥ -

- ٢٤١ - ٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ -

- ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ -

- ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢.

- الغوطة: ٢٢.

(الفاء)

- فاس: ٥ - ٤٩ - ٨٧ - ٨٩ - ٩٢.

- فحص غرناطة: ٢٤.

- فرنسا: ٢٦٠.

- فناء الأسود: ٣٨ - ٣٩.

- فناء الريحان: ٢٦.

(القاف)

- قاعة الأختين: ٣٤ - ٣٨ - ٣٩.

- قاعة بني سراج: ٣٩.

- قاعة السفراء (أو قاعة قمارش): ٣١.

- قاعة الملوك (أو قاعة العدل): ٣٩.

- القاهرة: ٢٥٢.

- قرطبة: ٢٢ - ٢٥٩.

- قرمونة: ٢٦١.

- قسنطينة: ٦٠.

- قشتالة: ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٩ - ٥٠ -

- ٥٨ - ٧٩ - ٩٣ - ١٣٥ - ٢٤٨ - ٢٤٩

- ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٣ - ٢٥٥ - ٢٥٧

- ٢٥٩ - ٢٦١.

- القصبة: ٢٣ - ٢٤ - ١٢٠.

- قلعة يحصب (أو قلعة بني سعيد):

٢٥٥.

- قنتورية: ٦٨.

(اللام)

- لوشة: ٢٢ - ٢٤٩.

(الميم)

- المارستان الأعظم: ٤٨.

- مالقة: ٢٢ - ٦٠ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ -

- ٨٠ - ٧٩ - ٧٨ - ٧٦ - ٧٥ - ٦٦
 - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٤ - ١٠١ - ١١٦
 - ٢٤٧ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٥٧
 - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ .
 - منتشاقر: ٦٢ .
 - متيل: ٢٦٠ .
 - منظره ليندراخا: ٣٩ .
 - المنكب: ٢٢ - ١٢٠ - ١٤٠ - ٢٤٨ .

(الواو)

- وادي آش: ٢٢ - ٢٣ - ٤٧ - ٦٧ -
 ١٣٣ .
 - وادي فرتونة: ٢٥٠ .

- ٦٨ - ٧٠ - ٧٩ - ٩٦ - ٩٩ - ١٥٩
 ٢٥٩ .
 - مدرج نجد: ٢٢ .
 - المدينة المنورة: ١٣٦ - ٢٥٦ .
 - مرتش: ٢٥١ .
 - مرشانة: ٢٦١ .
 - المسجد الأعظم: ٢٣ - ٤٠ - ٤٥ - ٦٦
 - ٦٨ - ٧٨ - ٩٦ - ١٣٣ - ٢٥٧ .
 - المشرق: ١١ - ٦٥ - ٦٦ - ١٦٨ -
 ٢١٤ .
 - المشور الأسنى: ٣٠ - ١٣٤ .
 - مصر: ٥ - ١١٦ .
 - المغرب: ٦ - ٨ - ١٢ - ١٤ - ٤٥ -
 ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥٦ .

فهرست الأشعار

أولاً: أشعار ابن زمرك

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
١ - الأبيات			
الهمزة			
يَا سَائِلِي ...	الإحياء	الكامل	١ ١٠٣ و ١٦٢
وَكَفَاكَ ...	الإسراء	الكامل	١ ١٣٩
وَاهُنَّا ...	عطاء	الكامل	٥ ١٥٦
فَأَفْسَحْ ...	استحياء	الكامل	١ ١٧٢
يَا مُظْهِرَ ...	الأضواء	الكامل	١ ١٨٦
ظِلُّ الْإِلَهِ ...	الخلفاء	الكامل	٣ ١٩٠
أُبْكِي ...	بكاء	الكامل	١ ١٩٣
كَالزَّهْرِ ...	لآلء	الكامل	١ ١٩٥
كَالدَّهْرِ ...	رخاء	الكامل	٣ ١٩٨
أَطْوِي ...	الإمساء	الكامل	١ ٢٢٢

(الباء)

إِلَى أَنْ بَدَأَ ..	بِغُرُوبِ	الطويل	١ ١٩٦
شَمَائِلُهُ ...	قُلُوبِ	الطويل	١ ٢٣٣

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
أَفِيضُوا ...	الطويل	١	١٧١
وَقُلْتُ ...	الطويل	٢	٢٢٢ و ٢٢٣
يَذْكُرُنِي ...	الطويل	١	١٦٣
وَحَقَّقْ ...	الطويل	١	٢٠٤
لَقَدْ عَلِمَ ...	المتقارب	١	١٥٣

(الناء)

كَتَبَ الْإِلَٰهَ ...	المؤقتا	الكامل	٤	١٨٤
-----------------------	---------	--------	---	-----

(الجيم)

كَسَوَهُ ...	سَجَسَجَا	الطويل	١	١٨٩
--------------	-----------	--------	---	-----

(الحاء)

كَابُنْ نَصِرَ ...	السَّمَا حِ	الخفيف	٢	١٩٦
إِنْ رُدَّتْ ...	نَحَا	البيسط	١	١٣٩ و ٢٠٧
أَتْنِي ...	مَدَحَا	البيسط	١	١٣٩ و ١٧٣
صَلَّى ...	الْتَمَحَا	البيسط	١	١٣٩
أَنْتَ ...	فَدَحَا	البيسط	١	١٧٠
وَلَا أَدْرُتُ ...	مُضْطَبِحَا	البيسط	١	١٩٣
حَيْثُ الضَّرِيحُ ...	نَجَحَا	البيسط	١	٢٠٣
مَا يُنْكِرُ ...	مُطَرَحَا	البيسط	١	٢٠٧
هَذَا الصَّبَاحُ ...	ضَحَى	البيسط	٣	٢٢٢
مَوْلَايَ ...	الْقَرَحَا	البيسط	٢	٢٢٦

(الدال)

الْأَيْتَمِي ...	مَوْلَدِي	الطويل	١	١٠٣ و ١٥٣
------------------	-----------	--------	---	-----------

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	القافية
١١٦	١	الطويل	سَلُّوا ...
١٤٥	٢	الطويل	وَفَتَحَ ...
١٤٨ و ١٤٩	٢	الطويل	مُحَيَّاكَ ...
١٥٠	١	الطويل	صَرِيحَ ...
١٦٣	١	الطويل	فَهَلْ عِنْدَ ...
١٦٤	٤	الطويل	وَكَمْ صَارِمٍ ...
١٦٥	١	الطويل	وَأَيْسَ ...
١٦٦	١	الطويل	تَجَاوَزْتُ ...
١٨٩	١	الطويل	وَأَنِّي بِبَابِ ...
١٩٢	١	الطويل	أَعِنْدَكَ ...
٢٠٧	١	الطويل	سَبِيلَكَ ...
٢١١	١	الطويل	خُذُوا ...
٢٢٢	١	الطويل	وَمَنْ نَامَ ...
٢٢٣	١	الطويل	رَعَى اللَّهَ ...
٢٣٣	١	الطويل	بَرَاهَا ...
٢٣٣	١	الطويل	رَكِبْنَا ...
١٩٣	١	الطويل	وَلَا عَيْبَ ...
١٩٥	١	الطويل	يُقَيِّدُ ...
٢٣٢	١	الطويل	فَأَنشَأَ ...
٣٢	٥	مجزوء الرمل	أَنَا مُحْرَبٌ ...
٣٢	٣	مجزوء الرمل	أَيُّ قَوْسٍ ...

(الراء)

١٠٤	١	الكامل	هَذَا ...
١٤٢ و ١٩٠	١	الكامل	حَيَّاكَ ...

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
عَارٌ . . .	الكامل	١	١٤٣
لَكِنْ . . .	الكامل	٢	١٤٣
مِنْ كُلِّ . . .	الكامل	٢	١٤٣
مِنْ كُلِّ . . .	الكامل	٢	١٤٤
وَالْيَكْهَ . . .	الكامل	١	١٤٤
أَوْ أَشْعَلِ . . .	الكامل	١	١٤٦
إِنْ مَسَّهُمْ . . .	الكامل	١	١٤٧
أَصْبَحَتْ . . .	الكامل	١	١٤٧
عَلِمْتُ . . .	الكامل	١	١٤٧
فَارَقِعْ . . .	الكامل	١	١٤٧
وَتَمِيلُ . . .	الكامل	١	١٤٧ و ١٥٤
فَأَقْضَتْ . . .	الكامل	١	١٤٨
وَارْتَاعَ . . .	الكامل	١	١٥٦
وَأَتْنَكُ . . .	الكامل	٩	١٦٠
بِاللَّهِ . . .	الكامل	١	١٦٣
تَاهَتْ . . .	الكامل	١	١٨٨
وَأَعَاذَ . . .	الكامل	٦	١٩٠
هِيَ نَفْحَةٌ . . .	الكامل	٢	٢٠٥
قَدْ لَأَتْ . . .	الكامل	١	٢٠٧
يَفْتِكُنْ . . .	الكامل	١	٢١٠
قَدْ زَارَكَ . . .	الكامل	١	٢١١
وَسَرَتْ . . .	الكامل	١	٢٢٥
مَا صَدُّقُوا . . .	الكامل	١	٢٢٦
وَالْهَادِيَاتُ . . .	الكامل	٣	٢٢٩
وَلَرُبَّ رَوْضٍ . . .	الكامل	٢	٢٣١
بَاكَرْتُهُ . . .	الكامل	٢	٢٣١

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
وَعَلَى الْكَثِيبِ ... بِالْأَفْكَارِ	الكامل	١	٢٣٢
لَا يُحَرِّزُ ... الْأَخْطَارِ	الكامل	١	٢٣٤
نَتَجَشَّمُ ... بِالْأَفْكَارِ	الكامل	١	٢٣٤
أَحَافِدُ ... غَيْرِ	الطويل	٤	١٠٨
إِذَا احْتَفَلَ ... حَجَرِ	الطويل	١	٢٠٩
وَسَوْغَتْنِي ... قَدْرِي	الطويل	١	٢١٠
لَكَ الْقَلَمُ ... السُّمْرِ	الطويل	١	٢١٧
تَمُدُّ ... التَّبْرِ	الطويل	٣	٢٢٣
تُقَلِّدُ ... نَشْرِ	الطويل	٣	٢٣١
وَلَدَ الْفَقْرُ ... افْتِقَارِ	الخفيف	١	١٠٧ و ١٩٣
وَكَمْ بَتُ ... سَفِيرِ	الطويل	٢	١٠٣
سَرَيْنَا ... الْفَجْرِ	الطويل	١	٢٢٤
قُمْ هَاتِهَا ... قَمَرِ	الكامل	٧	١٦١
عَجَبًا ... سَفَرِ	الكامل	٣	١٦٤
يَا ابْنَ الْذِينَ ... الْقَدَرِ	الكامل	١	١٩٤
دُو سَطْوَةٍ ... قَدِرِ	الكامل	١	٢٠٦
هِيَ نُسْحَةٌ ... الْكِبَرِ	الكامل	١	٢٠٨
لَا زِلْتُ ... نَظَرِ	الكامل	١	٢١١
إِنَّ الْمُلُوكَ ... قَمَرِ	الكامل	١	٢١٦
سُكَّرُ النَّدَامَى ... نَظَرِ	الكامل	١	٢١٧
جَسَّ ... الْوَرَرِ	الكامل	١	٢٢٤
وَرَوَى ... مَطَرِ	الكامل	٢	٢٢٩
وَابْلُلُ ... خَطَرِ	الكامل	٢	٢٣١

(السين)

أَدْرَهَا ...	مَجْلِسِ	الطويل	٢	١٦٦
---------------	----------	--------	---	-----

القفية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
أَنَا مُنْشِدٌ ...	بَاسِ	مجزوء الكامل ١	١٩٦
فَيَا لَهُ ...	لَبَّاسِ	مجزوء الكامل ١	٢٠٣
وَكَاَنَّ الرِّيَاضَ ...	الطُّرُوسِ	الخفيف ١	٢٠٣

(العين)

أَرَادَ ...	مُمَنِّعٌ	الطويل ١	١٧٢
وَمَسْرَى ...	نُزُوعُهَا	الطويل ٢	٢٣٠

(الفاء)

عَزَاءٌ ...	يُشْرِفُ	الطويل ١	١٥٠
فَإِنْ كَعَتِ ...	الْمُطَرَّفُ	الطويل ١	١٨٩
وَإِنْ طَوَتْ ...	الْمُقَوِّفُ	الطويل ١	١٩٢
وَلَا عَيْبَ ...	يَرْعَفُ	الطويل ١	١٩٣
لَيْتَنِ غَرَبَ ...	يُوسُفُ	الطويل ١	٢٠٤
وَيَأْسَفُ ...	يَقْذِفُ	الطويل ١	٢٠٨
حُسَامُكَ ...	يُنْطَفُ	الطويل ٤	٢٢٦
لَقَدْ زَادَنِي ...	الْتَفَا	الطويل ٧	١٦١ و ١٦٢

(القاف)

أَغْرَى ...	الْأَفَاقِ	الكامل ١	٢٥٠
فُجِعَ ...	الْأَخْلَاقِ	الكامل ٤	١٥٠
مَنْ تَحْسُدُ ...	بِطَبَاقِ	الكامل ١	١٧٣
كَالزُّهْرِ ...	الْإِبْرَاقِ	الكامل ١	١٩٥
إِنْ يَحْمِلُوكَ ...	الْأَحْدَاقِ	الكامل ٢	٢٠٧

(اللام)

أَنَا مَحَلَّةٌ ...	كَمَالِ	مجزوء الرمل ٥	٣١
---------------------	---------	---------------	----

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	القافية
٣٤	٣	مجزوء الرمل	أَنَا تَاجٌ ... جَمَالِ
١٠٥	٢	السريع	يَا فَرَجاً ... لِتَعْلِيلِهِ
١٦٥	١	الكامل	هِيَ شَيْعَةٌ ... بِالسَّالِي
١٦٦	١	الكامل	هَذَا ... حِبَالِي
١٦٧	٥	الكامل	مَا لِلْحُمُولِ ... الْحَالِي
١٨٦	١	الكامل	حَيْثُ الْوُجُوهُ ... مُزَالِ
١٨٦	١	الكامل	قَدْ عَوَّدُوا ... الْأَبْطَالِ
١٨٦	١	الكامل	هُوَ مُظْهِرٌ ... مُتَعَالِ
١٩٤	١	الكامل	طَاوَلَتْ ... مِكْسَالِ
٢٠٦	١	الكامل	مَا شِئْتُ ... الْحَالِي
٢١٠	١	الكامل	بَلَيْتٌ ... بِيَالِ
١٥٤	٥	الطويل	وَدُونَكَ ... بَابِلُ
١٥٩ و ١٦٠	١٢	الطويل	وَأَجَرَيْتَ ... هَازِلُ
١٩٥	١	الطويل	غُبُوثٌ ... تُنَازِلُ
١٩٥	٢	الطويل	فَلَا الْحَفْلُ ... هَائِلُ
٢١٩	١	الطويل	فَقَبِلَ ... الْمَعَاقِلُ
٢٣٣	١	الطويل	وَأَذْهَمَ ... الْأَسَافِلُ
١٧٢	١	الكامل	نُورٌ ... يَأْمُلُ
١٨٦	١	الكامل	أَنْتَ الْإِمَامُ ... يُعَدُّ
١٨٦	١	الكامل	حَلِيقَتُهُ ... يَجْمَلُ
١٨٦	١	الكامل	يَا ابْنَ الْإِمَامِ ... يُجْهَلُ
١٨٨	١	الكامل	وَاللَّهُ ... تُهْمِلُ
١٩٠	١	الكامل	يَنْهِي الْمَعَالِي ... يَتَوَقَّلُ
١٩٤	١	الكامل	يَا ابْنَ الدِّينِ ... الْمَتَهَلِّلُ
١٩٤	١	الكامل	وَالتَّاجُ ... يُكَمِّلُ
٢١٨	١	الكامل	مَنْ مُبْلَغٌ ... الدُّبُلُ

القافية	البحر	عدد الأبيات	
وَلَرُبَّ لَمَاعٍ ... مُسْتَقْبِلُ	الكامل	٤	٢٢٤ و ٢٢٥
كَانُوا بِحَارًا ... فَتَسِيلُوا	الكامل	٢	٢٢٥
أَوْ أَذْهَمٍ ... الْأَرْجُلُ	الكامل	١	٢٣٣
لَوْ كُنْتُ ... رَسُولًا	الكامل	١	١٣٥
وَسَرَيْتُ ... حُلُولًا	الكامل	١	١٣٦
هَذَا ... رَحِيلًا	الكامل	١	١٣٦ و ١٨٦
وَأُحْطُ ... نَزِيلًا	الكامل	١	١٣٦
صَلَّى ... مِيلًا	الكامل	١	١٣٧ و ١٣٩
وَاللَّهِ ... بَدِيلًا	الكامل	١	١٣٨
وَإِلَيْكَ ... جَمِيلًا	الكامل	٢	١٣٨
لَا زَالَ ... مَوْصُولًا	الكامل	١	١٣٨
وَالشَّمْسُ ... تَطِيلًا	الكامل	١	١٣٩
أَنْتَى عَلَيَّ ... الْإِنْجِيلًا	الكامل	٢	١٣٩ و ١٨٦
حَيْثُ ... سَيُولًا	الكامل	١	١٤٥
جَهَّزُ ... كَفِيلًا	الكامل	١	١٤٥
كَمْ بَلْدَةٍ ... التَّهْلِيلًا	الكامل	٢	١٤٥
يَا نَاصِرَ ... جَزِيلًا	الكامل	١	١٤٥
كَيْفَ ... جَمِيلًا	الكامل	١	١٦٦
وَلَقَدْ أَجَدُّ ... مَحِيلًا	الكامل	٣	١٦٧
نَاشِدُنْكُمْ ... مَسْوُولًا	الكامل	١	١٧٠
وَأَتَيْتَ ... تَفْصِيلًا	الكامل	١	١٧٠
يَا لَيْتَ ... جَلِيلًا	الكامل	٢	٢٠٨
حَمَلْتُ ... نُصُولًا	الكامل	١	٢٠٩
وَاللَّهِ ... دُبُولًا	الكامل	١	٢١٠
مَلِكٌ ... بَلِيلًا	الكامل	١	٢١٠

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
وَأَقَامَ ...	الكمال	٣	
لَمْ يَعْرِفِ ...	الكمال	١	٢٣٢
أُزُورُ ...	الطويل	٤	١٨٥

(الميم)

كَمْ خُضَّتْ ...	الكمال	١	١٠٣
طَارَدَتْ ...	الكمال	٢	١٥٣
وَاللَّيْلُ ...	الكمال	١	١٥٦
وَمُنُوعٌ ...	الكمال	٣	١٦٠ و ١٦١
وَلَقَدْ أَجَدُّ ...	الكمال	١	١٦٧
وَلَكَ الْأَيْدِي ...	الكمال	١	١٩٢ و ١٩٧
فَإِذَا هَوَى ...	الكمال	١	٢٠٤
فَطُعِنْتُ ...	الكمال	١	٢٠٥
وَكَيْبِيَّةٌ ...	الكمال	٢	٢٣٠
أَجَلٌ ...	الطويل	١	٢٠٤
لَقَدْ رَامَ ...	الطويل	١	٢١٦
وَمَا ضَرَّهَا ...	الطويل	١	١٤١
وَكَمْ بَيَّتْ ...	الطويل	٢	١٤٥
وَوَاللَّهِ ...	الطويل	٢	١٦٢
وَلِلَّهِ ...	الطويل	١	١٧١
كَسَانِي ...	الطويل	١	٢٠٦
عَلَى أَنْ رُوجِي ...	الطويل	١	٢٠٦
وَكَمْ لَيْلَةٌ ...	الطويل	١	٢١٦
وَكَمْ مِنْ لَوَاءٍ ...	الطويل	١	٢١٨
تَبَارَكَ ...	الطويل	٢	٢٦
وَلَوْ خَيْرٌ ...	الطويل	٣	٢٧

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
وَطَوَّقْتَهُمْ ...	الطويل	٣	٢٦
فَيَا ابْنَ الْعَلَى ...	الطويل	٤	٢٧
تَأْمَلْ ...	الطويل	٢	٢٨ و ١٣٣
تَوَجَّعْتَنِي ...	المجث	٢	٨٩

(النون)

مَالِي ...	يَدَانِ	مَخْلَعُ الْبَسِيطِ	١	١١٨
وَمَاذَا ...	قُرْآنِ	الطويل	١	١٣٩
فَصَلَّى ...	الْبَانِ	الطويل	١	١٣٩
وَأَكْرِمَ ...	قُرْقَانِ	الطويل	١	١٧٣
أَسَامِرُ ...	حَلِيقَانِ	الطويل	١	١٩٢ و ١٩٨
لَيْشَ بَلَّغُوا ...	دِيَانِ	الطويل	١	٢٠٩
ذَكَاءُ ...	سَحْبَانِ	الطويل	١	٢١٧
عَلَى كُلِّ نَضْرٍ ...	سَهْمَانِ	الطويل	١	٢١٤
وَمَا زِلْتُ ...	يَنْسَانِي	الطويل	١	١٠٣
ثَلَاثُتُهَا ...	زِينَةَ	الطويل	١	١٧٢

(الهاء)

مَا أَقْبَحَ ...	تَرْعَاهُ	البسيط	٢	١٦٩
صَلَّى ...	أَفْوَاهُ	البسيط	١	١٦٩
بَحْرُ الْوُجُودِ ...	مُرْسَاهُ	البسيط	١	١٧٠
وَكُلُّهَا نَعَمَ ...	عَطَايَاهُ	البسيط	١	١٧١
يَافَاتِقَ ...	قَضَايَاهُ	البسيط	١	١٧١
عَزَاءُ ...	يُجْرِيهَا	الطويل	٣	١٤٩
سَلَامٌ ...	فِيهَا	الطويل	١	١٥١
أُمُولَايَ ...	فِيهَا	الطويل	٧	١٥١

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	القافية
١٥١	١	الطويل	سَأَبْكِيهِ ... قَمَارِيهَا
١٩١	١	الطويل	هُوَ الْجَبَلُ ... رَوَاسِيهَا
١٩١	١	الطويل	وَمَا أَنْتَ ... فَيُقْشِيهَا
١٩١	١	الطويل	وَقَدْ عِشْتُ ... أَمَانِيهَا
١٩٢	١	الطويل	وَتَبْكِيهِ ... جَوَارِيهَا
١٩٤	١	البيسط	إِنَّ الْحِجَارَ ... مَعَانِيهَا
١٩٥	١	البيسط	الْبَشْرُ ... فِيهَا
٢٠٦	١	البيسط	فَإِنْ تَصُبُّ ... هَامِيهَا
٢٠٨	١	البيسط	وَرُبُّ نَهْرٍ ... يُرْدِيهَا
٢٢٤	٤	البيسط	كَأَنَّما الزُّهْرُ ... يَجْبِيهَا
٢٣٠	١	البيسط	تَجْرِي ... يُجْرِيهَا

(الياء)

٣٥ و ٣٤	٢٣	الطويل	أَنَا الرُّؤُوسُ ... خَالِيَا
٣٥ و ٣٤	١	الطويل	تَمُدُّ ... مُنَاجِيَا
٣٦	١	الطويل	وَيَبْنِي ... هُوَ مَا هِيََا
٣٧	٣	الطويل	وَمُنْحَوْتُهُ ... التَّوَاحِيَا
٣٩ و ٣٨	١٢	الطويل	تَبَارَكَ ... الْمَعَانِيَا
١٦٥ و ١٠٣	١	الطويل	خَلَوْتُ ... خَالِيَا
١٤٦	٥	الطويل	أَقَمْتُ ... عَافِيَا
١٥٣	٢	الطويل	نَظَّمْتُ ... الْقَوَافِيَا
١٥٤	٢	الطويل	وَدُونَكَ ... غَوَالِيَا
١٥٧	١	الطويل	وَتَهْوَى ... جَوَارِيَا
١٦٣	١	الطويل	وَبِالْخَيْفِ ... عَانِيَا
١٦٥	٤	الطويل	وَلَيْلَةً ... رَوَانِيَا
١٩٤	١	الطويل	سَلِ الْأَفَقَ ... خَالِيَا

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	القافية
١٨٤ و ١٨٥	٣	الطويل	يُكَلِّفُنِي ... مَالِيَا
١٩٢	١	الطويل	وَأَذْكُرُنِي ... نَاسِيَا
١٩٢	١	الطويل	وَمَنْ يُطْعِم ... لَاحِيَا
١٩٣	١	الطويل	كَتَبْتُ ... السَّوَاقِيَا
١٩٥	٢	الطويل	أَلَسْتُ الَّذِي ... الْعَوَادِيَا
٢٠٩	١	الطويل	قَضَى اللَّهُ ... قَاضِيَا
٢١٠	١	الطويل	أَرَى الْمَالَ ... بَاقِيَا
٢١٨	١	الطويل	إِذَا اسْتَبَقَ ... التَّهَانِيَا
٢١٩	١	الطويل	وَصِيدَ ... الْأَعَادِيَا
٢٤٣	١	الطويل	يُضِيءُ ... بَدَالِيَا
٢٢٤	١	الطويل	تَأْوِينِي ... ضَافِيَا
٢٢٦	١	الطويل	كَأَنِّي بِهِ ... الْعَوَالِيَا
٢٣٢	١	الطويل	وَلَا حَ ... الْمَبَانِيَا

٢ - الصدور

الصفحة	البحر	
٢٨	الطويل	تَبَارَكَ مَنْ أَبْدَاكَ فِي كُلِّ مَظْهَرٍ
٢٨	الطويل	فَكَمْ مَغْقِلٍ لِلْكَفْرِ صَبَّخَتْ أَهْلُهُ
١٧٢	الطويل	فَاتَّبَعَهُ مِنْهَا ذَوَابِلُ شَرِّعٍ
٢٠٥	الطويل	كَأَنَّ الْغَنِيَّ بِاللَّهِ فِي الرُّوْضِ قَدْ سَرَى
٢٠٩	الطويل	صَدَعَتْ بِفَضْلِ الْقَوْلِ غَيْرُ مُنَازِعٍ
٢٨	الكمال	وَأَعَزَّ مَنْ وَلَّاهُ أَمْرَ عِبَادِهِ
٢٨	الكمال	كَمْ بَلَدَةٍ لِلْكَفْرِ قَدْ عَوَّضَتْ مِنْ
١٨١	الكمال	لَوْلَا تَأَلَّقَ بَارِقُ التَّذْكَارِ
١٨١	الكمال	حَيَّاكَ يَا دَارَ الْهَوَى مِنْ دَارِ

البحر	الصفحة
لِلْغَنِيِّ بِاللَّهِ قَصْرٌ	مجزوء الرمل ٢٠٥

٣ - الأعجاز

١٤٦	الكامل	عُرِّرَ تَلُوحُ بِأَوْجِهِ الْأَعْصَارِ
١٤٦	الكامل	مُسْتَمْتَعٌ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ
١٤٦	الكامل	رَوْضٌ تَفْتَحُ عَنْ شَقِيقِ بَهَارِ
١٤٦	الكامل	وَكَفَى بِسَعْدِكَ حَامِيًا لِلْذَمَارِ
١٤٦	الكامل	جَذْلَانِ يَزْفُلُ فِي حُلَى اسْتِيشَارِ
١٤٦	الكامل	مُتَعَتِ بِالْحُسْنَى وَعُقْبَى الدَّارِ
١٤٦	الكامل	أَغْرَتْ جُفُونُ الْمُزْنِ بِاسْتِعْبَارِ
١٤٦	الكامل	تَنْسَابُ فِيهِ أَرَاقِمُ الْأَنْهَارِ
١٤٦	الكامل	بِالْمُشْرِفِيَّةِ وَالْقَنَا الْخَطَارِ
١٤٦	الكامل	يَتَعَلَّلُونَ بِهِ عَلَى الْأَكْوَارِ
١٤٦	الكامل	مَا شِئْتَ مِنْ نَصْرِ وَمِنْ أَنْصَارِ
٢٠٥	الخفيف	لِلْغَنِيِّ بِاللَّهِ فَوْقَ الطُّرُوسِ
١٣٧	الكامل	مَحَقَّ الضَّلَالِ وَأَذْهَبَ التَّضْلِيلَا

٤ - الموشحات

١٣٠	مخلع البسيط	يَا مُلْهَمَ الْقَلْبِ لِلْغُيُوبِ
١٥٦	مخلع البسيط	أَخْتَالَ كَالْمُهْرِ فِي الْجَمَاحِ
٢١١	مخلع البسيط	قُلْ لِي يَا رَبَّةَ الْوِشَاحِ
١٠٤	مخلع البسيط	بَيْنَا أَنَا وَالشَّبَابُ ضَافِ
١٥٧	مخلع البسيط	كُرْسِيهَا جَنَّةُ الْعَرِيفِ
٢١٩	مخلع البسيط	خُلِقْتُ مِنْ عَادَتِي الْوَفَا
١٥٧	مخلع البسيط	عَرُوسَةٌ تَأْجُهَا السَّيِّكَةُ
١٣١	مخلع البسيط	أَنْجَزَ لِي وَعَذَكَ الْقَبُولُ

الصفحة	البحر	
١٥٧	مخلع البسيط	نَسِيمُ غَرْنَاطَةٍ عَلِيلُ
١٥٨ و ١٣١	مخلع البسيط	رَيْحَانَةُ الْفَجْرِ قَدْ أَطْلَتْ
١٥٨	مخلع البسيط	شَيْلُهَا مَدُّ مِنْهُ نِيلُ
١٥٩	مخلع البسيط	وَأَعْيُنُ الزَّهْرِ لَا تَنَامُ
١٥٨ و ١٥٧	مخلع البسيط	لِلزَّهْرِ فِي عِطْفِهَا رُقُومُ
٢٣٤	مخلع البسيط	وَبَلْبُلُ الدَّوْحِ إِنْ تَغْنَى
٢١١	مجزوء الرجز	فَأَيُّقِظُ النَّدْمَانُ
١٣١	مجزوء الرجز	لَيْلُ الْهَوَى يَفْظَانُ
٢٣٤	مجزوء الرجز	وَكَيْفَ بِالسُّلُوانِ
٢٣٥	مجزوء الرجز	وَالْحُبُّ ذُو عُذْوَانِ
١٣١	مجزوء الرجز	خُذْهَا عَلَى دَعْوَى
١٥٨	الرملي	وَكَسَا الْأَدْوَاخَ شَيْئاً مُذْهَباً
١٣٠	الرملي	عَرَدَ الطَّيْرُ فَنَبَّهَ مَنْ نَعَسَ
١٣٠	مجزوء الرمل	وُجْهَ هَذَا الْيَوْمِ بِاسْمِ
١٣٠	السريع	قَدْ نَظَّمَ الشَّمْلُ أَتَمَّ انْتِظَامَ
١٧٣	السريع	وَيَكْتُبُ الْفَالُ عَلَى كُلِّ بَابِ
١٧٣	السريع	يَتْلُو عَلَيْكَ الدَّهْرُ فِي كُلِّ عَامِ
١٧٣	السريع	يَتْلُو عَلَيْكَ الدَّهْرُ بَعْدَ السَّلَامِ

ثانياً: أشعار سائر الشعراء

الصفحة	البحر	عدد الأبيات	صاحبها	القافية
١ - الأبيات				
(الباء)				
٢١٨	أبو تمام	١	البيسيط	الرَّعْبُ ... لَمْ يَغْزُ ...
١٩٦	ابن المعتز	٢	الطويل	رَقِيبٌ ... سَقْتَنِي ...
٢١٧	النايعة	١	الطويل	كَوَكِبٌ ... بَأْنَكْ شَمْسُ ...
٢١٦	بشار	١	الطويل	كَوَاكِهُ ... كَانَ مُثَارَ ...
(الحاء)				
١٩٦	ابن وكيع	١	الخفيف	أَفْذَاحٌ ... هِيَ فِي أَوْجِهِ ...
٥٥	ابن الجياب	٤	البيسيط	ضَحَى ... يَاطَلِبُ الْعِلْمِ ...
(الذال)				
٢١٧	أبو نواس	١	البيسيط	بُدُّ ... تَسْقِيكَ ...
١٢٠	أحدهم	١	الطويل	عَبِيدُهَا ... خَلِيلِي ...
٩٨	يوسف الثالث	٥	البيسيط	عَوْرٍ ... هَلْ كَانَ ...
(السين)				
٢١٧	أبو تمام	١	الكامل	إِيَّاسٍ ... إِفْدَامُ ...

القافية	البحر	عدد الأبيات	صاحبها	الصفحة
---------	-------	-------------	--------	--------

(اللام)

لَكَ الْقَلَمُ ...	المُفَاصِلُ	الطويل	١	أبو تمام	٢١٧
--------------------	-------------	--------	---	----------	-----

(الميم)

أَلَا هَكَذَا ...	الرَّسْم	الطويل	٩	ابن الخطيب	٥٦
وَأَعْلَمُ ...	عَم	الطويل	١	زهير	٢٠٤
وَمَنْ هَابَ ...	بِسْلَم	الطويل	١	زهير	٤١٦
صُفُوفًا ...	المَقَوْمُ	الطويل	١	المتنبي	٢١٨
يَا حُسْنَهَا ...	قَلَمِكَ	المنسرح	٣	بعضهم	١٠٧
هَلْ غَادَرَ ...	تَوَهُم	الكامل	١	عنترة	١٥٣
أَوْ مَرَّ عَنَتْرَةً ...	مِنْ مُتَرَدِّمٍ	الكامل	١	ابن الخطيب	١٥٣

(النون)

الرَّأْيُ ...	الثَّانِي	الكامل	١	المتنبي	٢١٩
فَصَاحَةٌ ...	لُقْمَانٍ	الطويل	١	ابن الخطيب	٢١٨

(الياء)

يُبِيدُ ...	الْأَعَادِيَا	الطويل	١	المتنبي	٢١٩
خُلِقْتُ ...	بَاكِيًا	الطويل	١	المتنبي	٢١٩
مَدَى بَلْغٍ ...	التَّنَاهِيَا	الطويل	١	المتنبي	٢١٨

٢ - الصدور

وَقِيدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً	الطويل	المتنبي	١٩٥
هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ	الكامل	عنترة	٢٢٧

البحر	صاحبها	الصفحة
٣ - الأعجاز		
على آثارِ دِمْتِيهَا الْعَفَاءُ	الوافر	زهير ١١٧
أَشْكُو إِلَى اللَّهِ لَا أَشْكُو إِلَى أَحَدٍ	البسيط	أحدهم ١١٩
وَبِذَاكَ خَبَرْنَا الْغَدَاةَ الْأَسْوَدُ	الكامل	النابعة ٢٠٢
تَقْضِي ذِمَامَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ	الكامل	أبو تمام ١٩٦
وَالشَّمْسُ تَكْبُرُ عَنْ حَلِيٍّ وَعَنْ حُلَلٍ	البسيط	أحدهم ١١٧

فهرست المصادر (*)

أولاً: كتب الأدب والتاريخ والتراجم

- ١ - ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل، «روضة النسرین في دولة بني مرین» الرباط، المطبعة الملكية، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
- ٢ - ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل، «نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان» حققه د. محمد رضوان الداية وسماه «أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن». سلسلة دراسات أندلسية رقم ٨، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- ٣ - ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل، «نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان» تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٧م.
- ٤ - ابن إدريس التجيبي المرسى، «زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر»، أعده وعلق عليه: عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٠م.
- ٥ - ابن بسام، «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ٦ - التبريزي، «شرح القصائد العشر» تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ٧ - حازم القرطاجني، «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦م.

(*) ذكرت هذه المصادر تبعاً لأسماء أصحابها وألقابهم وكناهم التي اشتهروا بها مرتبة وفق التسلسل الهجائي بغض النظر عن كلمتي «ابن» أو «أبي».

- ٨ - ابن حجر العسقلاني، «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ببلدة حيدر آباد، سنة ١٣٥٠م، السفر الرابع.
- ٩ - ابن الخطيب، لسان الدين، «الإحاطة في أخبار غرناطة» المجلد الأول: حققه محمد عبد الله عنان، دار المعارف سلسلة ذخائر العرب رقم ١٧، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مطبعة الموسوعات ١٣١٩هـ.
- ١٠ - ابن الخطيب، لسان الدين، «أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»، تحقيق: ليفي-بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م.
- ١١ - ابن الخطيب، لسان الدين، «الصيِّب والجهم والماضي والكهام» دراسة وتحقيق: د. محمد شريف قاهر، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.
- ١٢ - ابن الخطيب، لسان الدين، «الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة»، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، ١٩٦٣م.
- ١٣ - ابن الخطيب، لسان الدين، «كناسة الدكان بعد انتقال السكان» تحقيق: د. محمد كمال شبانة، مراجعة: د. حسن محمود، دار الكاتب العربي بالقاهرة.
- ١٤ - ابن الخطيب، لسان الدين، «اللمحة البدرية في الدولة النصرية» صححه ووضع فهرسه: محب الدين الخطيب المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ.
- ١٥ - ابن الخطيب، لسان الدين، «نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب» تحقيق: د. أحمد العبادي، راجعه: د. عبد العزيز الأهواني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
- ١٦ - ابن خلدون، «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً» دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، ١٩٧٩م.
- ١٧ - ابن خلدون، «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، مصور عن طبعة بولاق، طبعة ١٢٨٤هـ، الجزء السابع.
- ١٨ - ابن خلدون، «المقدمة» دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٩ - الذهبي والحسيني، «ذبول العبر» تحقيق: محمد رشاد عبد المطلب، مراجعة: د. صلاح الدين المنجد وعبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، سلسلة التراث العربي رقم ١٧.

- ٢٠- ابن سعيد المغربي، «المغرب في حلل المغرب» حققه: د. شوقي ضيف، سلسلة ذخائر العرب رقم ١٠، دار المعارف، الطبعة الثانية.
- ٢١- ابن سناء الملك، «دار الطراز في عمل الموشحات» حققه د. جودت الركابي، دمشق، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م.
- ٢٢- السيوطي، جلال الدين، «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩ م، جزءان.
- ٢٣- ابن فرحون، «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» وبهامشه: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» لأحمد بابا التنبكي. مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٢٩ هـ.
- ٢٤- الفيروزآبادي، «البلغة في تاريخ أئمة اللغة» تحقيق محمد المصري، سلسلة إحياء التراث القديم رقم ٢٧. منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.
- ٢٥- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، «الشعر والشعراء» نشر دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤، جزءان.
- ٢٦- القزويني الخطيب، «التلخيص في علوم البلاغة» ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، الطبعة الثانية، ١٩٣٢ م.
- ٢٧- القلقشندي، «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، مطابع كوستا توماس وشركاه بالقاهرة، وزارة الإرشاد والثقافة، المؤسسة المصرية العامة.
- ٢٨- القلقشندي، «مآثر الأنافة في معالم الخلافة» تحقيق: عبد الستار فراج، سلسلة التراث العربي رقم ١٢، الكويت، ١٩٦٤ م، الجزء الثاني.
- ٢٩- المقرئ، «أزهار الرياض في أخبار عياض» حققه: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الجزء الأول: ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م، الجزء الثاني: ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م.
- ٣٠- المقرئ، «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» حققه: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٨ مجلدات.
- ٣١- النباهي، «المراقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا» نشره: ليفي - بروفنسال، القاهرة، دار الكاتب المصري، ١٩٤٨ م.

٣٢- الناصر السلوي، «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» المجلد الأول، الجزء الثاني.

٣٣- ياقوت الحموي، «معجم الأدباء» سلسلة الموسوعات العربية، راجعته وزارة المعارف العمومية، مطبوعات دار المأمون، الجزء الثاني عشر.

ثانياً - الدواوين

٣٤- ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥، دار المعارف بمصر، ٤ مجلدات.

٣٥- ديوان ابن خفاجة، «تحقيق: د. السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، ١٩٦٠ م.

٣٦- ديوان زهير، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتاب سنة ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤ م.

٣٧- ديوان المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، دار المعرفة، بيروت، أعيد طبعه بالأوفست ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٨ م، ٤ أجزاء.

٣٨- ديوان النابغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥٢، دار المعارف، ١٩٧٧ م.

٣٩- ديوان أبي نواس، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي.

ثالثاً - المعاجم

٤٠- «الصحاح» للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.

٤١- «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، دار العلم للجميع، بيروت.

٤٢- «لسان العرب» لابن منظور، دار صادر، بيروت.

٤٣- «المنجد في اللغة»، الطبعة ٢٨، سنة ١٩٧٦، المكتبة الشرقية.

٤٤- «المنجد في الأعلام»، الطبعة الثامنة، سنة ١٩٧٥، المكتبة الشرقية.

٤٥- «محيط المحيط» للبستاني، مكتبة لبنان، ١٩٧٧ م.

فهرست المراجع العربية

أولاً - الكتب الأدبية والتاريخية

- ٤٦- أبي الخشب، إبراهيم علي، «تاريخ الأدب العربي في الأندلس» دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٦٦ م.
- ٤٧- أمين، أحمد، «ظهر الإسلام» مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٢ م، الجزء الثالث.
- ٤٨- البستاني، سليمان، مقدمة تعريب «الباذة هوميروس» دار إحياء التراث العربي، الجزء الأول.
- ٤٩- البصير، محمد مهدي، «الموشح في الأندلس وفي المشرق» مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨ م.
- ٥٠- بالثيا، آنخل جتالث، «تاريخ الفكر الأندلسي» تعريب: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى.
- ٥١- بروكلمان، كارل، «تاريخ الشعوب الإسلامية» تعريب: نبيه فارس ومنير بعلبكي، مطابع الآداب، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة ثانية ١٩٥٤ م.
- ٥٢- بول، ستانلي، «قصة العرب في إسبانيا» تعريب: علي الجارم بك، مطبعة المعارف، ١٩٤٤ م.
- ٥٣- حمصي، أحمد سليم، «شعر الخمر في الأندلس» رسالة دبلوم الدراسات العليا، سنة ٩٧٧-٩٧٨، مخطوطة.
- ٥٤- خالص، د. صلاح، «إشبيلية في القرن الخامس الهجري» دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥ م.

- ٥٥- الداية، د. محمد رضوان، «تاريخ النقد الأدبي في الأندلس» سلسلة دراسات أندلسية رقم ١، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨١ م.
- ٥٦- الزركلي، خير الدين، «الأعلام» دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩ م.
- ٥٧- عباس، د. إحسان، «تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين»، دار الثقافة، بيروت الطبعة الرابعة، ١٩٦٤ م.
- ٥٨- العقاد، عباس محمود، «مطالعات في الكتب والحياة» دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م.
- ٥٩- عنان، محمد عبدالله، «الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال» مؤسسة الخانجي بالقاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.
- ٦٠- عنان، محمد عبدالله، «لسان الدين بن الخطيب - حياته وتراثه الفكري»، مكتبة الخانجي بالقاهرة مطبعة الاستقلال الكبرى، الطبعة الأولى، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.
- ٦١- عنان، محمد عبدالله، «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين» مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م.
- ٦٢- غرسيا - غومس، اميليو، «الشعر الأندلسي» تعريب: د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩ م.
- ٦٣- غرسيا - غومس، اميليو، «مع شعراء الأندلس والمنتبي» «Cinco poetas musulmanes» تعريب: د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٧٨ م.
- ٦٤- فون شاك، «الفن العربي في إسبانيا وصقلية» تعريب: د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ١٩٨٠ م.
- ٦٥- القلماوي، سهير، «... ثم غربت الشمس» سلسلة اقرأ رقم ٧٦، دار المعارف، ١٩٤٩ م.
- ٦٦- كراتشكوفسكي، «الشعر العربي في الأندلس» تعريب: د. محمد منير مرسى، تقديم: د. أحمد هيكمل، عالم الكتب بالقاهرة، ١٩٧١ م.
- ٦٧- الكفراوي، د. محمد عبد العزيز، «تاريخ الشعر العربي» دار نهضة مصر، الطبعة الأولى، الجزء ٤.

- ٦٨- لوبون، غوستاف، «حضارة العرب» نقله إلى العربية: عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩ م.
- ٦٩- ليفي- بروفنسال، «حضارة العرب في الأندلس» تعريب: ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ٧٠- ليفي- بروفنسال، «محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها» تعريب: محمد عبد الهادي شعيرة، راجعها: عبد الحميد العبادي بك، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥١ م.
- ٧١- المرباط، جواد، «عبر وعبرات من دمشق الأندلس» دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.
- ٧٢- مكي، د. الطاهر أحمد، «دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة» دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٠ م.
- ٧٣- نصار، د. حسين، «القافية في العروض والأدب» مكتبة الدراسات الأدبية رقم ٧٩، دار المعارف، ١٩٨٠ م.

ثانياً - الدوريات

- ٧٤- مجلة «تطوان»، مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية، العدد الثامن، ١٩٦٣ م.
- ٧٥- مجلة «عالم الفكر»، العدد الأول من المجلد الثاني عشر، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨١ م.
- ٧٦- مجلة «عالم المعرفة»، رقم ٣١: «الموشحات الأندلسية» للدكتور محمد زكريا عناني، الكويت، ١٩٨٠ م.
- ٧٧- مجلة «الفكر العربي»، العدد ٢١، السنة الثالثة.

فهرست المراجع الأجنبية(*)

أولاً - الكتب الأدبية والتاريخية :

- 78 - Alarcon y Santon, M.A. y De Linares, R.G., «Los Documentos arabes diplomaticos del archivo de la corona de Aragon» (D.A.D.A.C.A.), Madrid, 1940.
- 79 - Balbas, I. Torres, «La Alhambra y el Generalife» (A.G.), Madrid, 1953.
- 80 - Ballester, Rafael, «Histoire d'Espagne» (H.E.) traduit de l'espagnol par Théodoric Legrand, Payot - Paris, 1938.
- 81 - Brémon, Général Edouard, «Berbères et Arabes» (B.A.) Payot - Paris, 1942.
- 82 - Brocklmann, Karl, «Geschichte der arabischen literatur», 1948.
- 83 - Coppée, Henry, «History of the Conquest of Spain by the Arab - Moors» (H.C.S.) vol. II, Boston, 1881.
- 84 - De Gayangos, Pascual, «The History of the Mohammaden dynasties in Spain» (H.M.D.S.), London, 1843, vol. II.
- 85 - De Marlès, M., «Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal» (H.D.A.M.E.P.), Paris, 1825.
- 86 - Hamet, Ismaël, «Histoire du Maghreb» (H.M.), Paris, édition Ernest Leroux, 1923.
- 87 - Imamuddin, S.M., «A Political history of Muslim Spain» (P.H.M.S.), Pakistan, 1961.
- 88 - Irving, Washington, «The Alhambra», Hudson edition, first published, 1973, vol. I.

(*) تجدر الإشارة، هنا، إلى أنني راجعت كتباً كثيرة باللغات الفرنسية والانكليزية والاسبانية والالمانية، غير أنني لم أذكر منها، في هذا الفهرست، إلا المراجع التي استشهدت ببعض ما جاء فيها من أقوال وآراء تتصل بهذه الدراسة.

- 89 - **Lafuente y Alcantara, E.**, «Inscripciones arabes de Granada» (I.A.G.), Madrid, 1859.
- 90 - **Lambert, Elie**, «Art Musulman et Art Chrétien dans la péninsule ibérique» (A.M.A.C.), Avril 1958.
- 91 - **Lane - Poole, Stanley**, «The Moors in Spain» (M.S.) London, 10^e édition, 1920.
- 92 - **«Lévi - Provençal, E.**, «Inscriptions arabes d'Espagne» (I.A.E.) (Planches), Leyde, Larose, Paris, 1931.
- 93 - **Lévi - Provençal, E.**, «La civilisation arabe en Espagne - vue générale», 3^eme édition, Paris, 1961.
- 94 - **Lomax, Derek W.**, «The Reconquest of Spain» (R.S.) London and New York, first published, 1978.
- 95 - **Palencia, Angel, G.**, «Historia de la Espana Muslamana» (H.E.M.), Barcelona, tercera edición, 1932.
- 96 - **Piquet, Victor.**, «L'Espagne des Maures» - Esquisses historiques, Paris, 1945.
- 97 - **Read, Jean.**, «The Moors in Spain and Portugal» (M.S.P.), London, 1974.
- 98 - **Safadi, Yasin Hamid.**, «Calligraphie islamique» (C.I.) Chêne, Paris.
- 99 - **Scott, S.P.**, «History of the moorish empire in Europe» (H.M.E.E.), vol. III, March, 1904.
- 100 - **Terrasse, Henri.**, «Islam d'Espagne» (I.E.) imprimé en France, 1958.
- 101 - **Valéry, Paul.**, «Variétés» Paris, 1945.
- 102 - **Watts, Henry E.**, «Spain» London, 1893.

ثانياً - الدوريات الأجنبية :

- 103 - **«Al - Andalus».**, «Revista de las escuelas de estudios arabes de Madrid y Granada, vol.: 13 (1948), 21 (1956), 24 (1959), 35 (1970), 38 (1973), 41 (1976), 42 (1977).
- 104 - **«Annales de l'Institut d'études orientales».**, (A.I.E.O.), faculté des lettres de l'Université d'Alger, tomes II (1936) et XVI (1958).
- 105 - **«Hespéris».**, Tomes 16 (1923), 23 (1946) et 43 (1956).
- 106 - **«Journal asiatique».**, (J.A.), série 3, tomes 8 et 13, série 9, tome 12.
- 107 - **«Revue d'histoire de civilisation de Maghreb».**, (R.H.C.M.), Juillet 1970.

ثالثاً - المجلات السياحية :

- 108 - **«L'Alhambra et le Généralife».**, (A.G.F.), Ricardo Villa - Real,

Miguel Sanchez, Granada, Traduction: Fernande et Marie Laffranque.

- 109 - «L'Alhambra: Le Palais Royal», (A.P.R.), Emilio Garcia - Gomez et Jesus Bermudez Pareja, Italie, 1967.
- 110 - «Tout Granada», imprimé en Espagne, Barcelona, 3ème édition, Mars 1981.

رابعاً - المعاجم والموسوعات :

- 111 - «Encyclopédie de l'Islam», nouvelle édition, tome III, Leyde et Paris, 1971.
- 112 - «Petit Larousse», Illustré, Librairie Larousse, Paris, 1979.

فهرست الأطروحة

المقدمة	٥
القسم الأول: الجانب التاريخي	١٩ - ١٠٩
الباب الأول: مملكة غرناطة	٢١ - ٨١
- الفصل الأول: الحالة العمرانية	٢١ - ٤٢
- الفصل الثاني: الحالة السياسية	٤٣ - ٥٢
- الفصل الثالث: الحالة الفكرية	٥٣ - ٨١
الباب الثاني: سيرة ابن زمرك	٨٣ - ١٠٩
- اسمه وكنيته ولقبه	٨٣
- نسبه	٨٤
- مولده	٨٦
- دراسته وشيوخه	٨٦
- مناصبه	٨٨
- تاريخ وفاته	٩٦
- تلامذته	٩٨
- صفاته وأخلاقه ولمع من أخباره	٩٩
آثاره	١٠٩

القسم الثاني: الجانب الأدبي

- الفصل الأول: نثره ١١٣ - ١٢١
- الفصل الثاني: شعره ١٢٣ - ١٧٤
- المبحث الأول: موشحاته ١٢٦
- المبحث الثاني: شعره المدحي ١٣٢
- مولدياته ١٣٢
- غنياته ١٤٠
- مرثياته ١٤٩
- فخره ١٥٢
- المبحث الثالث: وصفه ١٥٤
- المبحث الرابع: غزله ١٦٢
- المبحث الخامس: المسحة الصوفية في شعره ١٦٨
- الفصل الثالث: فنيته ١٧٥ - ١٩٩
- تأثره بفنية من سبقوه ١٧٥
- أسلوبه في النظم ١٧٩
- بحور قصائده وقوافيها ١٧٩
- الجوازات الشعرية ١٨٥
- الألفاظ ١٨٧
- التراكيب ١٩٠
- الوجوه البلاغية ١٩١
- الفصل الرابع: سقطاته ٢٠١ - ٢١١
- العيوب العروضية ٢٠٣
- سقطات المعنى ٢٠٥
- سقطات المبنى ٢٠٧

- الفصل الخامس: تقليده وتجديده ٢١٣ - ٢٣٥
- المبحث الأول: التقليد ٢١٣
- المبحث الثاني: التجديد ٢٢٠
- التجديد الجزئي ٢٢١
- الابتكار ٢٢٧
- الخاتمة ٢٣٧ - ٢٤٢
- الجدول رقم ١. بالمصادر المتضمنة شعر ابن زمرك ٢٤٣
- الجدول رقم ٢. ببحور قصائده ٢٤٤
- الجدول رقم ٣. بأحرف الروى ٢٤٥
- الجدول رقم ٤. بأغراضه الصرفة ٢٤٦
- الجدول رقم ٥. بأهم الأحداث والمجريات في العهد النصري الثاني ٢٤٧
- الجدول رقم ٦. بأسماء سلاطين غرناطة المتعاقبين في القرن الثامن الهجري ٢٦٤
- الجدول رقم ٧. بأسماء السلاطين والملوك المعاصرين لسلاطين غرناطة في كل من المغرب وقشتالة وأراغون . ٢٦٥
- فهرست الآيات القرآنية ٢٦٧
- فهرست الأعلام ٢٦٩
- فهرست البلدان والأماكن ٢٧٨
- فهرست الأشعار ٢٨٢
- فهرست المصادر ٢٩٩
- فهرست المراجع العربية ٣٠٣
- فهرست المراجع الأجنبية ٣٠٦
- فهرست الأطروحة ٣٠٩

تطابق مع منشورائنا من

الشركة المتحدة للتوزيع

مكتبات - شارع مشويخ - شارع حمتي - وسط البلد
هاتف: 334-334-334 - ص. ب. 444 - رقم 444 - بيروت

مكتبة الإيمان

الرياض - لبنان - ص. ب. 334 - هاتف: 334-334-334